

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon – Tripoli: Branche P.O. Box Abou Samra - www.jilrc.com - social@journals.jilrc.com



www.jilrc.com ISSN 2311-5181

العام السابع - العدد 67 - سبتمبر 2020

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المشرفة العامة / أ.د. سرور طالبي

المؤسس ورئيس التحرير: د. جمال بلبكاي

www.jilrc.com - social@journals.jilrc.com

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)
د. بوطي محمد نورالدين (المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر)
د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)
د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر)

رئيس اللجنة العلمية: د. صونيا عيواج (جامعة باتنة 1، الجزائر)

اللجنة العلمية:

- د. باللموشي عبد الرزاق (جامعة الوادي، الجزائر)
د. بن الأخضر محمد (جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر)
د. جاب الله يوسف (جامعة المدية، الجزائر)
د. زين العابدين عبد الحفيظ (جامعة خميس مليانة، الجزائر)
د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)
د. عبد الله ملوكي (جامعة سطيف 2، الجزائر)
د. علاء المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)
د. قاسمي وفاء (جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر)
د. نجوى نايف عبد النبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)

أعضاء اللجنة التحكيمية الاستشارية لهذا العدد:

- د. إخلص محمد عبد الرحمن (جامعة الجزيرة، السودان)
د. أميرة سامي محمود حسين (مصر)
د. بلمداني نوال (جامعة معسكر، الجزائر).
د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر)
د. حسان سخسوخ (جامعة أم البواقي، الجزائر)
د. حسن زربية (جامعة قفصة، تونس)
د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)
د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون)
د. علي سلطاني العاتري (جامعة تبسة، الجزائر).
د. مزاراة نعيمة (جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر 2)
د. مسعودي طاهر (جامعة الجلفة، الجزائر)
أ.م. علاء كامل صالح العيساوي (جامعة البصرة، العراق)

التدقيق اللغوي:

- د. بوطي محمد نورالدين (المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر)
د. عبلة حسن (جامعة لينكولن، نبراسكا، الولايات المتحدة الأمريكية).
د. فانتن عددي (جامعة قسنطينة 1، الجزائر).

شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
 - اسم الباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@journals.jilrc.com

الفهرس

الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • الحرب النفسية الاستعمارية وتجلياتها خلال الثورة التحريرية الجزائرية 1955-1956 "مؤامرة العصفور الأزرق أنموذجاً"، محمدي محمد/ جامعة محمد بوضياف ؛ الجزائر.
- 19 • الفضاء العام: سيرورة تشكّل المفهوم، جمال بوطاهري، جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب.
- 35 • الموروث الثقافي الأمازيغي في الشرق الجزائري: مدينة سوق أهراس أنموذجاً، سمية بن جبار/ جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر 1.
- 49 • دور المراكز البحثية في إثراء المعرفة والبحث العلمي: دراسة ميدانية على عينة من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة سرت، لطيفة عمر البرق/جامعة سرت، ليبيا.
- 65 • حروب رعمسيس الثالث مع شعوب البحر (1194 - 1162 ق.م) تمام خالد الهواش - جهاد عبود/جامعة دمشق، سورية.
- 81 • التكنولوجيا بين الحياة الخاصة والأسرية : دراسة تحليلية، الزهرة الغلبي/جامعة شمال غرب للمعلمين، مدينة لانتشو، الصين.
- 101 • بيداغوجيا التركيب عند ادغار موران أو نحو براديفم جديد للتفكير في العالم، محمد شرقي/المركز الجهوي لمهن التربية و التكوين، مراكش، المغرب.
- 125 • نساء الفراولة، أنامل جنية : الوجه الخفي للهجرة النسائية المغربية إلى إسبانيا، الحسن فركاكوم/جامعة ابن زهر اكادير، المغرب.
- 137 • صورة مجتمع أولاد نائل في القرن التاسع عشر ميلادي من خلال رحلة "صيف في الصحراء" للرحالة أوجين فرومنتان، رفاف شهرزاد - سياب خيرة/ جامعة طاهري محمد ، الجزائر.
- 155 • Bangabandhu's Anti-injustice Thinking: A Review from Islamic Perspective, Md. Ridwan Ullah, M.Phil, /Islamic University, Kushtia-Bangladesh.

الافتتاحية

7

تواصل أسرة تحرير مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية بإصدارها للعدد السابع والستين (67)، ساعية جاهدا للاستمرار في الخط نفسه الذي اتخذته المجلة على عاتقها في تنوع الموضوعات واستقطاب نخبة من الباحثين من مختلف الأقطار.

ولقد جاء هذا العدد حافلا بمقالات قيمة ومميزة خضعت للتقويم والتحكيم العلميين، ومما لا شكّ فيه أن الهدف الأسمى للمجلة من خلال هذا العدد والأعداد السابقة هو محاولة تثمين البحوث العلمية الموضوعية وتعميق روح البحث لدى المهتمين وتأصيل مناهجه عندهم.

ولقد جاء العدد بمواضيع مختلفة وحديثة ما تزال الحاجة للبحث والتعمق فيها مستمرين. كما تعترف المجلة بمساهمة مختلف الباحثين من داخل الوطن وخارجه.

وتجدد أسرة المجلة دعوتها لكل الباحثين بالالتفاف حول هذا المنبر الأكاديمي بمساهماتهم العلمية، التي من شأنها أن تخدم البحث العلمي.

وأخيرا تتوجّه أسرة المجلة بتحيّة خاصّة لكل أعضاء هيئة التحرير نظرا لجهودهم الطيبة في إخراج هذا العدد وإتاحته أمام الدارسين. ونسأل الله تعالى أن يكون العمل على قدر الثقة الموضوعة فينا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،

رئيس التحرير / د. جمال بلبكي

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

الحرب النفسية الاستعمارية وتجلياتها خلال الثورة التحريرية الجزائرية 1955-1956

"مؤامرة العصفور الأزرق أنموذجاً"

The colonial psychological war against Algerians and its most prominent during the Algerian revolution 1955-1956: "The Blue bird conspiracy as an example».

أ. محمدي محمد/ جامعة محمد بوضياف المسيلة؛ الجزائر

P.Mhamdi Mohamed / University Of Msila , Algeria

ملخص:

تروم هذه الدراسة التاريخية المتواضعة، تسليط الضوء على شكل من أشكال الحرب الاستعمارية التي وظفتها الدول المعتدية ضد الدول المعتدى عليها، ومن ذلك ما وظفته السلطات الفرنسية في حربها ضد الجزائريين لما يزيد عن القرن وربع القرن من الاعتداء المباشر على الأرض والسكان، ويتعلق الأمر في هذه الدراسة بمحاولة الوقوف عند أساليب وطرق الحرب النفسية، التي اعتمدها قادة الحملة العسكرية ومنظروها في تثبيط عزائم الجزائريين في المقاومة والتصدي للغزو الأجنبي عشية احتلال البلاد في الـ 05 جويلية 1830، كما ظهر تصور هذه الحرب النفسية في أساليب اعتمد عليها العسكريون الفرنسيون في التصدي للتطورات التي عرفتها الثورة التحريرية (1954-1962) في المجالين السياسي والعسكري، حيث برزت أشكال مستحدثة من العمل البسيكولوجي الهادف للقضاء على الثورة الجزائرية ومحاولة اختراقها من الداخل، ومن أجل الوقوف عند هذا الأسلوب الحربي الاستعماري فلا أبلغ من تسليط الضوء على المؤامرة الاستخباراتية الفرنسية المعروفة بـ مؤامرة العصفور الأزرق بالمنطقة الثالثة (القبائل) سنة 1955.

الكلمات المفتاحية: السلطات الفرنسية، العصفور الأزرق، الدعاية، الإشاعة، الثورة الجزائرية، أساليب الاختراق.

Abstract:

This study attempts to elucidate one of the most evident forms of the declared colonial war against the colonized countries. It concerns the psychological war methods adopted by the French colonial authorities in their war against the Algerians for 132 years. But it emerged suddenly during the stage of the liberation revolution 1954-1962, particularly after the emergence of many images and different forms of this new war declared against the Algerians and in order to eradicate their revolution, where it was revealed in a major conspiracy targeted the third historical state, which is the blue bird conspiracy in 1955.

Keywords: French authorities, the Blue bird, propaganda, Algerian revolution, methods of penetration.

مقدمة:

منذ وطأت أقدام الاحتلال الفرنسي للجزائر عشية ال05 جويلية 1830، وسياسة هذا الأخير في البلاد تقوم على جملة من المرتكزات الاستعمارية الأساسية، والتي تهدف إلى امتلاك الأرض والاستحواذ على مقدراتها وخيراتها، والسعي للقضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية أو إذابتها في أتون الحضارة الأوروبية المسيحية المزعومة، مع التحضير لتعويض الساكنة الأصليين في هذه البلاد، بمزيج من الأجناس والأعراق الفرنسية والأوروبية الوافدة على الأرض الجزائرية، ضمن ملحقات الحملة العسكرية الفرنسية بعد اعتدائها على الأرض والسكان.

ومن أجل تحقيق حلم الأجداد وأمال الأحفاد في الجزائر الفرنسية، التي اجتمهد لتجسيدها الساسة والعسكريون والمستوطنون، كما كان للإدارة الفرنسية في الجزائر ذات الاهتمام لأجل المحافظة على حلم الجزائر الفرنسية، إذ وبالموازاة مع الأساليب العسكرية الموظفة للسيطرة وإخضاع الجزائريين، فقد كان لإدارة الاحتلال في الجزائر وسائل أخرى بديلة للأساليب العسكرية؛ مثل: السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، النفسية... وغيرها.

وبناء على ذلك، فقد حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على أنموذج حربي يندرج ضمن الأساليب الاستخباراتية والنفسية، التي اعتمدها السلطات الاستعمارية كوسيلة للقضاء على العمل المسلح للثورة التحريرية الجزائرية، وللوقوف عند هذا الخيار المستحدث من السلطات الاستعمارية الفرنسية في مجابهة تطورات وانتصارات الثورة الجزائرية 1954-1962، فلا أدل من "عملية العصفور الأزرق" Operation Oiseau Bleu " كأنموذج لأسلوب الحرب النفسية الاستعمارية المعتمد في المنطقة الثالثة (القبائل)، ويهدف الوقوف عند حقيقة المؤامرة الفرنسية الاستخباراتية ومراحلها وأساليبها، فقد كان من المنهجي الإجابة على التساؤلات الفرعية الآتي ذكرها:

1. ما هو مفهوم الحرب النفسية؟
2. ما المقصود بمؤامرة العصفور الأزرق؟ وما هي دواعي اللجوء إليها من السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر؟
3. ما هي أبرز حثيات مؤامرة العصفور الأزرق وأهم مراحلها؟
4. ما هي أهم نتائج مؤامرة العصفور الأزرق على منطقة القبائل بصفة خاصة والثورة التحريرية الجزائرية بصفة عامة 1954-1962؟

1-تعريف الحرب النفسية:

يكاد يتحقق إجماع الدارسين والباحثين من علوم ومعارف مختلفة، في شأن مصطلح "الحرب النفسية" Guerre psychologique، الذي يرى الكثير من المهتمين أنه قد أخذ أشكالاً وأصنافاً متعددة تماشياً مع عوامل الزمان والمكان، اللذين كان لهما تأثير واضح في التباين والتمايز الذي طرأ على مفهوم هذا المصطلح من زمن إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى، وبناء عليه فقد كان للمفردة سالفة الذكر مصطلحات أخرى مشابهة والتي نذكر منها على سبيل المثال: الحرب الباردة، حرب الأفكار،

الحرب الايديولوجية أو العقائدية، حرب الأعصاب، الحرب السياسية، حرب الاستعلامات الدولية، حرب الاعلام الدولي، العدوان غير المباشر...الخ.¹

وانطلاقاً من التباين الحاصل في ضبط هذا المصطلح، فقد كان لمفهوم "الحرب النفسية" كذلك ذات التباين والاختلاف وبخاصة خلال الحروب والنزاعات العسكرية المسلحة، وبناء على ذلك فقد حاولنا الاجتهاد في الوقوف عند أهم المفاهيم الواردة في تعريف الحرب النفسية²، استهدافاً للوصول إلى مفهوم يتوافق مع موضوع الدراسة، وعليه فقد استجمعنا جملة من التعاريف لمصطلح الحرب النفسية أهمها:

ورد في مفهوم الحرب النفسية العديد من التعاريف والتي حاولنا الوقوف عند أهمها:

"هي جميع الأساليب الموجهة للقضاء على العدو (باستثناء القوة العسكرية)، وذلك لغرض الاسهام بصورة فاعلة في قهره والتأثير عليه"³. كما ورد تعريفها أيضاً بمعنى: "التوظيف المحكم والمدير والمخطط له، لأساليب الدعاية وجميع التأثيرات النفسية الأخرى البديلة، لأجل تحقيق الأهداف المسطرة من الأطراف المتنازعة عسكرياً، وذلك من خلال التأثير على أفكار ومواقف وسلوك الدول والفئات المحايدة والصديقة خلال فترات الحرب". كما ورد مفهومها في موضع آخر: "في كونها جميع النشاطات والأعمال غير القتالية التي تنقل الأفكار والمعلومات، والتي يكون الهدف منها التأثير على خطط وأعمال العدو، بالتأثير على معنوياته وتثبيط همته وإرادته في القتال والدفاع عن وطنه"⁴.

وسعيّاً للوقوف عند التباين في مفهوم هذه الحرب عند الغربيين والمشاركة؛ فقد حاولنا الوقوف عند مفهومها عند بعض الدارسين الغربيين من أمثال "ليت Litte" الذي ذكر في مفهومها قائلاً: "بأنها الحملة الشاملة التي تستخدم فيها كل الأجهزة والأدوات المتاحة، من أجل التأثير في عقول ومشاعر جماعة محددة، من أجل تغيير مواقف معينة وإحلال مواقف أخرى بديلة لها، والتي تؤدي إلى سلوك يتفق مع مصالح الطرف الذي يشن هذه الحرب". في حين ورد تعريفها عند الدارسين المشاركة من أمثال "صلاح نصر" بالقول: "هي استخدام الطرف المعني لأي نوع من وسائل الاعلام، بقصد التأثير في عقول وعواطف جماعة معينة معادية أو جماعة محايدة أو جماعات صديقة أجنبية، لغرض استراتيجي أو تكتيكي معين"⁵.

ومما سبق نستطيع القول، أن الحرب النفسية هي واحدة من أشكال الحرب الاستعمارية التي تعلنها الدول المعتدية على الدول المعتدى عليها، وتكون جنباً إلى جنب مع الأساليب العسكرية وتهدف إلى التأثير في معنويات الخصم النفسية

¹- محمد بليل: الحرب النفسية الاستعمارية في مواجهة الثورة الجزائرية -منطقة مستغانم نموذجاً-، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال افريقيا، م 01، ع01، الجزائر، جانفي 2018، ص 190.

²- في ذلك إشارة إلى الحركات التحررية التي انتشرت في العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين، والتي عجزت القوانين الدولية كتصنيفها كأطراف أساسية في هذه النزاعات العسكرية المسلحة، كون هذه الأخيرة لا تتمتع بالصفة الدولية التي أقرتها الاتفاقيات والمواثيق الدولية المقتنة لهذه النزاعات الدولية، ينظر. عمر سعد الله: آراء في تقرير المصير السياسي للشعوب، دار هومه، الجزائر، 2014، ص 306.

³- حميدة مهدي سميسم: الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، العراق، 2004، ص 07.

⁴- سامي الزبيدي: الحرب النفسية أهدافها وفن استخدامها، الموقع الالكتروني: <https://www.azzaman.com>، التاريخ: 2019/07/17، التوقيت: 17 و45 دقيقة.

⁵- حميدة مهدي سميسم: المرجع السابق، ص 07.

والبسيكولوجية بأساليب متنوعة وكثيرة، كوسائل الدعاية والاعلام والاشاعة والتي عادة ما يكون لها تأثير كبير، حيث يكون موازياً في حالات كثيرة للأساليب العسكرية أو أشد منها فتكاً وتأثيراً.

2- مؤامرة العصفور الأزرق "Operation Oiseau Bleu" ودواعي اللجوء إليها:

أ- مفهوم مؤامرة العصفور الأزرق:

تعتبر مؤامرة العصفور الأزرق واحدة من أهم العمليات الحربية النفسية التي طبقتها المصالح الاستخباراتية الفرنسية في الجزائر إبان مرحلة الثورة التحريرية 1954-1962، فهي مشروع استعماري استخباراتي تعود فكرة الاعتماد عليه إلى الجنرال "جاكسوستيل"¹ منذ بداية خريف 1955 في المنطقة الثالثة (القبائل)²، أين اقترح هذا الأخير أن اختراق الثورة التحريرية وكسر شوكتها من الداخل، قد يكون أفضل خياراً للفرنسيين من المجابهة العسكرية المكلفة عدداً وعتاداً³، وعليه فقد كان مقترحه بتطبيق أسلوب الحرب النفسية والبسيكولوجية في هذه المواجهة، والتي رأى أن توظيفها من قبل عديد الدول الاستعمارية، قد حقق نتائج ملموسة في القضاء على الحركات التحررية بهذه البلدان أو الحد من خطورتها على الأقل⁴.

وفي سياق متصل بهذا الأسلوب الحربي المستحدث من الجنرال "جاك سوستيل" لاختراق الثورة الجزائرية، فقد أطلقت المصالح الاستخباراتية الاستعمارية الفرنسية على العملية الرامية إلى اختراق الثورة التحريرية بمنطقة القبائل في السنوات الأولى من عمرها، عديد المسميات التي لم تزد هذا الخيار الحربي إلا غموضاً وتعقيداً، ومن الأسماء التي أطلقت على هذه المؤامرة الاستعمارية ضد الثورة الجزائرية نجد: عملية العصفور الأزرق Operation Oiseau Bleu، العملية العسكرية السرية Operation Armee Secrete De Kabylie، عملية كوماندوك KOperation، عملية القوة ك- Forces، عملية المؤامرة-Complot Le Operation⁵.

وبالمقابل فقد أشار بعض الدارسين، بأن هذه المؤامرة الاستخباراتية هي في حقيقتها مشروع استعماري بديل لاختراق الثورة من الداخل والمحاولة لتفتيتها بالطرق النفسية، بعد الفشل الذي منيت به المشاريع العسكرية لعزل الثورة وفصلها عن الشعب وعن عالمها الخارجي كذلك (تونس والمغرب)، فقد كانت المراهنة هذه المرة على الخيار الاستخباراتي والنفسي، كبديل من

¹ من مواليد شهر نوفمبر 1912 بمدينة مونبيلييه بالجنوب الفرنسي؛ إسمه الحقيقي بن سوسان Ben Soussan من أصول يهودية، وفي فرنسا تلقى "جاك سوستيل" تعليمه وواصل تكوينه الجامعي، إذ نجد أنه قد درس الفلسفة وعلم الأجناس (الأنثولوجيا)، كما اشتغل بالتدريس في تخصص علم الاجتماع بالجامعة الفرنسية، لينضم بعد ذلك إلى الجيش الفرنسي في الجزائر وبه تدرج في المسؤوليات السياسية، حتى وصل منصب الولاية العامة بالجزائر سنة 1955 أي خلال حكومة منديس فرانس، صنف جاك سوستيل "" كأحد أشد المدافعين عن مشروع الجزائر الفرنسية كما كانت له فكرة العديد من المشاريع الاستعمارية الكبرى في الجزائر، مثل قانون الإطار، المراكز الادارية المتخصصة S.A.S...ألخ، ينظر. الموقع الالكتروني: <https://www.marefa.org>، التاريخ: 2019/07/18، الساعة: 10 و 10 دقائق.

² فتيحة قشيش: المخططات الاستعمارية لاختراق الثورة التحريرية- عملية الزرق- لابلويت- في الولاية الثالثة أنموذجاً، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م 06، ع 13، الجزائر، مارس 2018، ص 235.

³ محمد بليل: المرجع السابق، ص 191.

⁴ محمود بوسنة: دور الحرب النفسية في انجاح ثورة التحرير الجزائرية وإفشال سياسة الاستعمار الفرنسي الاستيطانية، مجلة أفكار و آفاق، م 04، ع 06، الجزائر، 2015، ص 319.

⁵ محمد الصالح الصديق: عملية العصفور الأزرق، دار دحلب للنشر، الجزائر، 2014، ص 125.

السلطات الاستعمارية للقضاء على الانتصارات الميدانية التي باتت تحصدتها الثورة التحريرية وجنود جيش التحرير، وعليه فقد كان للخيار النفسي للتصدي لمنجزات الثورة نصيب وافر من الاهتمام لدى السلطات السياسية والعسكرية الفرنسية على حد سواء، وهو ما اتضح في محاولاتها المتكررة لاختراق صفوف جيش التحرير بواسطة قوى محلية مناهضة ومناوئة للثورة التحريرية، اعتماداً على: أعوان المكاتب العربية، الحركي، العاملين في مصالح الإدارة المختصة S.A.S... الخ.¹

إذ حاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية في كل مرة، تسليح هذه العناصر الجزائرية المناهضة للثورة التحريرية وتسهيل مهمتها في اختراق الثورة التحريرية وجنود جيش التحرير من الداخل، مما يعزز من فرص السلطات الفرنسية في زعزعة التماسك والوحدة الوطنية لدى عناصر جيش التحرير والثورة الجزائرية، والسعي في المقابل لزرع الشك والريبة بين المجاهدين الجزائريين بعد عام واحد من اعلان العمل المسلح ضد السلطات الاستعمارية الفرنسية التي تجسد فشلها في مجابهة العمل المسلح للثورة الجزائرية.²

ب-أسباب اللجوء إلى مؤامرة العصفور الأزرق:

تشير أغلب الدراسات التاريخية إلى أن "مؤامرة العصفور الأزرق" المطبقة من قبل السلطات الاستعمارية الفرنسية في المنطقة الثالثة (القبائل) مع بداية خريف 1955، أن من الأسباب والدواعي التي أدت إلى اللجوء إلى المؤامرة الاستعمارية المعروفة بمؤامرة العصفور الأزرق، هي الفكرة التي أطلقها "جاك سوستيل" القادم الجديد لتخليص فرنسا من الثورة التحريرية الجزائرية مع مطلع فيفري 1955³، هذا الأخير الذي نصح بالاعتماد على وسائل أخرى موازية تكون بديلة للأساليب العسكرية المطبقة من السلطات الفرنسية في حربها ضد الجزائريين، حيث أشار بأن الاعتماد على الحرب النفسية القائمة على العمل الاستخباراتي، غالباً ما تكون له نتائج فعالة في الخطط الحربية للدول الاستعمارية، وهو الدافع الذي جعل "جاك سوستيل" يتمسك بخيار توظيف هذا النوع من الأساليب في حربه ضد الجزائريين، وفي ذلك استهداف لاختراق الثورة واجهاض العمل المسلح المتزايد لجنود جيش التحرير عبر وسائل استخباراتية ونفسية لم يعدها الجزائريون من قبل، ومن الأسباب التي كانت دافعا للسلطات الفرنسية للاعتماد على هذا الخيار من أشكال الحرب النفسية: نجد مايلي:

➤ أبعاد وخلفيات التكوين الثقافي والايديولوجي لشخصية القائد العسكري "جاك سوستيل"، كان عاملاً أساسياً في اختيار أسلوب الحرب النفسية وضرورة العمل لأجل تطبيقه في الجزائر، ففي هذا الصدد يشير أغلب الدارسين أن التكوين الثقافي والعلمي للحاكم الفرنسي الجديد على الجزائر قد ساهم إلى حد بعيد في هذا الاختيار الحربي، حيث أن لدراسة هذا الأخير وتكوينه المعرفي والعلمي في تخصص علم الأجناس والإثنولوجيا، وممارسته مهام التدريس لمقياس علم الاجتماع بمراكز الدراسات العليا في الجامعة الفرنسية، قد كان له واضح الأثر في اختيار هذا النمط من أشكال الحرب، حيث حاول هذا الأخير

¹- سهام بن غليمة: الحرب النفسية في الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1958 بين التخطيط الاستعماري الفرنسي وردود الفعل الجزائرية، أطروحة دكتوراه، إ: بلوفة جيلالي عبد القادر، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2016-2017، ص 136.

²- سهام بن غليمة: المرجع السابق، ص 144.

³- يزيد بوهناف: مشاريع التهدة الفرنسية إبان الثورة التحريرية وانعكاساتها على المسلمين الجزائريين 1954-1962، رسالة ماجستير، إ: سليمان قريبي، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2013-2014، ص 59.

تجسيد دراسته العلمية والنظرية في مجالات علم النفس والأشخاص في إطار عملي ميداني يكون فيه المجتمع الجزائري مجالاً للتجربة والاختبار.¹

✚ جهود الادارة الاستعمارية في مواصلة تجربتها المتعلقة بأسلوب الحرب النفسية في المستعمرات الخاضعة لها، حيث كانت بداية الشروع في تطبيقها ضد الحركات التحررية بالهند الصينية والتي كان لانهازم الفرنسيين فيها بعد معركة "ديان بيان فو" في ماي 1954، علاقة وطيدة برغبة الحكومة الفرنسية في تعويض هزيمتها إلى انتصارات عسكرية وبسيكولوجية في الجزائر، والتي واصل فيها الاستعمار الفرنسي توظيفه لأشكال الحرب النفسية المختلفة، والمتمثلة في صور: الدعاية، الاشاعة، التضليل، الاعلام المضاد...الخ.²

✚ تداعيات النتائج العسكرية التي أحرزتها الثورة الجزائرية وجنود جيش التحرير ضد القوات العسكرية الفرنسية، وبخاصة بعد الفشل الذي منيت به الحلول العسكرية في القضاء على الأعمال الثورية لجيش التحرير إبان الثورة التحريرية، وهو ما أعلن عنه القادة السياسيون والعسكريون الفرنسيون، معترفين بفشلهم في القضاء على هذه الأعمال النضالية والعسكرية للجزائريين، سيما في ظل فشلهم في اقناع الفرنسيين بأن هذه الحوادث إنما هي مظاهر معزولة من الشغب لمجموعة قليلة من الخارجين عن القانون، وهي التي كانت تطمئن الفرنسيين بعد وقت قريب أن هذه الأعمال شاذة ولا تمثل عموم مواقف الجزائريين.³

✚ الدور العسكري والثوري الهام الذي لعبته منطقة القبائل (المنطقة الثالثة) بعد المنطقة الأولى (الأوراس) في مجابهة السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وبخاصة إبان مرحلة الثورة التحريرية التي كانت منطقة القبائل فيها قلباً نابضاً للكفاح المسلح، مما جعل من المنطقة هدفاً واضحاً للسياسة الاستعمارية الفرنسية للقضاء على الدور الثوري الذي تقوده المنطقة، فكانت هذه الأخيرة هدفاً لسياسات جمة منها: العسكرية، السياسية، الاقتصادية، الاستخباراتية...الخ، وفي ذلك محاولة من الفرنسيين القضاء على دور المنطقة في العمل المسلح والثورة التحريرية بصفة عامة.⁴

وبناء على ما سبق الذكر؛ فإن للحرب الاستعمارية أشكال مختلفة ومتعددة، والتي يعد الأسلوب النفسي والبيكولوجي أحد أبرز فروعها، هذا الذي كانت له جذور وامتدادات تاريخية تعود إلى فترة الحرب الفرنسية في الهند الصينية، كما أن لميولات القادة العسكريين والسياسيين وتوجهاتهم الفكرية والايديولوجية دوراً بارزاً في الاعتماد على هذا الخيار الحربي، في مواجهة العمل العسكري الذي شرع فيه من جنود جيش التحرير والثورة الجزائرية بصفة عامة.

3-حيثيات ومراحل مؤامرة العصفور الأزرق : Operation Oiseau Bleu

تذكر الرواية أن مؤامرة العصفور الأزرق التي طبقتها السلطات الاستعمارية للقضاء على الثورة التحريرية في منطقة القبائل، هي في أصلها عبارة عن امتداد لمبادرة التسليح التي أطلقتها السلطات الفرنسية لصالح الأفراد التابعين للعمليات بلونيس، وذلك من أجل أن تكون هذه العناصر سندا للسلطات الاستعمارية الفرنسية في تحطيم الثورة التحريرية بعناصر محلية، في خطة لضرب الجزائريين ببعضهم البعض والاقتصاد في الجهد العسكري الفرنسي في مجابهته للثورة الجزائرية، غير

¹- يزيد بوهناف: المرجع السابق، ص59.

²- جمال قندل: مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعااطي مع الثورة الجزائرية -الحرب النفسية أنموذجاً-1954-1962، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع 19، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة الشلف، الجزائر، جانفي 2018، ص224.

³- محمد بليل: المرجع السابق، ص 191.

⁴- يحي بوعزيز: الثورة في الولاية الثالثة 1954-1962، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص-ص 22-30.

أن الهزائم التي مني بها العميل بلونيس في مجابهته لجنود جيش التحرير، قد ألزمت السلطات الفرنسية بالتراجع عن خطتها في دعم بلونيس ورجاله، واللجوء إلى خطة أخرى تكون هذه المرة في تجنيد رجال من منطقة القبائل، وإسنادهم مهمة اختراق الثورة التحريرية والعمل على تفجيرها من الداخل وهو ما أطلق عليه اسم "مؤامرة العصفور الأزرق"¹.

وفي ظل هذه العملية الاستخباراتية نجد أن السلطات الفرنسية قد لجأت إلى توظيف خيارات أخرى للقضاء المنجزات التي تحصدتها الثورة التحريرية، حيث ظهرت بداية المشروع الاستخباراتي مع بداية الاجتماع الذي جمع بين القادة العسكريين الفرنسيين من أمثال الجنرال "لوريلوت Lorillot" المكلف بالمنطقة العاشرة العسكرية حسب التقسيم العسكري للسلطات الفرنسية وبين ضابط الشرطة "أوسمر Ousmer"، بعد أن منح كل منهما الضوء الأخضر من المسؤول العسكري والسياسي "جاك سوستيل" في بداية شهر نوفمبر 1955، وذلك بهدف إعادة إحياء تجربة الحرب النفسية والخطة الاستخباراتية التي تعذر تطبيقها في المستعمرة الفرنسية السابقة بالهند الصينية والتي كان فيها الانهزام حليف العسكريين الفرنسيين في معركة تاريخية عرفت "ديان بيان فو"².

أما في ما تعلق بسبل تطبيق هذه الخطة الاستخباراتية الفرنسية، فقد ذكر "يحي بوعزيز" أن عملية الاتصال بين العناصر المكلفة بعملية الاختراق والسلطات الفرنسية كانت تتم بواسطة العضو الفاعل في منطقة القبائل والمدعو "حشيش الطاهر"، الذي اقترح على السلطات الفرنسية تدعيم هذه العناصر المتطوعة بالأسلحة والذخيرة والمال، لتشكيل شبكة من الجزائريين لاختراق جنود جيش التحرير في منطقة القبائل، على أن تمتد هذه الخطة إلى مناطق أخرى في حال نجاحها بهذه المنطقة. وبعد القبول الذي لقيته هذه الفكرة لدى القادة الفرنسيين انتقل المدعو "حشيش الطاهر" إلى منطقة القبائل وبالتحديد إلى "قرية عزازقة" للشروع في تنفيذ خطته الاستخباراتية، وهناك اتجه إلى مطعمه المعتاد الذي كان يتردد عليه في كل مرة ينتقل فيها إلى منطقة القبائل، وقام بعرض الخطة على صاحب المطعم "أحمد أوزايد"، الذي طلب مدة من أجل التفكير في الموضوع³.

ولما كان صاحب المطعم المدعو "أحمد أوزايد" أحد المناضلين السابقين في "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية"⁴، فقد تبادر إلى ذهنه طرح المسألة على قادة جيش التحرير بالمنطقة ومناقشتها معهم، أين انتقل بعدها إلى منزل "محمد إيزوران" أحد أبرز المجاهدين بالمنطقة، طالباً من هذا الأخير مقابلة "كريم بلقاسم" لعرض الفكرة التي يحملها إليه، وبعد اجتماع من المناضل أحمد أوزايد مع كريم بلقاسم وافق هذا الأخير على الخطة مشدداً على التزام السرية والحذر لخطورة المسألة من جهة وتعقيدها من جهة أخرى⁵، حيث شرع في تنفيذ الخطة من خلال تجنيد المناضلين الجزائريين كأعوان للعسكريين الفرنسيين

¹- يحي بوعزيز: المصدر نفسه، ص 107.

²- محمد الصالح الصديق: المصدر السابق، ص 126.

³- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 107.

⁴- محمد الصالح الصديق: المصدر السابق، ص 156.

⁵- المصدر نفسه، ص 128.

بصفة تصاعدية، أين تزايد عددهم حتى بلغ 1500 مناضل موزعين في أماكن مختلفة من منطقة القبائل، مثل: عزازقة، تيقزيرت، تيزي وزو، عين الحمام... الخ¹

وفي ذات السياق تشير المصادر أن أغلب أهداف العملية الاستخباراتية بالأماكن المذكورة من منطقة القبائل، كان كلها تستهدف أعضاء من المصاليين وأتباع الحركة الوطنية الجزائرية M.N.A للقضاء عليهم وتقديمهم في شكل نتائج للخطة التي رسمتها السلطات الفرنسية من الأعوان الذين عينتهم لهذه المهمة، حيث كانت العناصر المناهضة للثورة من أتباع الحركة الوطنية الجزائرية أهدافاً للخطة التي رسمها جنود جيش التحرير كخطة لاختراق الثورة، وتمهيداً في الوقت نفسه بأن المنظمة التي شكلتها مصالح الاستخبارات الفرنسية تحقق نتائجاً جيدة كما رسمتها المصالح الفرنسية في مشروعها لاختراق الثورة التحريرية وتفجيرها من الداخل².

4- نتائج مؤامرة العصفور الأزرق على الثورة الجزائرية:

تعد مؤامرة العصفور الأزرق في منطقة القبائل في السنوات الأولى من الثورة التحريرية، أحد أهم المخططات الاستخباراتية الاستعمارية التي استهدفت اختراق الثورة وجنود جيش التحرير بهدف زعزعة استقرار الثورة والقضاء عليها في المهد، بواسطة أعوان من الجزائريين تكون مهامهم تقديم المساعدة لاختراق الثورة الجزائرية بدعم وتوجيه من السلطات الاستعمارية، وهو ما تمكن قادة جيش التحرير الوطني من إجهاضه وتحويل هذه الخطة الاستخباراتية من سلاح ضد الثورة إلى سلاح لصالحها، حيث كانت لهذه المؤامرة جملة من النتائج الهامة على مسار الثورة التحريرية والتي نذكر منها:

- ✚ القضاء على العديد من العناصر المناوئة للثورة التحريرية، وخاصة من أتباع مصالي الحاج والمنتمين إلى الحركة الجديدة "الحركة الوطنية الجزائرية M.N.A"، هؤلاء الذين أصدرت في حقهم الثورة التحريرية أحكاماً قضائية متفاوتة أهمها: الخيانة التي يحكم عليها بالإعدام، سيما بعد أن قرر عدد كبير منهم مناهضة الكفاح المسلح للثورة والوقوف إلى صف السلطات الاستعمارية التي دعمتهم بالمال والسلاح لأجل مجابهة المجاهدين الجزائريين³.
- ✚ تحصيل جنود جيش التحرير والثورة التحريرية عموماً على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمال من خلال هذه العملية الاستخباراتية، التي حولها المناضلون الجزائريون من خطة ضد الثورة إلى عملية في صالحها، وهو ما أظهرته الأعداد المتزايدة للمنضويين الجدد من المناضلين الجزائريين، والذين أشارت الإحصائيات أن عددهم قد بلغ حوالي 1500 فرد⁴.
- ✚ تحول جهود السلطات الاستعمارية بصفة مؤقتة عن مراقبة الوضع العسكري بمنطقة القبائل، سيما في ظل النتائج الشكلية التي كانت تحققها المنظمة السرية الموكله بمهام اختراق جيش التحرير والثورة الجزائرية عموماً، وهي التي كانت تقدم قتلاها من العناصر المصالية المناوئين للثورة في صورة جنود جيش التحرير الذين تم القضاء عليهم من المنظمة السرية⁵.

¹- نفسه، ص 129.

²- محمد الصالح الصديقي: المصدر السابق، ص 130.

³- مصطفى بسطامي: شهود وشهداء (حقائق جديدة عن الثورة المجيدة)، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2013، ص 167.

⁴- محمد الصالح الصديقي: المصدر السابق، ص 130.

⁵- عبد النور خيثر: تطور الهيئات القيادية للثورة التحريرية 1954-1962، أطروحة دكتوراه، إ: شاوش حباسي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2006/2005، ص 270.

✚ إدراك السلطات الفرنسية بالفشل الذي منيت به المخططات الاستعمارية القائمة على أساليب الحرب النفسية والاستخباراتية ضد الثورة الجزائرية، والوقوف عند الانتشار والشمولية اللذان حققتهما الثورة التحريرية في الأوساط الشعبية الجزائرية، وخاصة بعد تجسد فشل مشروعها الاستخباراتي عن طريق جهود مناضل من عامة الجزائريين بمنطقة القبائل، وهو ما يؤكد انتشار الثورة والوقوف عند حقيقة مبادئها وأهدافها¹.

ومما سبق الذكر نستطيع القول أن مؤامرة العصفور الأزرق قد تحقق من خلالها جملة من المكاسب الكفاحية لصالح الثورة الجزائرية، إذ وبعد مراهنة الفرنسيين على خيار الحرب القائمة على العوامل النفسية والاستخباراتية لأجل اختراق صفوف جيش التحرير والثورة التحريرية من الداخل والقضاء عليها بصفة تدريجية، فقد تمكنت الثورة بفضل أحد مناضليها المخلصين في منطقة القبائل من تحويل مؤامرة العصفور الأزرق من سلاح ضد الثورة إلى وسيلة لها للقضاء على العناصر المعارضة والحصول على كميات معتبرة من الأسلحة والذخيرة والمال لاستغلاله في مجابهة الاحتلال الفرنسي بالجزائر.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة نستطيع القول بأن:

✚ اعتماد الدول الاستعمارية على أساليب مختلفة من أجل فرض سيطرتها على الدول الخاضعة لها، فبالإضافة إلى الأساليب العسكرية في الاحتلال والاضعاع فقد لجأت هذه الدول أيضا إلى أساليب جديدة من الحرب النفسية والاستخباراتية، التي باتت واحدة من الأساليب الأكثر نجاعة في القضاء على المقاومات الشعبية والحركات التحريرية.

✚ إن فشل أسلوب الحرب النفسية الذي انتهجته الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، والدليل على ذلك ما أسفرت عنه مؤامرة العصفور الأزرق من استغلال المناضلين الجزائريين لهذه المؤامرة من سلاح ضدها إلى سلاح بيدها.

✚ التأكد من خطورة الحرب النفسية التي اعتبرها المختصون من أخطر وأشد أشكال الحرب الاستعمارية، إذ تصنف أخطر من العتاد العسكري قوة وتأثيراً، وهو ما كانت حقيقته واضحة جلية في المراحل القادمة من عمر الثورة وبالأخص في سنوات "1956، 1957، 1958"، والتي عرفت فيها الثورة التحريرية حرباً استخباراتية أخرى عرفت "بمؤامرة لابلويت"، التي كان لها هذه المرة أثر واضح في زعزعة استقرار الثورة التحريرية وزرع الشك والريبة بين جنود جيش التحرير الوطني.

قائمة المصادر والمراجع:

أ-الكتب:

1. بوعزيز يحي: الثورة في الولاية الثالثة 1954-1962، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2010.
2. بسطامي مصطفى: شهود وشهداء- حقائق جديدة عن الثورة المجيدة-، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2013.
3. سعد الله عمر: آراء في تقرير المصير السياسي للشعوب، دار هوم، الجزائر، 2014.
4. مهدي سميسم حميدة: الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، العراق، 2004.

¹- فتيحة قشيش: المرجع السابق، ص 238.

5. الصديق محمد الصالح: عملية العصفور الأزرق، دار دحلب للنشر، الجزائر، 2014.

ب-المقالات العلمية:

1. بوسنة محمود: دور الحرب النفسية في انجاح ثورة التحرير الجزائرية وإفشال سياسة الاستعمار الفرنسي الاستيطانية، مجلة أفكار و آفاق، م04، ع06، الجزائر، 2015.

2. بليل محمد: الحرب النفسية الاستعمارية في مواجهة الثورة الجزائرية -منطقة مستغانم أنموذجاً-، مجلة العبر للدراسات التاريخية والاثريّة في شمال إفريقيا، م01، ع01، الجزائر، جانفي 2018.

3. قشيش فتيحة: المخططات الاستعمارية لاختراق الثورة التحريرية- عملية الزرق- لابلويت- في الولاية الثالثة أنموذجاً، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م06، ع13، الجزائر، مارس 2018.

4. قندل جمال: مقاربات الاحتلال الفرنسي في التعاطي مع الثورة الجزائرية -الحرب النفسية أنموذجاً- 1954-1962، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، ع19، قسم العلوم الاجتماعية، جامعة الشلف، الجزائر، جانفي 2018.

ج-الرسائل الجامعية:

1. بن غليمة سهام: الحرب النفسية في الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1958 بين التخطيط الاستعماري الفرنسي وردود الفعل الجزائرية، أطروحة دكتوراه، إ: بلوفة جيلالي عبد القادر، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 2016-2017.

2. بوهناف يزيد: مشاريع التهذئة الفرنسية إبان الثورة التحريرية وانعكاساتها على المسلمين الجزائريين 1954-1962، رسالة ماجستير، إ: سليمان قريبي، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2013-2014.

3. خيثر عبد النور: تطور الهيئات القيادية للثورة التحريرية 1954-1962، أطروحة دكتوراه، إ: شاوش حياصي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2005/2006.

د-المواقع الالكترونية:

1. الزبيدي سامي: الحرب النفسية أهدافها وفن استخدامها، الموقع الالكتروني: <https://www.azzaman.com>، التاريخ: 2019/07/17 و45 دقيقة.

2. الموقع الالكتروني: <https://www.marefa.org>، التاريخ: 2019/07/18، الساعة: 10 و10 دقائق.

الفضاء العام : سيرورة تشكّل المفهوم

Public Space: the process of the concept

جمال بوطاهري، طالب باحث/ جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب

JAMAL BOUTAHRI/ University of Mohammed V

ملخص:

يهدف هذا المقال التأريخ لمفهوم/مقولة الفضاء العام خلال العديد من المحطات الفكرية والعلمية الهامة التي ساهمت في بلورة وتشكيله. سيتم ذلك عبر تقديم بعض المقاربات النظرية الفلسفية والسوسيولوجية التي عالجت الفضاء العام، وذلك بالبحث في تعريف هذا المفهوم عند هابرماس وبورديو ولوفيفر وميشال دو سارتو. يرمي هذا المقال إلى التأكيد على أن مفهوم الفضاء العام يتقاطع مع عدد كبير من التخصصات العلمية، وهو ما يجعل المفهوم ذا أهمية خاصة.

الكلمات المفتاحية: الفضاء العام، المحادثة، المجال، الحق في المدينة.

Abstract:

This article amisto dicuss the chronology of the concept/notion of public space in the significant intellectual and scientific stations that contributed to shaping its main features. In order to illuminate the originis of this concept, the paper emphasises the philosophical and sociological writings of Habermas, Bourdieu, Lefebvre, and de Carteau. The article argues that public space requires a multidisciplinary approach, as the concept is very complex and merits a particular concern.

Keywords: public space, conversation, space, right in the city.

مقدمة:

يعتبر موضوع الفضاء أو "المجال" (l'espace) موضوعاً مشتركاً تتقاسمه العديد من العلوم، وبذلك يمكن أن نتحدث عن مجال الجغرافيين؛ والذي يتم التركيز فيه على التهيئة، ثم هناك مجال الاقتصاديين؛ (الإنتاج، التسويق، الاستهلاك...) ثم هناك ما يسمى "المجال الاجتماعي" الذي يشغل بال السوسيولوجيين؛ وما يميز هذا الأخير هو البحث في الخفي من الرهانات الاجتماعية حول موضوع "السلطة" في المجال.

إذن، يبدو واضحاً أن هناك اهتمام من مختلف المشارب العلمية تجاه هذا الموضوع، وهذا ما يمكن ملاحظته مع الرواد الأوائل المؤسسين لعلم الاجتماع (ماركس، دوركايم، فيبر، زيمل...)، كذلك رواد مدرسة شيكاغو والذين يعود لهم الفضل هم الآخرون في إنتاج تراكم نظري ومنهجي لا يستهان به حول حل الإشكالات المتعلقة بمفهوم المجال.

وبالتالي، سنحاول من خلال هذا المقال الوقوف على بعض من تلك الأطروحات والأفكار التي حاولت أن تسائل ظاهرة المجال، على اعتبار أن المجال بالمعنى المتداول في علم الاجتماع هو "المجال الإنساني" لأن حياة الإنسان لا يمكن أن تتصور إلا في المجال.

على المستوى المنهجي، سنعمد في معالجتنا لهذا الموضوع على مقاربة تاريخية، من خلال قراءة الأدبيات الفلسفية والسوسيوتاريخية ذات الصلة بالموضوع، لكننا لا نسعى فقط إلى التصنت على هذه المحادثة، بل إننا نريد أن نخلق لأنفسنا مكاناً لكي نقدم مساهمتنا الخاصة، وذلك عن طريق ممارسة نوع من التفكير (la réflexion) تجاه هذا المفهوم.

أولاً: الإطار الإبستمولوجي

الإبستمولوجيا (Epistémologie) علم العلوم أو الدراسة النقدية للعلوم. يعرفها لالاند (Lalande) في معجمه الفلسفي؛ بأنها فلسفة العلوم¹. وهي الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفروعها ونتائجها، فهي علم الأصول² على حد تعبير جورج غرفتش- لأنها علم العلم وتبحث في الأصول الأولى لنشأة المعرفة. إذن؛ فالغرض من هذا الإطار المعرفي، هو المساءلة العلمية للموضوع اعتماداً على الأدوات المعرفية والأطر المنهجية التي تتيحها سوسيولوجيا المعرفة.

مبدئياً، يجب استحضار الشروط السوسيوتاريخية لهذه المعرفة والوعي بها. لهذا يرى ريمون لودريت (Raymond Ledrut) أن المجال هو إن شئنا كل شيء ولا شيء في نفس الوقت. أو بتعبير آخر شيء آخر قليل وشيء كثير معاً. وهذه المفارقة نجد تفسيرها بوضوح في كون جميع الكائنات هي في علاقات مجالية محضة³. إن دلالات مفهوم المجال متعددة؛ فالمجال يمكن أن يكون هو المجال الفيزيقي الطبيعي والجغرافي، ويمكن أن يكون هو المجال المبني أو المكيف بحسب رغبات وتمثلات الإنسان.

¹- محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتصور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 1982، ص 18.

²- الأصولية: مفهوم يطلقها جورج غرفتش على "الإبستمولوجيا". للمزيد ينظر:

جورج غرفتش، الأطر الاجتماعية للمعرفة، ترجمة خليل أحمد خليل، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص 25.

³- R.Ledrut: "la forme et le sens dans la société", Ed. Librairie des Méridiens, Paris, 1948, pp 107-112.

وهو ما يمكن نعتة بالمجال السوسيو-جغرافي. ثم هناك المجال الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس والذين يتراوح إدراكهم له بين الذاتية والموضوعية.

وبالرغم من الاهتمام المتواصل للعلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم الاجتماع تحديدا بقضايا اجتماعية متصلة بشرائح معينة مثل الطبقات العمالية وشرائح المهتمشين والمقvisين في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، فقد ظل الخوض في إشكالية المجال و الفضاء العمومي بشكل أعم موضوعا علميا لم تجرأ العلوم الإنسانية على خوضه إلا مؤخرا¹.

انطلاقا من هذا التقديم الإبستمولوجي، سنسعى في هذا الإطار إلى الوقوف عن بعض من الأسس النظرية والتاريخية المؤسسة لمفهوم المجال. فنحن في إطار مرجعية موضوعها الأساس؛ الفضاء العام.

إذن، عرف موضوع الفضاء العام اهتماما علميا كبيرا يعود إلى ما قبل ظهور السوسيوولوجيا ذاتها، فقد كان البعد الفضائي حاضرا في الهندسة الأوقليديدية منذ ما قبل التاريخ، وظلت مختلف الدراسات العلمية والتأملات الفلسفية تتأطر داخل نطاق مسلمات هذه الهندسة إلى غاية القرن التاسع عشر، الذي عرف العديد من التحولات والمنعطفات العلمية والفكرية، خاصة تحقيق العديد من الاختراعات العلمية²، إلى جانب ظهور العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وفي سياق تشييد العلوم الإنسانية عموما، تم تسجيل ملاحظة أساسية مؤداها: تهميش البعد الفضائي في البناء النظري لهذه العلوم، فقد كانت مسيطرة بتصوير يسقط الفضاء في أحسن الأحوال يعتبره "شرطا بيئيا"، بينما كانت مقولة الزمن هي الأكثر حضورا كوسيلة لبناء الحقيقة الاجتماعية، مما أدى إحداث ما سمي بالمنعطف المجالي، الذي جاء في كتاب "Sociologie de l'espace" للباحثة مارتينا لو (Martina Löw) على أنه "الوعي أن جميع الفضاءات بما فيها المعمار الحضري، الجهات المجالية، الدول الوطنية، غرف النوم، ساحات الترفيه، مناطق الأتهار... إلخ": كلها إبداعات اجتماعية، بمعنى آخر؛ فتشكيل الفضاءات هو فعل أدائي (un acte performatif)³ فالفضاء حسب الباحثة لا يولد أو يوجد لذاته، ولكنه يخلق أثناء الفعل.

من جانب آخر عرف الفضاء جدالا علميا كبيرا بين اتجاهين فلسفيين كبيرين حسب الباحث كارل فريدريك فان فيزاكر؛ هما الاتجاه النسبي (relativiste) الذي يمثله كل من نيكولا دو كوي (Cues)، بيلارمين، ليبينز، ماش، وآخرون. والاتجاه المطلق

¹ عبد الرحمن المالكي: الثقافة والمجال: دراسة في سوسيوولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيوولوجيا التنمية الاجتماعية، ط1، 2015، ص 52.

² الحديث هنا عن مجموعة من الاختراعات، منها: أحداث تقنية: 1816 أول صورة؛ 1829 قاطرة بسرعة 52 كلم/س؛ 1867 أول دراجة؛ 1879 اديسون المصباح الكهربائي؛ 1883 أول تراموي كهربائي؛ 1885 أول سيارة؛ 1890 أول مترو في لندن؛ 1894 الصورة المتحركة. أحداث علمية: 1858 داروين أصل الأنواع؛ 1867 ماركس رأس المال... للمزيد أنظر:

محمد سيلا، مدارات الحدائة: مقالات في الفكر المعاصر، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، 1988، ص 183.

³ - M.Löw: "sociologie de l'espace", Traduit de l'allemand par Didier Renault, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 2015, p 19.

(absoluste) الذي يضم بطليموس، كوبرنيك، يوهان كيبلر، جاليلي، نيوتن... ويُعتبر هذا التقليد أن الفضاء له وجود مستقل عن الأجسام، فيما يُعتبر التصور النسبي أن الفضاء هو نتيجة للوضعية النسبية للأجسام.

بناء على هذا التمييز الإبستمولوجي؛ ترى الباحثة مارتينا لو أن جل الأعمال السوسيولوجية المعنية بالفضاء تأسست على إحدى الفرضيتين: سواء التي تحقق الانفصال بين الفضاء والأجسام (الأفعال)، أو التي تسلم بمنحى الحقيقة العضوية الوحيدة. بمعنى؛ أن التناول السوسيولوجي للفضاء تم انطلاقاً من مقدمات فلسفية وأخرى مرتبطة بالعلوم الرياضية والفيزيائية. فمثلاً يرى عالم الفيزياء البريطاني ستيفن هوكينغ أنه قبل 1915 كان ينظر للفضاء والزمن على أنهما حلبة جامدة لوقوع الأحداث بدون تأثرها هي نفسها لما يحدث (...). ولكن الوضعية مختلفة تماماً مع النظرية النسبية التي أرسى انشتاين دعائمها، فالزمن والفضاء هم كميات دينامية.

من هنا تأثرت العديد من النظريات السوسيولوجية بهذا التصور، فالحياة الاجتماعية دينامية ومتغيرة باستمرار. والدليل في ذلك حسب الباحثة هو استحضر العديد من الباحثين في حقل العلوم الإنسانية أمثال: جن بياجي، نولبيرت الياس، ليك سيومي، ديتير لابل، ريتشارد سينيث، اليزابيت كروز من خلال تجديده لتصور المجال عند نيوتن، إذ يرى انشتاين أن المجال هو سياق وبناء نظري يمكن من فهم العالم. أما على المستوى الفلسفي فقد دارت نقاشات كثيرة بخصوص الفضاء. مثلاً يحاجج فيلهيلم ليبنيز ضد الفكرة القائلة بوجود مجال مستقل أما إمانويل كانط (Immanuel kant) فهو الآخر درس مفهوم الفضاء انطلاقاً من تصوري ليبنيز ونيوتن، وحاول التوفيق بين الطرحين، لكنه بدأ يميل بعد ذلك إلى الطرح النسبي لليبنيز، لكن تأثره بعالم الرياضيات السويسري ليونارد أولير جعله يقترب أكثر من التصور المجرد للفضاء، ضد الوجه النسبي لليبنيز، في أطروحته سنة 1770 التي اعتبرت تمهيداً لعمله الشهير "نقد العقل الخالص"، وضع كانط تصورين للمجال الأول باعتباره وعاء مجرد بدون حدود الأشياء الممكنة (...). أو هو العلاقة بين الأشياء الموجودة التي تُفتقد حين يتم حذف الأشياء، ليتوصل إلى أن المجال هو مبدأ صوري للعالم المحسوس، فهو في نظره البعد الذي يخلقه الناس بتمثلاتهم، ويوافقه في ذلك العالم الرياضي والمهتم بتاريخ الإبستمولوجيا والفلسفة ارنست ماش الذي طور تصور المجال نسبياً مستلهماً أفكار ليبنيز ضد التصور الميتافيزيقي للمجال كحاوي/وعاء (contenat) متعالٍ، فهو بالنسبة إليه الفضاء ليس شيئاً آخر سوى مجموع العلاقات المجالية.

انطلاقاً من هذا الطرح النظري الفلسفي والعلمي تأسست "سوسيولوجيا المجال"، وحسب الباحثة مارتينا لو فمختلف الأعمال السوسيولوجية، لا تخرج عن نطاق البراديجمين الأساسيين كما سبقت الإشارة إليهما (الإطلاقي والنسبي).

فمثلاً أقام انتوني غيدنز (Anthony Giddens) نظريته حول البنينة (la structuration) انطلاقاً من مقولتنا الزمن والمكان، كما عارض اعتقاد العديد من الباحثين في العلوم الاجتماعية، الذين يعتبرون الزمن والفضاء كشرط بداهية وهامشية في الفعل، لذلك دعا استفهام مقولتي الزمن والفضاء (conceptualisation) كأبعاد أساسية ومركزية. وفي قلب النظرية الاجتماعية.

في تفكره للمجال اعتمد غيدنز على العديد من المراجع النظرية من بينها: سيدوس تورستين هاجير ستراوند وإرفين غوفمان إضافة إلى أفكار الفيلسوف مارتين هايدغر؛ فهذا الأخير يعتبر الفضاء هو "ما هو عليه أساساً" (l'espace est essentiellement ce qui été) أي ما أدخلنا في حدوده، انطلق غيدنز من هذه الفكرة وعالج المجال كما هو لو كان موجوداً في ذاته، يتحدث عن "أنطولوجيا الزمان والمكان" وهي غاية الأهمية بالنسبة إليه في نظريته البنينة.

ثانياً: القراءة السوسيوثقافية

إنّ البحث في موضوع الفضاء العام يقتضي التسليح بأكثر من مجال معرفي واحد، وقد اقتصر عالم الاجتماع والفيلسوف الألماني يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) على التاريخ والسوسيولوجيا معتبراً أن مفهوم الفضاء العمومي مفهوم تاريخي ومقولة تاريخية تستوجب البحث في شروط قيامها وتطورها التاريخي. وقد وصف هابرماس مفهوم "الأركيولوجيا" في عنوان كتابه الشهير (l'espace public)¹ لرصد دلالة مفهوم الفضاء العمومي من خلال:

- تكونه التاريخي.
- تحولاته المرتبطة بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.
- وظيفته الأساسية: الحوار، الحجاج، الاقناع؛ أي دوره تواصلية.

إن معالجة هابرماس لمقولة الفضاء العمومي واكبه البحث في تشكّل العناصر الأساسية للفضاء العمومي ما بين القرنين السابع والثامن عشر بالموازاة مع ميلاد دولة حديثة، وانتصار الثورة الفرنسية، بحيث أصبح المجتمع الأوروبي ولأول مرة قائماً على مبدأ "العمومية" وعلى ثقافة الحوار والمداومات العمومية حول الشأن العام، أي مناقشة القضايا العامة في المقاهي وعلى صفحات الجرائد والمجالات والأماكن العمومية والمؤسسات البرلمانية².

إذن، إنّ نموذج الدائرة العمومية في نظر هابرماس لم يعرف أوجه إلا مع الدولة الحديثة، ولم يتحقق التواصل بالمعنى السياسي إلا في العصر الحديث والانقسام الفعلي بين الدائرة العامة والدائرة الخاصة، بحيث تشكل المجتمع الرأسمالي الجديد وتشكلت الطبقة البرجوازية على هامش النظام الاقطاعي.

وفي كتابه الفضاء العمومي، قدم هابرماس دراسة سوسيوثقافية لتحولات بنية الفضاء العمومي البرجوازي منذ بدايته إلى يومنا هذا. فلقد حدثت تغيرات في المجال العام مقارنة مع القرون الوسطى³. ولا يقتصر هابرماس في بحثه عن أركيولوجيا

1- J.Habermas: "l'espace public: archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise", traduit de l'allemand par, Marc B Launay, ed Payot, Paris. 1992.

- عبد السلام الأشهب: أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لدى هابرماس، الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص 164.²
³ هنا لا بد من الإشارة إلى أن نفس الملاحظة يمكننا أن نسجلها في العصر الوسيط، هذا العصر الذي لعب دور كبير في اغناء النقاش ليس فقط حول مفهوم الفضاء العام، بل في جميع العلوم. وبهذا، يمكن القول أن المجال أو الفضاء العام أخذ فهم جديد وفق التغيرات والتحولات التي حصلت نتيجة تطور العلوم، فالفضاء في العصر الوسيط كان يتميز بالتراتبية (المقدس/المدنس، مجالات حضرية/قروية...). فالتراتبية هي الميزة لمفهوم الفضاء في العصر الوسيط، وهو فضاء المعرفة الموقعة؛ أي موقع الأشياء في المجال، هذه الواقعة ناتجة عن أعمال الفيزيائي جاليلي. إلا أنه ابتداءً من القرن 17 أصبح المجال ممتد على حد قول ميشل فوكو. هذا التحول ظهر معه شبكة من العلاقات على شكل شجرة وعلاقات الجوار.

الفضاء العمومي على هذه المرحلة لوحدها، بل يعود إلى الفكر السياسي اليوناني الذي ميز بين الحياة الخاصة والعامة، بين نمط الوجود الخاص بالأسرة وبين نمط الوجود العام الذي يتمظهر في دائرة المدينة، أي الفضاء المشترك بين المواطنين الأحرار؛ فالحياة العامة تتحدد في الساحات العمومية وفي مجال الممارسة اليومية وفي المدينة وفي الأسواق وفي "الأغورا" (l'Agora) أي الساحات العمومية التي كانت تنعقد فيها المجالس البلدية في اليونان القديمة، وكما أن أرسطو قد ميز بين فضاء الأسرة وفضاء المدينة¹، فالمدينة هي الفضاء أو الميدان الذي يلتقي فيه المواطنين الأحرار التقاء على أرضية سياسية وإيتيقية لتحقيق خير أسمى على حد تعبيره.

بالإضافة إلى ذلك، ثمة عوامل أخرى، ساهمت في تبلور مفهوم الفضاء العمومي باعتباره فضاء نقديا. فقد ساهمت الصالونات الأدبية في توسيع هامش المناقشة النقدية، الشيء الذي جعل الفضاء العمومي "البرجوازي" كما هو فضاء نقدي تحرري، فضاء ضد السلطة السياسية، باعتبارها تمثل معارضة للنظام السياسي القائم. ومع ظهور مؤسسات ووسائط إعلامية أخرى تجدرت هذه الروح النقدية في المجتمع الأوروبي، فكان لظهور الصحافة عنصر ثانٍ في التحول الذي عرفه المجتمع الأوروبي بعد العلاقات التجارية ما قبل الرأسمالية وهي العلاقات التي كان لها تأثير وانعكاس على النظام السياسي والاجتماعي في أوروبا². ومع تطور الصحافة وبروز المجالات في تعزيز هذا الفضاء، وفي نفس السياق ظهور المسرح الذي لعب دورا هاما في بلورة الفضاء العمومي النقدي، باعتبار الجميع قادرا على متابعة المسرحيات لأن القاعات الملكية أصبحت أماكن عمومية متاحة للجميع³.

بعد هذا التوضيح التاريخي _ الإبستيمي حول تشكّل مفهوم الفضاء العمومي في ضوء الفكر الفلسفي والسياسي، يحق لنا، على ما يبدو، الانتقال إلى رصد مقولة الفضاء العمومي في عصر التنوير، كما تكوّن مع الفيلسوف الألماني إمانويل كانط باعتباره في رأي هابرماس المؤصل والمؤسس للفضاء العمومي في الفلسفة السياسية الحديثة.

لقد بلور كانط في فلسفته مفهوم العمومية الذي ارتبط عنده بمفهوم النقد، وقد مثل هذا التأسيس الكانطي منطلقا للمراجعة الهيكلية لفلسفة الحق والتاريخ ودفاعا لنقد الماركسي لمقولات الدولة البرجوازية، والخطاب الأيديولوجي ومفهوم

فالأساسي في هذا الحدث بالنسبة لنا = هو تغير البراديجم ونزع الطابع المقدس "للمكان". فالمجال أصبح يقدم نفسه لنا على شكل ترانتيات وليس على شكل مواقع. ورغم هذا التحول إلا أنه ثمة هناك تناقضات، أي حضور ثنائية العام والخاص، هذه التناقضات لا زالت تطغى عليها المقدسات. وهذا، فتناولنا مفهوم الفضاء في العصر الوسيط والتحول الذي طرأ عليه بعد القرن 17. سنجد أننا ننتقل تلقائيا إلى تناول مسألة المجال المعاصر، وهو فضاء الإدراك الأولي وفضاء الأحلام والبيوتوبيات (صور الحياة السعيدة) والشغف والسيولة بالمعنى الصريح للكلمة كما عبر عنها زيجمونت باومان.

¹ - هناء علاي، مصطفى كيجل: الفضاء العمومي ودوره في تفعيل الفكر التواصلي عند هابرماس، مجلة التواصل، عدد 50، 2017 قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار-عنابة-، ص 190.

² - J.Habermas: op. cit, p 38.

³ - Ibid., p16.

حقوق الإنسان¹. ولقد تجلت قراءة هابرماس لكانط في كتابه الفضاء العمومي في إجابة كانط عن سؤال ما التنوير؟- que est (ce que les lumières) وتركيزه على التمييز الكانطي بين الاستعمال الخاص والاستعمال العمومي للعقل.

إن مبدأ "العمومية" وفقا لكانط هو المبدأ الضامن لحرية الأفراد داخل المدينة وتمثل العمومية شرط الحق ومن دونها لا يمكن أن تحقق العدالة، لأنها حق لكل المواطنين ولا توجد حدود للعمومية إلا ما يحدده العقل ذاته².

إذن، وحتى لا نغرق في هذا الحوار الفلسفة التاريخي، نرى كذلك أنه في الآن نفسه، أن هذا النقاش الفلسفي ليس متجاوزا بل عاملا مساعدا للتحليل في العلوم الاجتماعية، على اعتبار أن هذا النقاش يساعدنا في الانتقال من فلسفة المجال إلى "علم المجال"³.

بناء على ذلك، وبالرغم من التوضيحات التاريخية السابقة، يبدو أن مفهوم المجال أو الفضاء العام تعرض للتمهيش من طرف العلوم الاجتماعية، ولم يتم أشكلة نظرية الفضاء العمومي -على حد قول الفيلسوفة نانسي فريزر (Nancy Fraser)- إلا في العقود الأخيرة بفضل تنامي أهمية الظواهر العابرة للأمم، والمرتبطة بالعمولة، أو ما بعد الاستعمار أو بالتعددية الثقافية، حيث أصبح من الضروري بحث إمكانية وضرورة إعادة تشكيل نظرية الفضاء العمومي على أسس عابرة للأمم (دولية-عالمية). وهذا مردّه إلى التحولات البنوية للفضاء العمومي، والتي سنتقل بنا إلى الحديث عن نظرية المجال الاجتماعي وعلم المجال.

إن النقاش، حول نظرية المجال الاجتماعي شغل ولا زال يشغل العديد من علماء الاجتماع والجغرافيين الذين يهتمون بالمجال كظاهرة اجتماعية.

فقد سبق لعالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم (Emile Durkheim) أن تطرق لمسألة المجال، حيث تناول المورفولوجيا الاجتماعية لغاية توضيح العلاقة بين الظاهرة الاجتماعية وبين المجال. وهنا ينبغي التذكير بأن دوركايم سبق وأن نبه من قبل "أن المجال أو بالأحرى استعمال المجال يعتبر من الوقائع الاجتماعية القليلة التي يمكن لعالم الاجتماع أن يحللها ويقسمها بشكل مباشر ذلك أن استعمال المجال ليس سوى محصلة للصراعات التي تتم على مستوى التنظيم الاجتماعي وأيضاً نتيجة من نتائج تزييل الإيديولوجيات والتمثلات الجماعية. ومن ثم فإن المجال و"المجال الحضري" بالخصوص يشكل الحقل الأفضل للملاحظة بالنسبة لعالم الاجتماع"⁴.

بهذا يمكن القول على أن هناك علاقة بين المسافة المجالية والمسافة الاجتماعية التي نبه دوركايم إلى ضرورة توضيحها.

-عبد السلام حيدوري: الفضاء العام ومطلب حقوق الإنسان: هابرماس نموذجاً، دار نبي، صفاقس، 2002، ص 82.

²- محمد نورالدينأفافية: الحداثة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1989، ص 100.

³- هنا لا بد أن نشير، إلى أن هذا الانتقال راجع بالأساس، إلى الإيستيمولوجيا المعاصرة التي أحدثت رجة في تطور المكان، وذلك إثر الثورات الرياضية والفيزيائية، خصوصاً مع نظريتي الكوانتا والنسبية. وهي الخلفية المعرفية التي جعلتنا ننتقل من الحديث عن مفهوم المكان إلى مفهوم المجال، وأعطت للمجال وجهة نسبية... للمزيد ينظر:

بن محمد قسطاني، ما هو المجال؟ (الأمم... حيوانات واسعة ينسجم تنظيمها مع بيئتها) بودلير، مجلة فكر ونقد، العدد 22.

-عبد الرحمن المالكي، المرجع نفسه، ص 57.

ثالثا: التناول السوسولوجي للمجال

الآن، ما هو المجال في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية؟

يعتبر مفهوم المجال من أكثر المفاهيم إشكالية، لما يحمله من غنى في الدلالة والإحياء، ولما يتصف به من تعقيد ومفارقة. ولعل أنجع السبل لمقاربة مفهوم المجال، المنهجية الشمولية الدينامية وحذر تعدد المحتوى، انطلاقا من أولية كون مفهوم المجال بؤرة تقاطعات لعدة معارف، من فلسفة ورياضيات وعلم النفس وجغرافيا واقتصاد، بل وأثروبولوجيا وسوسولوجيا، دون إغفال الفن والعمارة وعلم الجمال...¹ وهذا ما يضفي البعد الإشكالي العميق للمفهوم انطلاقا من تساؤلات متمفصلة حول دلالاته العميقة والسطحية، ومدى مردودية توظيفه واستعماله نظريا وعمليا.

وإذا كان الفضل يعود إلى البحث الجغرافي والجغرافيين، في دراسة المجال أو الفضاء الحضري وإبراز خصوصياته ومشاكله، فإن باقي العلوم الاجتماعية الأخرى وعلى رأسها السوسولوجيا فقد اهتمت هي الأخرى بمفهوم المجال، وفي هذا الإطار يميز عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو (Pierre Bourdieu) بين المجال الجغرافي (الفيزيقي) وبين المجال الاجتماعي وعلاقة الإنسان بهما وفيهما من خلال قوله: "إن الناس باعتبارهم أجسادا (أي أفراد بيولوجيين) وكائنات إنسانية مثلهم مثل الأشياء يتواجدون دوما في مكان ما ويحتلون جزء من المجال، ومن ثمة فإن مجال الإنسان هو المجال الاجتماعي الذي يتجلى بنيته في سياقات شتى إما في شكل تناقضات مجالية. أو في شكل مجال ممتك يشغل كتعبير عن رمزية تلقائية للمجال الاجتماعي. فكل مجتمع تراتبي ينتج بالضرورة مجالا تراتبيا يعبر عن الفوارق والمسافات الاجتماعية".²

لنبدأ بتوضيح هذه الفكرة، فقد ميز بورديو بين مفهوم المجال الاجتماعي (espace social) والحقل (champ)، وهما مفهومين مترادفين أو بمعنى آخر المجال هو امتداد للحقل. ويشغل المجال الاجتماعي كنموذج علمي للعالم الاجتماعي، ويندمج بشكل نسقي في نظرية بورديو بكاملها. والمجال الفيزيقي لا ينبغي اعتباره يحيل إلى العلاقات والتمثيلات المبنية موضوعيا والموجودة في العالم الاجتماعي. ثانيا، إن المجال الاجتماعي مجال واقعي؛ لأنه اجتماعي كباقي الأشياء الواقعية الأخرى.³

هكذا، إن المجال الاجتماعي واقع اجتماعي يخضع لعملية بناء مزدوجة، أولا من طرف الفاعلين الاجتماعيين أنفسهم الذين يتصارعون من أجل فرض تعريفهم للعالم الاجتماعي؛ وثانيا من طرف الباحث السوسولوجي الذي يعيد بناء الانتظامات الواقعية للحياة الاجتماعية بأدوات ومفاهيم سوسولوجية بغية تأويله وتفسيره.

إن الأمر يتعلق هنا بتعريف المجال الاجتماعي من خلال رأس المال تحركه الرغبة في تسليط الضوء على علاقات السلطة بالخصوص، بمعنى أن المجال الاجتماعي ينقسم دوما إلى مناطق مهيمنة وأخرى مهيمن عليها.⁴ ويعني ذلك أيضا أن المجال الاجتماعي يمثل في أن واحدا مجالاً للهيمنة ومجالاً لمقاومة الهيمنة. فالمجال الاجتماعي حسب بورديو يشغل كـ "حقل قوى".

¹- بن محمد قسطنطين، المرجع نفسه.

²- بيير بورديو: بؤس العالم: أثار المكان (الجزء الأول)، ترجمة: سلمان حرفوش، مراجعة وتقديم، فيصل دراج، دار كنعان، 2010، ص 249.

³- حسن احجيج: نظرية العالم الاجتماعي: قواعد الممارسة السوسولوجية عند بيير بورديو، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ط1، 2018، ص 102.

⁴- المرجع نفسه، ص 250.

إن وصف بورديو للمجال الاجتماعي بـ "حقل قوة" يعني أن المجال الاجتماعي مجال سلطة موزعة بطريقة متفاوتة، فلكل فرد ثقل معين من الرأس المال يستعمله لتحسين موقعه، أو للحفاظ عليه. لهذا نجد بورديو يستعمل الصورة الحربية "حقل الصراع" لتوضيح الفاعلين يتصارعون من أجل الحصول على مكان تحت الشمس. وقد سبق للاقتصادي وعالم الاجتماع الألماني كارل ماركس أن تطرق لهذه المسألة، لكن (كما أشارنا سابقا) أن بورديو طور أطروحة ماركس. فالجديد عند بورديو هو إلحاحه على فكرة أن البنيات، أي المجال الاجتماعي حقل قوة وصراع، هي التي ترغب الفاعلين على القيام بأفعال تنتهي بإنتاج ظاهرة الهيمنة. فهذا الكلام يوضح وبشكل كبير السؤال الذي طرحه بورديو وهو لماذا يتقبل المهيمون عليهم الهيمنة التي يخضعون لها؟

إذن، يتقاطع مفهوم المجال، بشكل ضروري مع مفهومي رئيسيين هما السلطة والرمز، إذ امتلاك المجال امتلاك السلطة، كما أن امتلاك السلطة امتلاك المجال، وامتلاك الرمز امتلاك السلطة والمجال، وبذلك يصبح الفعل المجالي فعل سلطة وثقافة رغم كون المجال يبدو غالبا محايدا ولا مباليا وهو سلوك مساعد في اقتصاد الطبيعة والسلطة¹.

وبالتالي، فالمجال الاجتماعي هو شكل من أشكال المجال. إنه المجال الذي يتشكل من العلاقات الاجتماعية. فالمجال الاجتماعي الذي بناه بورديو مجرد بناء فكري، بمعنى أنه واقع لا نراه بالعين المجردة في حياتنا الواقعية الملموسة².

بعد استعراض العديد من النقاط النظرية لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو التي تناولت مفهوم المجال كبنية بالمعنى البنيوي للكلمة. ينبغي الآن أن نعيد التذكير بأننا في إطار إخضاع المفهوم للمراجعة ووضع محط النقد الصارم للتأكيد من صلاحيته ودقته.

والملاحظ هنا، أن عملية التنظير لهذا المفهوم تنطلق من مقاربتين أساسيتين متناقضتين: الأولى من منطلق نظرية الفعل عند ماكس فيبر (Max weber). بمعنى الاهتمام الأكثر بالقيم ووضع الفاعلين في المجال، هذا المجال هو نتيجة لأنشطة الفاعلين، فالأفراد ليسوا مقيدين بالمجال. وهنا أيضا نكتشف تصورين للمفهوم: "تصور وضعي" و"تصور فهمي".

إن المقاربة الوضعية والتي تلتقي مع المقاربة الماركسية بصدد هذه المسألة. وتلتقي أيضا مع تصور دوركايم في كتابه "قواعد المنهج السوسيولوجي" إن ما يركز عليه دوركايم هو ضرورة إعطاء الأولوية للبنيات الاجتماعية، لأن (المورفولوجيا الاجتماعية) ينبغي أن تكون هي المصدر الأول لتفسير ما يقع في المجال الاجتماعي³. وبالموازاة هناك سوسيولوجيا فهمية يتزعمها ماكس فيبر ويلتقي معه كل من رايمون بودون (Raymond Boudon) وجورج زيمل (Goerg Simmel). فرايمون بودون الذي يرى الفرد حر وفاعل عقلائي داخل المجال، ويتمثل هذا الإطار الفكري لرايمون بودون في ما يسمى الفردية المنهجية (l'individualisme méthodologique) الذي يقول بأنه يجب فهم كل ظاهرة اجتماعية على أنها نتيجة لسلوكات أعمال شخصية⁴. وهذا الموقف نجده حتى إذا عدنا لجورج زيمل "إن المجتمع في رأي زيمل هو الاسم الذي يطلق على عدد من الأفراد المرتبطين في تفاعلات لا

- بن محمد قسطنطين، المرجع نفسه¹.

- بيير بورديو، المرجع نفسه، ص 251².

³- E.Durkheim: "les règles de la méthode sociologie", Quadrige (9) Grands Texte, Paris, 1984, PUF,2007.

- محمود النوادي: علم الاجتماع كعلم، مجلة إضافات، العدد 15، 2011، ص 187⁴.

تتوقف بين بعضهم البعض. وليست البنيات الكبرى (الدولة، الأسرة، المدينة) سوى تبلورات لهذا التفاعل، حتى وان كانت تحقق استقلاليتها وتمارس إكراهات على الأفراد كما لو أنها قوى غريبة¹. وهذا الموقف يضع زيمل في تعارض مطلق مع دوركايم الذي يعتبر المجتمع كيانا فريدا من نوعه ومستقلا بذاته ومتعاليا عن الأفراد.

وعلى غرار جميع علماء الاجتماع السابقين، يرى هنري لوفيفر (Henri Lefebvre) أن دلالات مفهوم المجال متعددة. إذ يرى أن هناك عدة مناهج وعدة مقاربات لتناول المجال، وذلك على عدة مستويات من التفكير؛ الشيء الذي يجعل من لوفيفر يطرح التساؤل التالي: ما المجال إذن؟ وما هو الوضع النظري لمفهوم المجال؟

نحن كذلك سوف نتساءل: إذا ما كان التناول السوسيولوجي سيقارب المجال أو الفضاء العام في بعده المادي فقط فلا فائدة من هذا التناول السوسيولوجي وما الإضافة التي سيقدمها؟

بناء على هذا التساؤل وانطلاقا من التصور الماركسي، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن المجال كمجال محض غير موجود، وأنه ليس إلا منتوجا اجتماعيا. ولذلك نجد أن تحليل المجال يشكل الموضوع الرئيسي بالنسبة للسوسيولوجيا الحضرية عند أصحاب هذا الاتجاه.

ويمثل هنري لوفيفر واحد من أعمدة هذا الاتجاه بل واحد من أعمدة الفكر السوسيولوجي الذين اهتموا بالمجال بمختلف تلويناته، حيث حاول إعادة النظر في العديد من الأطروحات التي تناولت المجال باعتباره يحمل طابع فيزيقي أو جغرافي، ثم انطلق من هنا لإعادة الاعتبار للبعد الاجتماعي داخل المجال. وتمثل أطروحة "إنتاج المجال"² (La production de l'espace) لهنري لوفيفر حجر الأساس في فهم رهانات المجال والفاعلين وكذلك في فهم وضعية المجال على المستوى الإبيستيمولوجي، بمعنى معرفة العلوم التي من الممكن أن تكون أرضية خصبة لفهم المجال.

يمكن القول، أن الفكرة الأساسية التي ينطوي عليها الكتاب "إنتاج المجال" هي كون المجال حقل للدراسة لمجموعة من العلوم، وأنه من بين هذه العلوم من تدرس المجال بشكل ذهني تجريدي ولا تقدم طرحا واقعيًا للمجال، ولا تخوض في عمق المجال ومعطياته قصد تفكيكه وإعادة بناءه بل تكتفي بتنظير ذهني لا يلامس الواقع. من هذه النقطة سينطلق هنري لوفيفر من أجل دحض هذا الطرح ومحاولة التأسيس لفكرة مفادها أن المجال يجب أن يدرس واقعيًا وأن نتقل من المجال الذهني إلى التطبيق النظري للمجال³. ثم سيحاول بعدما رصد كيف انتقلنا إلى علوم المجال أو التعمير الذي يكتسي طابعا إيديولوجيا وسياسيا وعلاقة الرأسمالية بالمجال ورهاناتها انطلاقا من المجال. وارتباطا بكل هذا يوجه لوفيفر نقده للرياضيين باعتبارهم يخلقون مجالا ذهنيا غير متناهي ومجرد وخاضع للهندسة الأوقليدية، من هنا بدأت تتسع الهوة بين الرياضيات والمجال

¹- جورج زيمل: الفرد والمجتمع: المشكلات الأساسية للسوسيولوجيا، ترجمة وتقديم حسن احجيج، رؤية للنشر والتوزيع، ط 1، 207، ص 19.

²- H.Lefebvre: "La production de l'espace", in: *L'Homme et la société*, N. 31-32, Sociologie de la connaissance marxisme et anthropologie, 1974, p 15.

³- Ibid., p20.

الواقعي، و لا ننسى أيضا أنه أنداك كانت هناك مجموعة من العلوم التي استطاعت التأسيس للمجال كشيء ذهني محض وولدت العديد من المجالات (مجال الأحلام، مجال التحليل النفسي، المجال الأدبي...).

بصفة عامة، يدعو لوفيفر إلى الشمول دون التجزئة والجمع دون التفكيك، فعندما أصبحت العلوم منقسمة بشكل كبير، وهذا أثر على دراسة المجال، بمعنى أن كل علم يدرس جزء صغير من المجال وهذه النظرة بالطبع تنبع من الخلفية الأيديولوجية لهنري لوفيفر باعتباره ماركسي بنيوي، حيث يستمد أفكاره من النظرية الماركسية من خلال ثنائية "البنية التحتية والفوقية". لكن لوفيفر تجاوز هذه الثنائية وربط بين الفضاء العقلي و الفضاء الاجتماعي. ويخلص بالقول إلى أن هناك "حقيقة المجال وليس هناك مجال حقيقي"، والذي يدافع عنه لوفيفر هو قلب هذا التصور ولن يتحقق ذلك إلا بتكاتف كل العلوم بما في ذلك الفلسفة والعلوم "الحقة".

انطلاقا من هذا التصور، وسيرا على نهج النظرية النقدية ينتهي لوفيفر بطرح ما يسمى بـ "الثلاثية المجالية" أو نظرية الترياليكتك:

- الممارسة المجالية: تضم الإنتاج وإعادة الإنتاج، كل شيء اجتماعي وكل مجتمع ينتج مجاله الخاص من خلال الممارسات المجالية.
- تمثلات المجال: لكل مجتمع حسب لوفيفر تمثلات حول المجال، هذه التمثلات لديها وظائف؛ أي مرجعية الأفراد لتوظيف سلوكياتهم داخل المجال الاجتماعي، ويمكن تلخيص هذه التمثلات عند لوفيفر في ثلاث نقاط رئيسية: المعرفة، الرموز والعلاقات.
- مجال التمثلات: ويقصد به؛ المجال الخفي في المجتمع، وهو الجانب الثقافي الذي نعبر عليه من خلال الرموز والفن والعادات والمسرح والموسيقى...

فالمجال بهذا المعنى هو منتج اجتماعي و أداة للتفكير والفعل، ومن أهم نتائج هذا التصور؛ أن المجال الطبيعي يصبح ثانوي؛ المجال هو علاقات داخل المجتمع؛ ننطلق من المجتمع "كفيزيقي" ونتجاوزه؛ تصبح الأشياء الطبيعية في المجال رموزا؛ كل مجتمع (كل نمط إنتاج ينتج مجاله) وكلما تغير نمط الإنتاج تغير المجال الاجتماعي.

على هذا الأساس، وبالنظر إلى الرغبة التي تحدونا في توسيع النقاش، ثمة مسألة في غاية الأهمية، وهي أن الفضاء العام يمكن النظر إليه كذلك من منطلق "سوسيولوجيا الفضاءات الحضرية العامة"¹، أي مختلف أنماط المجالات العامة والخاصة التي يمارس فيها "الحضريون" حياتهم العادية. وهذا ليس مجالا مجردا، بل هو مجال "مبني" ماديا وذهنيا في نفس الوقت. ذلك أن "الجماعة ما أن تستقر في جزء من المجال حتى تشرع في تحويله بحسب تصورها الخاص لما ينبغي أن يكون عليه هذا المجال، لكن هذه الجماعة في نفس الوقت تخضع وتتأقلم مع الأشياء المادية التي تقاومها، إنها تتحصن في الإطار الذي بنته (...). إن المكان يتغير تحت تأثير الجماعة كما أنها بدورها تتأثر به"².

¹ - ستيفان تونيليا: سوسيولوجيا الفضاءات الحضرية العامة، مجلة إضافات، العدد الرابع، ترجمة إدريس الغزواني، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2017.

- عبد الرحمن المالكي، المرجع نفسه، ص 54.²

إذا أردنا، أن نجمل هذه الأفكار، سنقول أن الفضاء العام يتم تعريفه انطلاقاً من صعوبة مواجهة رؤيتين رئيسيتين الذي تدافع عنهما العلوم الاجتماعية: المجال العام والفضاءات المتاحة للعموم؛ يمكن تلخيص الرؤية الأولى من جانب مفهوم المحادثة والنقاش العام (Habermas, 1992) في حين أن الرؤية الثانية أفضل ما قيل عنه -المجال العام- بوصفه للحركية. فالأول يثير السؤال المهم المتمثل بالديمقراطية التشاركية، في حين تثير الفضاءات العامة المزيد من الاهتمام لفكرة الحريات الفردية، ولا سيما في شكل "الحق في المدينة" (Lefebvre, 1974). ويتناول كلا المنهجين أو الرؤيتين أيضاً مسألة شكل المدينة لكل من السكان، ومن حيث نوعية الحياة الاجتماعية.

ويذهب بعض الباحثين إلى وضع الفضاء العام مع الحق في المدينة¹ بشكل متساوي جنياً إلى جنب. وقد عمم هذا التعبير في الأصل هنري لوفيفر الذي كان يدافع عن سيطرة أو "تملك" أفضل للسكان على إنتاج فضاءاتهم اليومية². وفي الآونة الأخيرة، أخذ الحق في المدينة بعداً أكثر تركيزاً حيث يركز على الإمكان البدني للبحث للولوج إلى فضاءات معينة من طرف فئات محددة من السكان.

بناء على ذلك، لا يزال من الضروري معرفة ما المقصود بالمجال؟ وهذا يدعونا إلى الفحص لاستخدامات المفهوم في العلوم الاجتماعية. واحد منهم هو البحث عن التملك الحصري للفضاء العام؛ عنصر التحكم المادي عندما تمنع الحدود الجماعية الوصول إلى الآخر أو تحظره فعلياً. وهذه الاعتمادات المادية مألوفة لإبطال النزاعات الاجتماعية الذين غالباً ما يكون الفضاء موضوعاً لعلاقات القوة³. وبالتالي، هناك مجموعة من أشكال التملك للفضاء العام؛ الرمزي (Symbolique): عندما تهدف

¹- الحق في المدينة مفهوم يناقشه هنري لوفيفر في أطروحته "الحق في المدينة"، واهتمت بالأمر عدة جمعيات وتنظيمات وعدة مفكرين -ومنهم دافيد هارفي- وظهرت العديد من الكتابات بل والمواثيق الدولية التي تدعم هذا الحق وتكلفه. وتوجت هذه الجهود بصور "الميثاق العالمي للحق في المدينة" في المنتدى الاجتماعي العالمي الثالث في بورتو أليغري في كانون الثاني/يناير 2003. وفي هذا الميثاق الذي تقع ترجمته العربية في ست صفحات يُعرّف الحق في المدينة بأنه يشمل: "الحقوق الإنسانية المعترف بها دولياً للسكن، الأمن الاجتماعي، العمل، مستوى العيش ملائم، الترفيه، المعلومات، التنظيم وحرية التجمع، الماء والغذاء، الثقافة، الخصوصية، والأمن، بيئة آمنة وصحية، التعويض والعلاج القانوني في حالة التعرض للانتهاك وإجمالي الحقوق الإنسانية المتفق عليها والمكفولة التي يتم ضمانها لكل البشر في كافة الظروف". إنه يهدف إلى الانتفاع العالمي بالمدينة، احترام التنوع بها، حماية التاريخ والهوية الثقافية، وحياة مجتمعية سالمة، إن الحق في المدينة هو إطار عمل لمشاركة المواطنين المتساوية في تحديد تنمية وتطوير البيئة الحضرية... للمزيد ينظر:

دافيد هارفي، مُدن مُتمردة: من الحق في المدينة إلى ثورة الحضر، ترجمة لبنى صبري، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والترجمة، ط2018، ص 9-10.

²- Ibid., p 7.

³- محمد شوقي الزين: الفضاء العمومي المغربي في فرنسا اليوم رؤية مفكر فرنسي: ميشال دو سارتو، مجلة تبيان، العدد 21/5، ترجمة محمد أمين بن جيلالي. 2017، نص المقالة الأصلية: دراسة نُشرت بالفرنسية في كتاب جماعي هو تتويج لملتقى دولي عنوانه الفضاءات العمومية في البلدان المغاربية، (أيام 15-16-17 آذار/مارس 2011)، بإشراف مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، (وهران، الجزائر) ومختبر دراسات مغاربية (جامعة تونس)، والدراسة بالفرنسية، ينظر:

M. Chaouki Zine: "L'espace public maghrébin en France d'aujourd'hui. Le regard d'un intellectuel français: Michel de Certeau", in: *Les espaces publics au Maghreb*, sous la direction de Hassan Remaoun et Abdelhamid Henia (Oran: CRASC et Diraset), 2013, pp79-91.

مجموعة ما إلى ممارسة اجتماعية داخل الفضاء (التعليم، الكلام، التبادل التخاطبي، الموسيقى، الفن...). ومن جهة أخرى؛ البعد المادي (Matérielle) الذي يمثل الموقع الجغرافي (مكان، مقر حزب، وغيره...).

أ. تملك المجال: بأي معنى؟

لفهم أو للإجابة عن هذا التساؤل لابد من الرجوع إلى بعض الإسهامات المهمة حول علاقة الفضاء العام وكيفية تملكه، على سبيل المثال، نجد أعمال الفيلسوف الفرنسي ميشل فوكو (Michel Foucault) التي تمثل حجر أساس في فهم هذا الشق من المقال، دون إغفال أعمال هنري لوفيفير وآخرين، لقد ركزت هذه الإسهامات على كيفية احتلال الفضاء بواسطة القوة، على سبيل المثال، فقد أوضحت هذه الكتابات كيف أن السجن الحديث أو التقسيم المكاني للشوارع والأزقة قد تم للتحكم في أجساد البشر (الطريقة التي نتحرك أو نسير بها في الأماكن العامة، وما شابه ذلك)؛ كما أوضحت أن التخصص المكاني داخل المنزل، هو تخصص وظيفي (مثل فصل المطبخ، وحجرات النوم، وحجرات الجلوس) ذلك التخصص الذي يهدف إلى التهذيب والخضوع؛ وأوضحت أيضا كيف أن الشوارع العريضة والمفتوحة (كفضاءات شفافة) تهدف إلى الحد من أحداث الشغب عن طريق كشف المحتجين لرقابة السلطة.

الشيء الذي يجعل الفاعلين الاجتماعيين يعطون معنى للمجال الذي يتعارض مع السلطة. بمعنى آخر؛ أن هناك تضارب الرؤى للمجال بين السلطة والفاعلين. أو حسب ما عبر عنه ميشال دو سارتو (Michel de Certeau) بـ"ثنائية الاستراتيجية والتكتيكية"¹ أي أن هناك استراتيجية من طرف السلطة "لتدمير" و"تسيير" المجال، لكن هناك هفوات من طرف السلطة، والفاعلون الاجتماعيون يستغلون تلك الهفوات لإعطاء معنى للمجال.

يتوجه فكر ميشال دو سارتو نحو بناء تصور للفضاء العمومي وفقا لهذه الثنائية. وتعمل هذه الثنائية -الاستراتيجية والتكتيكية- بوصفها طريقة داخل الممارسات اليومية للفاعلين في "نظم السلوك الاجتماعي". في عرض وجه التضاد بين عاملين مختلفين في البيئة السوسولوجية، يحاول دو سارتو أن ينجز مقارنة مقارنة للفضاء العمومي بين استراتيجية السلطة وتكتيكية الفاعلين؛ الاستراتيجية نسق يرصد الممارسات والتمثلات، والتكتيكية فعل مقاومة لهذا النسق.

يستحضر ميشال دو سارتو مفهوم الاستراتيجية (Stratégie) وهو في المقام الأول مفهوما مستعارا من علم الحرب، ويتبنى دو سارتو هذا التعريف، بنقله من علم الحرب إلى الممارسات اليومية الاجتماعية بما أنه يتصور المجتمع بوصفه حقلا للصراع. وبالتالي، يحيل مفهوم الاستراتيجية إلى فكرة وجود نسق أكثر تماسكا أو أقل ومتناظم النسق تخضع له جملة الممارسات والتمثلات. أمام هذا النسق، تقوم التكتيكية (Tactique) كمقاومة في صيغة التردد على الأماكن و"احتلالها" لهذا النسق.

أخيرا، نفهم التحليل الذي أعطاه كل من ميشال دو سارتو وميشل فوكو وهنري لوفيفير. فعندما نعرض مسألة الممارسات اليومية لهؤلاء الفاعلين، بمعنى العمليات والأنشطة اليومية، فإننا نسلط الضوء على مشكل الصراع بين الفاعلين والسلطة. هذا ما تبينته مثلا الإبيستيمولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع ماركس وفرويد. لا يمكن إجراء أي

¹ ميشال دو سارتو: ابتكار الحياة اليومية: فنون الأداء العملي، ترجمة محمد شوقي الزين، دار الأمان، منشورات الاختلاف، الرباط، ط1، 2011، ص 250.

تحليل (علمي أو نقدي) بغض النظر عن الصراع. فالصراع هو أمر أساسي مثل الأبعاد الاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية للممارسات اليومية.

يبدو أن أفكار ميشال دو سارتو حول الصراع تتوافق مع ما نجده في الفكر القديم، خصوصا مع هيرقليطس الذي يرى أن الصراع "أب كل الأشياء". وهذا ما نلمسه في هذه الثنائية، فليس للتكتيكية من مكان سوى مكان الآخر. فهي تؤدي أدوارها داخل نص الآخر أو نسقه. فهي تتسلل فيه تسلا متشظيا دون أن تقبض عليه تماما، بمعنى دون أن تستبعده. أو بمعنى أكثر دقة: إن التكتيكية التي يستعملوها الفاعلون الاجتماعيون تلعب في ميدان ما يفرضه القانون - أي قانون الاستراتيجية -. وفي هذا الصدد يقول دو سارتو أيضا: إمكانية أن يستفيد الضعيف (Faible) من القوى (Fort)، فجأة وفي ظرف قياسي، هناك فرصة لقلب الوضع لمصلحته. تقدم التكتيكية كـ "دخيل" يشغل ميدانا ليس ملكه.

فالتكتيكية لا تقدم نظرة شاملة، فهي حركة باطئة وصامتة، في تعارض مع العلو - العلو هنا نقصود به الاستراتيجية - من زاوية تلك النظرة التي تحتضن الحجر الكامل. وتمثل التكتيكية فضاء دون قاعدة صلبة.

بناء على قاعدة التحليل بين مفهومي الاستراتيجية والتكتيكية، يبني "الفضاء العمومي" بالأسلوب نفسه. لكن إذا تقدمنا بفكرة أن الفضاء العمومي يمثل التكتيكية، أي يمثل الفاعلين الاجتماعيين، ماذا يمكن أن نعد الاستراتيجية؟ هل هي الدولة؟ أم الإدارة؟ أم الشرطة؟

يرى أغلب المهتمين بالمجال، أن ما يميز المجال اليوم هو بعده سياسي وحضوره القوي في ذهن الأفراد. وفي هذا الصدد نستحضر واحدة من أهم المقالات التي حاولت أن تسائل المجال الحضري أو "الأيديولوجيا الحضرية" كما عبر عنها هنري لوفيفر. هذه المقالة المعنونة بـ "الأيديولوجيا واليوتوبيا"¹. استحضارنا لهذه المقالة، يعني استحضار رؤية هنري لوفيفر، هذا الأخير ينتقد ما أسماه بالأيديولوجيا الحضرية المتمثلة في وضع قوانين سلطوية على الأفراد قصد التحكم فيهم في المجال. بهذه الرؤية، وبهذه العين الثاقبة لعالم الاجتماع الفرنسي هنري لوفيفر يمكن لنا قراءة المجال قراءة نقدية، وكذا فهم العلاقات الاجتماعية المتأصلة في المجال، هذه العلاقة الاجتماعية التي توجد بين الفاعلين الاجتماعيين والسلطة، هي علاقة مبنية على المقاومة المجالية والسلطة في الوقت نفسه. ولتوضيح الفكرة؛ فقد ركز هنري لوفيفر على تحليل وانتقاد الدولة لوضعها الإنتاج الرأسمالي والأيديولوجي للمجال الحضري، الشيء الذي جعله يسلط الضوء على الجانب السياسي للفضاء الحضري، ويمكن تلخيص ذلك في المقولة التالي: "الفضاء الحضري؛ كإنتاج سياسي وكأداة ممكنة للتغيير".

خلاصة تركيبية:

على سبيل الختم، يمكن القول أن الفضاء العام، شأنه شأن الحق في المدينة أو المجتمع، وهذا راجع إلى قدرته على التأثير في صنع السياسات وفي النقاشات العامة ومسارات التغيير الاجتماعي، ومما يزيد الأمر تعقيدا، عودة وظهور مفهوم الفضاء العام في العقد الماضي بكونه مفهوما أساسيا. وعلى سبيل المثال مقالة إمانويل كانط عن التنوير، وهو الأمر الذي يحيل على ما

¹- B. Grégory: "L'espace politique chez henri lefebvre: l'idéologie et l'utopie", UMR LAVUE (Mosaiques), Univeristé Paris Ouest Nanterre. Archivers-ouvertes.fr, 2012,p 3.

قدمه هابرماس، على الرغم من تطويره للفكرة يستند إلى حد كبير إلى المجتمعات الأوروبية، وهو في نظر الكثيرون مرتبط بظهور شكل معين من المجتمع البرجوازي وبالخطاب العقلاني/النقدي، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، إن مقولة الفضاء العام لا تنفصل عن مقولة المجال والحق في المدينة، بل نجدتها مكتملة لها.

وفي الأخير، نقول، إن علاقة الإنسان بالفضاء العام علاقة معقدة، تلزمتنا بالابتعاد عن أي تبسيط أو اختزال. فالفضاء العام هو المشترك بين الدول والشعوب وحدود السماح بالحركة في المعمورة بوصفها ملكا للبشرية وليست لشعب دون شعب آخر، الشيء الذي يدفعنا إلى الختم بأسئلة تبقى مفتوحة مستقبلا: من يشارك في الفضاء العام؟ من له سهم؟ ومن المهمش الذي لاصوت له؟

قائمة المراجع:

1. بن محمد قسطاني: ما هو المجال؟ (الأمم... حيوانات واسعة ينسجم تنظيمها مع بيئتها) بولدير، مجلة فكر ونقد، العدد 22.
2. بيير بورديو: بؤس العالم: أثار المكان، الجزء الأول، ترجمة سلمان حرفوش، مراجعة وتقديم، فيصل دراج، دار كنعان، 2010.
3. جورج زيمل: الفرد والمجتمع: المشكلات الأساسية للسوسيولوجيا، ترجمة وتقديم حسن احجيج، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2017.
4. حسن احجيج: نظرية العالم الاجتماعي: قواعد الممارسة السوسيولوجية عند بيير بورديو، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، ط1، 2019.
5. دافيد هارفي: مُدن مُتمردّة: من الحقّ في المدينة إلى ثورة الحَضَر، ترجمة لبنى صبري، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والترجمة، ط1، 2018.
6. ستيفانتونيليا: سوسيولوجيا الفضاءات الحضرية العامة ترجمة إدريس الغزواني، مجلة إضافات، العدد 46، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2019.
7. عبد الرحمن المالكي: الثقافة والمجال: دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، ط1، 2018.
8. عبد السلام الأشهب: أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لدى هابرماس، دار للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2003.
9. محمد سبيلا: مدارات الحداثة: مقالات في الفكر المعاصر، منشورات عكاظ، الرباط، 1988.
10. محمد شوقي الزين، الفضاء العمومي المغربي في فرنسا اليوم رؤية مفكر فرنسي: ميشال دو سارتو، ترجمة محمد أمين بن جيلالي، مجلة تبيان، العدد
11. محمد نورالدين أفاية: الحداثة والتواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 1998.

12. هناء علالي مصطفى كيجل: الفضاء العمومي ودوره في تفعيل الفكر التواصلي عند هابرماس قسم الفلسفة، مجلة التواصل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار-عنابة، العدد 50، تونس، 2017.5-21، 2017.

13. G. Busquet "L'espace politique chez henri lefebvre: l'idéologie et l'utopie", UMR LAVUE (Mosaïques), Univeristé Paris Ouest Nanterre. Archivers-ouvertes, 2012.

14. H. Lefebvre": La production de l'espace", In: *L'Homme et la société*, N. 31-32, Sociologie de la connaissance marxisme et anthropologie, 1974.

15. J. Habermas": l'espace public: Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise", traduit de l'allemand par, Marc B Launay, ed Payot, Paris, 1992.

16. L. Raymond : "la forme et le sens dans la société", Ed. Librairie des Méridiens, Paris, 1984.

17. M. Low": Sociologie de l'espace", Traduit de l'allemand par Didier Renault, Edition de la maison des sciences de l'home, Paris, 2015.

18. S. Tonnelat": the sociology of urban public spaces ", In wang Hongyang, Savy michel and Goufang (EDS), Tarraitonail evolution china and france, Atlantis Press, Paris, 2010.

الموروث الثقافي الأمازيغي في الشرق الجزائري: مدينة سوق أهراس أنموذجا

The city of Souk Ahras is a model: Amazigh cultural heritage in the Algerian East

ط.د.سمية بن جبار/ جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر1

Ben Khedda University, Algeria Ben Youssef/Soumia Bendjebbar

ملخص:

سوق أهراس تلك المدينة التي تختزن موروثا أمازيغيا عريقا، قد انطمست فيها روح هذا الموروث بتفاصيله الدقيقة عبر أزمته متباعدة و بفعل عوامل عديدة متظافرة، من دخول الاسلام إلى العولمة انسلت من أمازيغيتها شيئا فشيئا حتى أصبح وصفها بالأمازيغية عند أهلها غريبا وعند غيرهم أغرب، لهذا جاءت هذه الدراسة لتكشف عن أهم الممارسات الثقافية الأمازيغية في مدينة سوق أهراس، وتصف واقع الحياة الأمازيغية فيها في قرون مضت، وملاحظة الثابت منها والمتغير في الوقت الحاضر اعتمادا على الرواية الشفوية وعلى ملاحظة الباحثة كفرد من مجتمع الدراسة

الكلمات الدالة: سوق أهراس- الموروث الثقافي الأمازيغي – عادات وتقاليد.

Abstract:

Souk Ahras, a city that stores an ancient Amazigh heritageThe spirit of This inheritance has been entangled in its precise details through its far-flung times and due to many concerted factors. From the introduction of Islam to globalization, it gradually slipped from its Amazigh until it became described as Amazigh when its people are strange and others strangest, so this study came to reveal the most important cultural practices Amazigh in the city of Souk Ahras, describing the realities of life Amazigh in centuries ago, and note the constant and changing at the present time based on oral novel and on the observation of the researcher as a member of the study community

Keywords: Souk Ahras - Amazigh cultural heritage - customs and traditions.

مقدمة :

بما أن لكل مجتمع خصوصيته الاجتماعية والثقافية والدينية المشكلة لهويته الذاتية، فإن للمجتمع الجزائري خصوصية شكلتها عوامل قوية، ساهمت بدورها في تكوين هويته وهي الدين الإسلامي واللغة العربية والأصل الأمازيغي، والعامل الأخير لاتزال ثقافته بارزة في أغلب المدن الجزائرية وعلى رأسها مدن الشرق الجزائري باعتباره منطقة تركز قوي لصنف معين من الأمازيغ وهم القبائل والشاوية، وللحفاظ على هوية المجتمع الجزائري ومكوناتها المتميزة وجب الحفاظ على الأصل الأمازيغي فيما لغة وثقافة من الاندثار والضياع والتماهي في الثقافات الأخرى.

يهدف المقال للتعريف بالثقافة الأمازيغية في الشرق الجزائري، والكشف عن مظاهرها، وإبراز دورها في المحافظة على الهوية الجزائرية المتكاملة، ولتحقيق الهدف والوصول إلى نتائج واقعية اخترت مدينة سوق أهراس كواحدة من مدن الشرق الجزائري لما تمتلكه من مخزون ثقافي وتراثي عريق، تمتد جذوره إلى ما قبل الميلاد، موروث تراكم عبر المراحل التي مرت بها، ويتعاقب الحضارات عليها كالحضارة الفينيقية والرومانية وكذلك الحضارة الإسلامية التي طغت ثقافتها على حساب الثقافة الأمازيغية للمدينة بحكم الدين واللغة أكثر من غيرها من الحضارات، لذلك يمكن طرح التساؤلات التالية: إلى أي مدى تحافظ مدينة سوق أهراس على الموروث الأمازيغي فيها؟ ما هي المجالات التي يبرز فيها هذا الموروث؟ ماهي مظاهر تأثير الثقافة الأمازيغية في المنطقة بالثقافات الأخرى؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات حاولت إعطاء صورة متكاملة عن الموروث الشعبي الأمازيغي في منطقة سوق أهراس باعتباره الوعاء الأكبر الذي يشمل عادات الناس وتقاليدهم التي توارثوها جيلا عن جيل، كما يضم كل ما له علاقة بأرائهم وأفكارهم وإبداعاتهم كالشعر والقصة والرقص والأسطورة وغيرها من الفنون التي تجسد يوميات المجتمع القديم في مجتمع حديث.

1. ضبط مفاهيم الدراسة:

1.1. الموروث الثقافي:

1.1.1. لغة:

تدور مادة (و. ر. ث) في المعاجم العربية حول معنى واحد وهو انتقال الشيء من شخص لآخر؛ جاء في مقاييس اللغة أن «الواو والراء والثاء كلمة واحدة وهي الوِثْ، وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب»⁽¹⁾، وهذا المعنى يشير إلى انتقال كل ما هو مادي عموما مقيدا هذا الانتقال بشرط، وتأتي كذلك مادة (و. ر. ث) بصيغ مختلفة تحمل المعنى ذاته ف«الوِثْ والوِثْ والوِثْ والإراث والتراث واحد...وقيل الوِثْ والميراث في المال، والإراث في الحسب، والتراث ما يخلفه الرجل

(1) _ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (دار الفكر للنشر والطباعة، د.ب، 1989، ج6)، ص105 ينظر أيضا: الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، د.ط، (دار القلم، 2009) ص763.

لورثته»⁽¹⁾، أما في الكليات الإرث يعني «الميراث والأصل والأمر القديم توارثه الآخر عن الأول»⁽²⁾، فالمعنى في كل ما ذكر منحصر فيما يرثه الإنسان من والديه من مال أو حسب.

يبدو أن المعنى المتداول عن التراث في المعاجم يختلف اختلافا واضحا عن معنى التراث المتداول في هذا العصر، فنجد كلمة تراث ترد بشكل أقل من مثيلاتها في المعنى ميراث و وراث، كما أنه يرد توضيح لأصل الكلمة كلما ذكرت؛ فقد جاء في عدة معاجم "والتراث أصل التاء فيه واو"⁽³⁾ وفيه دلالة على عدم تداولها في ذلك العصر بخلاف ما تلاه من عصور فالكلمة حاضرة وبمعنى أوسع من انتقال المال والحسب، ويؤكد الجابري هذا قال «التراث بمعنى الموروث الثقافي والفكري والأدبي والفني وهو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل خطابنا العربي المعاصر ملفوفا في بطانة وجدانية وايدولوجية، لم يكن حاضرا لا في خطاب أسلافنا ولا في حقل تفكيرهم، كما أنه غير حاضر في خطاب أي لغة من اللغات الحية المعاصرة التي نستورد منها المصطلحات والمفاهيم الجديدة علينا»⁽⁴⁾ يشير الجابري إلى أن مفهوم التراث في الفكر العربي يتميز عن مفهومه في أي فكر آخر.

2.1.1. اصطلاحا:

تعددت تعاريف الموروث وتنوعت بتنوع المجال الذي يستخدم فيه، ويصب أغلبها في إطار التراث الثقافي، فهو «شكل ثقافي متميز يعكس الخصائص البشرية عميقة الجذور، ويتناقل من جيل إلى جيل آخر ويصمد عبر فترة زمنية متفاوتة نوعيا، ومتميز بيئيا وتظهر عليه التغيرات الثقافية الداخلية، ولكنه يحتفظ دائما بوحدة أساسية مستمرة»⁽⁵⁾، ويعرفه الطيب تيزيني على أنه «الماضي مستمرا وممتدا حتى الحاضر»⁽⁶⁾ وهو المعنى ذاته الذي يشير إليه الجابري حيث عرفه بأنه: «كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي سواء ماضينا أو ماضي غيرنا سواء القريب منه أو البعيد»⁽⁷⁾، هذه التعاريف تؤكد على ركيزتين أساسيتين في التراث هما الانتقال والاستمرارية، وهما شرطان مهمان في الحفاظ على التراث أما عن:

-الموروث الثقافي: فقد جاء عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة أنه: «التقاليد وأشكال التعبير الحية الموروثة من أسلافنا التي تداولتها الأجيال الواحدة تلو الأخرى وصولا إلينا مثل التقاليد الشفهية والممارسات الاجتماعية..»⁽⁸⁾ وأغلب تعاريف الموروث الثقافي لا تخرج عن هذا الإطار وهو ما انتقل إلينا من عادات وتقاليد وفنون، فهو «حصيلة خبرات أسلافنا الفكرية والاجتماعية والمادية، المكتوب والشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب»⁽⁹⁾، ويعد أسلوبا مميزا من أساليب الحياة بانعكاسه في مختلف جوانب الثقافة، فهو ينبع من عمق وعي المجتمع بذاته

(1) _ ابن منظور: لسان العرب، (بيروت: دار صادر، (د.س.ن)، ج 2) ص 201، 200.

(2) _ أبو البقاء الكفوي: الكليات (لبنان: مؤسسة الرسالة، ط 2، 1998) ص 78.

(3) _ ينظر ابن منظور: المرجع السابق، ص 101 وينظر أيضا: الراغب الأصفهاني: مرجع سابق، ص 763.

(4) _ محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 1991)، ص 23.

(5) _ يوسف محمد عبد الله: الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته، جامعة صنعاء، ص 2.

(6) _ طيب تيزيني: من التراث إلى الثورة، (بيروت: دار ابن خلدون، ط 2، 1978)، ص 243.

(7) _ محمد عابد الجابري: مرجع سابق، ص 45.

(8) _ منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة: التراث الثقافي غير المادي، <https://ich.unesco.org/ar/-00003>.

(9) _ فريدريك معتوق: مدخل إلى سيولوجيا التراث، (بيروت: دار الحداثة، ط 1، د.س.ن)، ص 60.

وهويته، ويتمركز في اللاشعور المجتمعي حيث يعبر عنه بشتى الأشكال ومن غير تكلف.

2.1. الموروث الثقافي الأمازيغي:

استنادا لما جاء من معان في التعريفات السابقة لغوية واصطلاحية يمكن أن نعرف الموروث الثقافي الأمازيغي بأنه: كل ما بقي حاضرا من عادات وتقاليد وفنون ولغة وممارسات اجتماعية وثقافية ضاربة في قدم الحضارة الأمازيغية، اعترتها تغيرات مختلفة لكنها بقيت مستمرة إلى اليوم بتناقلها من جيل لآخر. وقد كثر الجدل حول الموروث الأمازيغي هوية ولغة وثقافة، لكن كل يناقشه حسب أيديولوجيته أو سياسته أو عاطفته، وفيما يلي أكشف بمنهج وصفي عن جزء صغير من الإطار الجغرافي الأمازيغي الكبير، لمعرفة طبيعة الثقافة الأمازيغية الكائنة بمنطقة سوق أهراس، لأن أغلب ما يتجلى في هذه الرقعة الأمازيغية من مظاهر ثقافية متنوعة يماثل ما يمارس من الثقافة نفسها في أغلب التراب الأمازيغي الجزائري.

3.1. نبذة تاريخية عن مدينة سوق أهراس⁽¹⁾:

أدت المدينة منذ القديم دورا تاريخيا سياسيا واقتصاديا من عهد الأمازيغ والفينيقيين والقطاجين والوندال والرومان، وسميت بطاغست في فترة العهد الروماني، فهي أقدم مملكة أمازيغية تأسست شرق الجزائر على يد الملك "زال إلسان" في القرن الثالث قبل الميلاد، وكانت مسقط رأس العديد من الكتاب والمفكرين والقادة العسكريين والقساوسة أمثال تكافرينا س، ماكسيم يوس العالم بقواعد اللغة، والقديس أوغاستين وغيرهم كثير، وتعتبر من أهم المدن النوميدية في شمال إفريقيا التي ساهمت في التطورات التي شهدها حوض البحر الأبيض المتوسط، ومع مرور الزمن تحولت إلى سوق كبير ترد إليه القوافل التجارية من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي الجزائري لكونها نقطة تقاطع تجارية لقربها من الحدود التونسية.

أما عن تسميتها بسوق أهراس فقد تعددت الروايات عن أصل هذه التسمية، فقد ورد في بعض الروايات أنه بدأ استخدامه في الفترة العثمانية لأن الفرنسيين عند دخولهم المنطقة لأول مرة وجدوا هذا الاسم متداولاً، كما أوردت التقارير الفرنسية عدّة معاني للتسمية منها سوق الثياب، وورد اسم آخر في بعض الخرائط العثمانية وهو "تاجيلت" وهو اسم أمازيغي وقد استعمله الفرنسيون، ورواية أخرى تقول أن اسم سوق أهراس اسم لمدينة نوميدية قامت على أطلالها المدينة الحالية واسمها "ثاكاست أهراس" وهي تسمية أمازيغية مركبة وتشير إلى الأسود البربرية التي كانت تتواجد في الغابات المحيطة بالمنطقة إلى غاية انقراضها في 1930، ولذلك فإن معنى اسم سوق أهراس هو سوق الأسود.

وقد نشأت أغلب المناطق في المدينة حوالي القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفينيقين بعدما أرسلت قرطاج جالية بُنيقية لبناء المدينة وتهبتها، ويعتبر البربر أو النوميديون السكان الأصليين للمنطقة فقد وجد بها قبل حلول البُنيقيين تجمعات سكانية نوميدية، وقد ارتبط النوميديون بالبُنيقيين حسب المؤرخ هيرودوت في ميادين التجارة كما تأثروا بلغتهم وفنونهم وثقافتهم وكذا معتقداتهم الدينية.

والملاحظ مما سبق أن أغلب الروايات تُرجع التسمية إلى الأصل الأمازيغي وهذا دليل على بقاء أشكال أخرى من الحضارة

(1) _ ينظر جمال ورتي: طاغست مهد الحضارات، مجلة سوق أهراس محروسة الأسود، تاريخ وآفاق، منشورات cdsp 2012، عدد خاص 2012

وينظر كذلك: مداوروش المدينة الدرّة، مجلة عن مديرية السياحة والصناعات التقليدية لولاية سوق أهراس، 2011

الأمازيغية في المنطقة غير اسمها وأسماء بلدياتها التي تعود إلى أصل أمازيغي، إلا أن تأثير الأمازيغ بالحضارات الوافدة إلى أرضهم يجعل من الصعب انتقال الموروث الأمازيغي الصرف من جيل لآخر من غير أن يكون قد أخذ وتأثر ولو بشكل بسيط بما في الحضارات التي عايشها من فكر وفن وثقافة.

2. الممارسات الاجتماعية الأمازيغية في سوق أهراس:

قبل الحديث عن الموروث الأمازيغي في المنطقة أشير إلى أنها تقع ضمن المجال الجغرافي المتسع للأوراس الذي يبدأ من «تونس، تبسة، سوق أهراس امتدادا إلى قالملة واد زناتي وجنوب قسنطينة لخروب إلى غاية شلغوم العيد، ويمتد الخط إلى سطيف ثم يمتد جنوبا عبر بريكا واد سلسو إلى بسكرة ليحتوي منطقة الزاب الشرقي إلى غاية تونس وهذا حسب جغرافية دي بوا»⁽¹⁾ لأن التميز الجغرافي يعطينا بالضرورة تميزا ثقافيا بين الفئات الأمازيغية المتعددة في الجزائر، كما أن هذا الإطار الجغرافي يبين الفرع الأمازيغي الذي ينتمي إليه سكان المنطقة وهو فرع الشاوية "ايشاوين" منهم المحافظون ومنهم المعربون، هذا في ما يخص التمرکز الجغرافي أما العادات والتقاليد فهي متشابهة إلى حد كبير.

1.2. عادات وتقاليد متعلقة بالزبي والغذاء:

تعد العادات والتقاليد من المكونات الأساسية في الثقافة الأمازيغية "الشاوية" للمنطقة كغيرها من الثقافات الأخرى، حيث ينشأ عليها أفراد المجتمع، فهي تساهم بشكل كبير في التكوين الفكري والنفسي لهم، كما أنهم يتشبثون بها اجتماعيا فيسعون لتطبيقها والعيش بها في حياتهم اليومية، وهناك من يخلطها بأمور عقدية ويوصلها حد التقديس، إلا أن مع التطور التكنولوجي والانفتاح العشوائي على الثقافات الأخرى لم يعد يُتقيد بهذه العادات كما تقيد بها الأجداد، بل أصبحت أغلب العادات والتقاليد لا تمارس إلا في المناسبات مع أنها كانت عادات يومية في أصلها، فهناك من العادات ما ندرثر ولم يبق له أثر وذلك لتغير الزمن وتداخل الثقافات والتقليد للغرب وغيرها من الأسباب، وعادات أخرى استمرت المنطقة في الحفاظ عليها منها:

1.1.2. المأكّل:

تشتهر مدينة سوق أهراس مع غيرها من المدن الشرقية الشاوية بصفة خاصة والمدن الجزائرية بصفة عامة في أطباق وتتميز عنهم بأطباق أخرى

-الكسكس: كسكسي (أسكسو): طبق مشهور في الشمال الإفريقي كله وخاصة في المغرب الجزائر ليبيا وتونس، ويطهى بطرق متنوعة تختلف من بلد لآخر، ففي مدينة سوق أهراس يطبخ بطرق مختلفة فيقدم بالمرق الأحمر والخضار واللحم في الأيام العادية، ويعد تقليدا ثابتا عند بعض العائلات يوم الجمعة حيث يطبخ بالطريقة التي يطبخ بها في الأعراس وهي مرق أبيض ولحم وبعض التوابل وبنوع واحد فقط من الخضار وهو صغير القرع "الكوسة" مع حبات من الحمص، أما في فصل الخريف فيكثر تناوله بفاكهة الرمان ويسمى مسفوف أو محمص، ولا يزال في بعض الأرياف يستعملون اليد في تناوله وهم قليل جدا، ويقدم أيضا باردا باللبن الرائب والسكر.

(1) <https://www.youtube.com/watch?v=84qutU2Sdcs> ساسي عابدي، سليمان بخليلي: حوار عن: الفرق بين القبائل والشاوية سنة 2006

وحسب بعض الروايات أن هذه الأكلة في قرون مضت تطبخ يوميا إما بالمرق الأحمر أو بالحليب والبصل أو بالزبدة والزبيب والسكر (مسفوف) وهي الغذاء الأساسي الذي لا بديل لهم عنه⁽¹⁾، وهناك من يرى أن هذا الطبق أصله عربي لأن أصل الكلمة -كسكس- عربية⁽²⁾ وكذلك خطوات إعدادها المحمص والفتل عربية أيضا، نقول أن أصل الكلمات ليس دليلا كافيا على عربية الكسكس «فالأمازيغ تأثروا بلغة الوافد فتكلموا بها وتعاملوا بها لأن الأرض التي سكنوها كانت هي مركز العالم القديم الذي يفد إليه كل من هو قوي حضاريا فتبنوا لغته على حساب لغتهم»⁽³⁾ ودليل ذلك أن مؤلفات الأمازيغ الأوائل كانت باللغة اللاتينية لا بالحرف الأمازيغي ومثال ذلك مؤلفات أبول يوس⁽⁴⁾ ومن أشهرها الحمار الذهبي كتبت باللاتينية مع أنه أمازيغي، كما أن الواقع يقر أن هذا الطبق معروف ومشهور فقط في المناطق الأمازيغية وقد انتقل أيام الاحتلال الفرنسي من الجزائر والمغرب إلى فرنسا ومنه إلى أوروبا.

-العيش أو البركوكس: هو طبق مشهور جدا في مدينة سوق أهراس يشبه الكسكس لكن حباته أكبر قليلا من حبات الكسكس، طريقة إعدادها أصعب لأن الحصول على كرات صغيرة وسميكة من دقيق القمح والماء يتطلب جهدا كبيرا، أما طبخه ومذاقه فيختلف تماما عن الكسكس فيطهى باللحم والقديد والفول الجاف والحمص وبعض الخضر والمرق الأحمر بإضافة الحليب وهو يطبخ غالبا في فصل الشتاء

-الشخشوخة: تشبه الثريد وهي عبارة عن ورق رقيق من عجينة القمح ينضج على طاجن من الطين دائري مخصصة لها، حيث تمدد كريات العجين بالزيت إلى أن تصير ورقة كبيرة وتوضع الورقات فوق بعض مع التقليب وبعدها تفتت كل ورقة إلى قطع صغيرة ويسقى بالمرق المصنوع باللحم والطماطم والفلفل الحار، وهناك من يضيف إلى المرق المشمش المجفف ويسمي(الفرماس) مع عجينة التمر فيتغير اسم الأكلة من شخشوخة إلى:

- مفرمسة: التي تعد من الأكلات الغريبة حيث تجمع بين المذاق الحار والحلو والحاذق وهي مما تتميز به منطقة سوق هراس، وهي أكلة شبه مندثرة، بقيت عائلات قليلة جدا محافظة عليها.

ويتميز المطبخ الشاوي في مدينة سوق أهراس عموما باستخدام التوابل والدسم واللحم والعسل بكميات معتبرة في اعداد الوجبات .

2.1.2. الملابس: الملحفة (إيمْلُحْفَتْ):

(1) _ في فترة الاحتلال الفرنسي وذلك نظرا للظروف المعيشية المزرية التي عاناها المواطن الجزائري فقد كان في كل غذائه معتمدا على دقيق القمح أو الشعير

(2) _ يقال خبز كسيس ومكسوس ومكسوس: مكسور ينظر: ابن منظور الأفريقي: مرجع سابق، ج5، ص3874

(3) <https://www.youtube.com/watch?v=n4l3n4DONxo> أرزقي فراد: محاضرة ملتقى الأنوار للفكر الحر 2015

(4) _ لوكيوسابليوس Apulée Lucius المعروف بأبليوسالمادوري ثاني أشهر الشخصيات الأمازيغية الجزائرية شهرة بعد وغستين ولد سنة 124م في مدينة ما دور -مداوروش حاليا احدى بلديات مدينة سوق اهراس- من قبيلة جدالة سعى نفسه المادوري الأفلاطوني تارة والفيلسوف تارة أخرى تمييزا له عن حكماء الرومان الذين حملوا نفس تسميته، واصل دراسته العليا بقرطاج استكمل ثقافته برحلات قادته إلى إيطاليا واليونان وآسيا الصغرى، ألف كتاب الدفاع سنة 155م وذاع صيته بمؤلفه الحمار الذهبي الذي ألفه 170م وهي أول رواية كاملة في الانسانية باللغة اللاتينية توفي 180م. ينظر: لوكيوسابليوس: الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2001)، ص11، 12، 13.

ثوب يصنع من الصوف الملون أو الكتان يربط في الوسط بخيط من الصوف سميك تصنعه المرأة الشاوية حيث تمزج فيه عدة ألوان وغالبا يكون باللون الأسود يسمى (أبقّاس)⁽¹⁾ وتربط الملحفة في الكتفين بنوع من الحلي الفضية يسمى (إيخالين) ولا تستغني المرأة الشاوية عن زينتها التي تتمثل في الحلي الفضية منها (إيمشرفين) وهي حلق تتدلى من الأذنين حتى الكتفين و(أنواش) وهو قطعة فضية تغطي الجبهة وتشد بها مناديل الرأس (إمحرمين)، أما المعصم فيزين بأساور (ايمقياسن) أقلها أربعة في كل ذراع والرجل تزين بالخلخال، كما يزين الوجه بالوشم على الجبين والخدين والذقن، وظاهر اليد يزين هو الآخر به، فمن شبه المستحيل أن تجد جدة شاوية يخلو وجهها ويدها من الوشوم، فهو تقليد موغل في الثقافة الأمازيغية عموما وله مدلولات جمالية وأسطورية، هذا بالنسبة للباس المرأة وزينتها أما الرجل فيتمثل لباسه في:

-القندورة (القميمص): مصنوعة من الصوف مع غطاء يشد به الرأس ويسمى (الشاش) مع سروال بوقفة أو ما يسمى (أسروالنوعرابن) والحذاء الجلدي المصبوغ بالأخضر والأحمر (إيبليغث) هذا النوع من اللباس لم يعد موجودا إطلاقا
-البرنس (أعلاو): هو لباس الجميع حتى الأطفال يصنع لهم البرنس وعادة يكون أبيض اللون، يلبس في الأعراس والأعياد وعند استقبال الضيوف، أما اليوم أصبح تقليدا؛ برنس العائلة هو واحد متوارث بين عائلة معينة يلبسه كل رجل منها ليلة زفافه، فهو فخر الرجل الشاوي وله قيمة اجتماعية كبيرة.

-القشابية (اقشابيث): هي لباس شتوي بامتياز تصنع من الصوف لونه بني غالبا، «تعد أحد الرموز الثقافية العريقة في المجتمع الجزائري عموما و السوقهراسي بوجه خاص، فلا تزال لباسا تحمل خيوطه المصنوعة من الوبر أو الصوف رموزا لها من الجمالية ما جعل أبناء طاغست يتفاخرون بارتدائها سيما تلك المصنوعة من الصوف فهي الأكثر رواجاً بين فئات المجتمع»⁽²⁾، والأطفال كذلك لهم نصيب من ارتداء القشابية وهو مظهر من مظاهر اعتزاز عائلاتهم بهذا اللباس، ومن دلائل المحافظة عليه وزرع حب التقاليد فيهم.

3. عادات وتقاليد متعلقة بدورة الحياة:

1.3.1. المرأة وتقاليد الزواج الامازيغي في المنطقة:

يتميز الزواج في المجتمع الشاوي بعادات وتقاليد خاصة، وهي واحدة تقريبا عند جميع الشاوية مع اختلاف أماكن تواجدهم ومن هذه العادات

1.1.3.1. الخطبة:

تذهب جماعة من الرجال لخطبة الفتاة المقصودة وإذا تم القبول منح مهر العروس لأبيها ثم يعود الرجال ليبشروا النساء بالقبول، وفي الغد تتجهز النساء لأخذ الكسوة للعروس وهي عبارة عن جرة كبيرة من الطين تملأ بالحناء، وتوضع فوقها ملحفة

(1) _ القاف تنطق جيم مصرية وهي حرف أصيل في الأمازيغية.

(2) _ الصناعة التقليدية والتراث الشعبي أصالة تصارع الاندثار الزربية والقشابية استثناء واعتزاز، مجلة سوق أهراس محروسة الأسود: مرجع سابق، ص 123.

وغطاء رأس (ايمحرمت) وإلى جانب الجرة تحضّر قفة يوضع فيها التمر والرفيس⁽¹⁾ تحمل عجوز من أهل العريس الجرة والقفة وتذهب مع بعض النسوة لبيت العروس فيحنون لها يديها ورجليها ويوزعن التمر والرفيس على الحضور ثم يعدن للبيت ليبدأ التحضير للعرس.

2.1.3. الوليمة الخاصة بيوم العرس وإحضار العروس من بيت أبيها:

قبل العرس بأيام يتم شراء وصنع كسوة للعروس من قبل أهل العريس، حيث تقوم النسوة بنشر الكسوة على الحبل في ساحة كبيرة ويجتمعن لقتل الكسكس تحت الكسوة وهن يغنين، وعند انتهائهن من قتل الكسكس تؤخذ الكسوة وتوضع في برنس صاحب الدار (أب العريس)، وينحر عدد كبير من الخراف ويتم دعوة كل القرية لحضور العرس.

تحمل عجوز الكسوة على ظهرها وتذهب في وسط موكب من الرجال والنساء إلى بيت أب العروس لإحضارها، يترأس الموكب أب العروس وإخوته، وفي الطريق النساء يزغردن والرجال يغنون وعند الوصول يستقبلهم أهل العروس بالعصي ويبدأ الرجال من العائلتين المضاربة بها، وهو طقس يعبر به أهل العروس على غلاء ابنتهم ومعزتها، وأن أخذها لبيت آخر لا يكون بسهولة، وبعد طقس العصي يدخل النساء يطلبون العروس فيضعون عنها لباسها ويلبسونها اللباس الذي أحضروه لها، ثم يضعون لها الحناء و يغطونها بالحاك وتبيت جالسة في وسط العجائز، وفي الصباح تصنع لها أمها الفطور وتغسل عنها الحناء، ثم تستعد لتخرج من بيت أبيها.

يفرش للعروس برنس أبيها على عتبة الباب وتوضع لها فيه النقود، ثم يتقدم أب العريس ويحملها ليضعها فوق بغلة بيضاء أو حصان لتنقل به إلى بيت زوجها، مرفوق كل هذا بالزغاريد والغناء وطلقات البارود المدوية، وإذا كان بيت العريس قريبا من بيت العروس يتم أخذ العروس إلى زوجها بحملها من طرف أبيه، وعند دخولها ترش بالماء عند عتبت الباب، ورواية أخرى تقول هي من تقوم برشهم بالماء⁽²⁾ إذا قدموا لأخذها، ويصنع في غرفة العروس خلوة لها لسترها عن أعين من يقصد غرفتها ولتسهر أيضا بالارتياح والسكينة وتسمى بالحجبة، كما أن العروس لا تبيت في أول يومها عند زوجها وإنما تبقى في حضرة النساء، فيقدم لها لحم الضأن والشخشوخة وتبيت مع غير المتزوجات وذلك لتألف أهلها الجدد.

3.1.3. أشكال الرقص:

يتميز العرس الشاوي كذلك بـ (أجرار) يتمثل في مجموعة من الرجال مع بنادقهم يطلقون البارود في مكان واحد وفي وقت

(1) من المأكولات الشاوية المشهورة لايزال يقدم حاليا في الخطبة ومناسبات كحفلات النجاح وهو عبارة عن كسرة تعجن بكثير من الدهن وقليل من الماء تنضج على النار حتى تحمر وبعد ذلك تهرس وهي ساخنة وتعجن بعجين التمر والسمن.

(2) هو طقس مستمد من الأسطورة الأمازيغية (تسليث) عروس المطر وهي فتاة يضرب بها المثل في العفة والشرف، فقد عزفت عن الحب وعن الزواج واتخذت من الأنهار مكانا لها، حيث اهتمت بكل ينابيع الماء فتعمل من أجل إيصال الماء لكل الأراضي، فعلها هذا جعل اله المطر يعجب بها، بأخلاقها وجمالها وحبها للماء فقرر الزواج بها، لكنها رفضت طلبه لأنها لن تفعل هذا من دون علم أهلها حتى لو كان إله المطر، فغضب منها وانتقم بأن أمسك عن قريتها المطر فجفت الأنهار وبيس الزرع مما جعل أهل قريتها يلحون عليها بقبول طلبه ليرسل الأمطار على أرضهم فقبلت، أخذها إله المطر معه إلى السماء وعم الخير ولم تتوقف الأمطار عن الهطول في مواسمها. من ذلك الحين أصبح ارتباط الماء بالعروس دليلا على مجيء الخير وعلى شرفها وعفتها فأصبح تقليدا متوارثا وهو رش العروس بالماء فال خير وأنها قادمة لهم بالخير والرزق ورشها هي لهم بالماء دليل على شرفها وعفتها.

واحد، وكذلك يكون بصفين من النساء متقابلين يذهبن ويأتين يغنين ويطلقن الزغاريد يسمون (أمربوعا)، وتقوم البنات غير المتزوجات بالرقص وسط دائرة من الرجال شرط تغطية وجوههن⁽¹⁾، كما يتميز بطابع آخر وهو (الرحابة) وهي فرقة متكونة من ثمانية فأكثر من الرجال يغني بعضهم أما البعض الآخر فيعزف ايقاعات على الناي (القصبة)⁽²⁾ والدف ترفق برقصهم جميعا ذهابا وإيابا ويسمى هذا ترحابا، وكان لهذا الرقص أهمية إيحائية في فترة الاحتلال الفرنسي، فطريقة تركيز القدم بشدة على الأرض رسالة للمستعمر على أن هذه الأرض لنا⁽³⁾، وهذا الفلكلور لا غنى للمدينة عنه فهو حاضر في كل الأعراس، بالإضافة إلى طابع إطلاق البارود جماعات وأفرادا، فلم يبق من عادات وتقاليد العرس الشاوي في سوق أهراس إلا الترحاب وإطلاق البارود ورش العروس أهل العريس بالماء ونحر عدد كبير من الخراف للوليمة.

2.3. عادات الميلاد والختان:

للميلاد والختان عادات وتقاليد تختلف تماما عن وقتنا الحاضر، فعندما تضع المرأة الشاوية مولودها تقوم النسوة بلفها بعدة ملاحف لمدة شهرين كاملين، ويقدم لها طبق العيش يوميا بالإضافة إلى فطور مميز وهي عبارة عن عجينة التمر مطبوخ بالبيض والسمن يسمى (إيمشوشت)، أما المولود فيلف هو الآخر بسبع أقمطة تنزع عنه كل يوم ليبدل بزيت الزيتون من رأسه إلى قدمية ثم يغرغرها بها ويسقى كذلك منها، ويلف مرة أخرى بسبع أقمطة إلى أن يبلغ السنة من عمره.

و عندما يتجاوز الصبي السنه من عمره يختن، ويكون ذلك في حفل كبير حيث يختن أطفال قرية معينة كلهم في يوم واحد، إذ يجتمع اهالهم في بيت واحد، النساء يقمن بتحضير الوليمة وهي الكسكس، أما الرجال فيجتمعون بالخارج وينتظرون قدوم الختان ليباشر عملية الختان، بعد تمام عملية الختان توضع قُلُفات⁽⁴⁾ الصبية في قصعة كبيرة وتغطى بمنديل كبير وتحملها العجائز لدفنها في مكان بعيد وهن يغنين ويزغردن.

3.3. عادات المأتم:

عند وفاة أي شخص يحضر للعزاء كل من في تلك القرية، وكل عائلة تحضر معها خروف مرفق بكل لوازم إعداد العشاء ويسمى (أمسبي) ويقوم نسوة من غير هل الميت كل يوم بطهي أكثر من خروف في بيت المتوفي لإطعام كل من يحضر للعزاء، وذلك لمدة أسبوع كامل، وفي نهاية الأسبوع يحضر عشاء خاص لذلك اليوم يتم دعوة كل من الأقارب والمعارف وكل من حضر العزاء عليه، كما يوزع الطعام على كل أهل القرية، أما بالنسبة لطريقة الحزن فهي تشمل النواح والرتاء وبعض الأهازيج الحزينة من طرف نسوة لا تجمعهم قرابة بالمتوفي.

4. الممارسات الفنية الامازيغية في سوق اهراس

(1) _ بخوش أحمد: التراث الثقافي الشاوي بين الثابت والمتغير دراسة لبعض العادات والتقاليد لسنة 1935-1936، مجلة العلوم الاجتماعية

والانسانية، عدد خاص الملتقى الدولي الاول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، ص272.

(2) _ وهي الآلة الموسيقية التي يطرب لها الشاوية وتكون حاضرة في جميع حفلاتهم رغم ما تحمله موسيقاها من حزن وألم فالناي عندهم مرتبط بالأرض يعبر عن الأمهم التي لا قوها من كل من طمع في أرضهم بداية من الاحتلال الروماني إلى الفرنسي.

(3) _ مداوروش المدينة الدرّة: مرجع سابق، ص55.

(4) _ مفردتها قُلْفَة وهي الجلدة الصغيرة التي يقطعها الختان من ذكر الصبي.

1.4. الحكاية الأمازيغية:

يمتاز قالب السرد للحكاية الأمازيغية عموماً والشاوية خصوصاً بصور فنية تكمل بعضها بعض، حيث تعطي جواً للمستمع فيمتزج بما يسمع بخيال عال، فهي تقص غالباً في الليل ومن طرف العجائز، فبعد أن يخلد الجميع إلى فراش النوم تبدأ العجوز بالقص بنبرة مؤثرة تتلون حسب الحاجة، فلا يسمع صوت من المتلقين إلا ضحكا أو فرعا أو حيرة يقتضيه موقف الحكاية، ولكل حكاية اسم يستمد من حوادث بارزة فيها وغالبا ما يكون اسمها من أسماء شخصياتها مثل حكاية (أيدي أبركان) الكلب الأسود، وحكاية (أرقاز د فيغر) الرجل والثعبان، وحكاية (بوسبعنجان) ذو الأذان السبع و حكاية (لونجة د هامزا) الونجة والغولة.

فالحكايات الأمازيغية تقدم شخصيات غير بشرية ذات دور فريد ومتميز، وغالبا ما تكون وفيه للإنسان، مخصصة له، تساعد على الخلاص، حين لا يجد المساعدة عند البشر، كما تقدم شخصيات أخرى غريبة، كالغول والعفريت والمارد والجني، وأكثرها يخدم الإنسان ويساعده.

تبدأ الحكاية الأمازيغية بعبارات محددة مثل (نان إمزورا) قال السابقون أو (يلا شان واس ذ أرقاز) كان ذات يوم رجل...، وتتنوع الحكايات بين الخرافية والاسطورية و الحيوانية فتعطي تنوعا وغنى في العبر والمفاهيم المشكلة بدورها لشخصية المستمع.

للحكاية الأمازيغية خصائص تنبع من الظروف التي ولدتها وتمثل في: تدافع الخير والشر فتعالج الثنائية الوجودية الخير والشر، وذلك بالاشتغال على الرموز والعلامات، حيث ينتصر الخير على الشر في كثير من الحكايات كحكاية "لونجا د هامزا"، كما تتداخل فيها قيم إنسانية مشتركة كالكرم والايثار وحسن المعاملة والشجاعة والاقدام، والتعرض للصفات الذميمة كالغدر والكذب والنفاق والقسوة بكثير من التوجس، هيمنة أجواء الغرابة والخوف والهلع على مضامينها، وذلك بسبب تداخل المألوف مع الغريب، كما تعطي القصة الأمازيغية صورة سلبية عن المرأة فهي غالبا رمز الشر والخديعة والقسوة، أما الرجل فهو بخلاف ذلك، له صورة ايجابية دوما فهو المنقذ والفرار والبطل⁽¹⁾.

أما في الوقت الحاضر اندثر أسلوب القص، فلم يعد للحكاية الأمازيغية أو غيرها وقت تقص فيها، ولم تعد لها أهمية عند العائلات كما كانت في السابق وهذا من آثار العولمة والانفتاح على الثقافات المتنوعة

2.4. الشعر: الأهازيج والغناء:

أشعار العرس في سوق أهراس تحمل تنوعا شديدا، وما زالت بعض العجائز اليوم تتفنن في إلقاء مقطوعات غنائية باللهجة الشاوية تدور موضوعاتها حول الحب باستعمال رمزية الأرض والوطن والانتماء، أضف إلى ذلك أغاني الرّحابة التي لعبت دورا هاما في الاعلاء من حماسية المجاهدين أيام ثورة التحرير رغم أن موضوعاتها عامة ولا تتصل مباشرة بموضوعات الثورة

(1) <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=397421> نور الدين النوصيري: الحكاية الأمازيغية واشكالية توظيفها تربويا، الحوار

والاحتلال، وتميزت بالبساطة والتلقائية لأن مبدعها هم المجاهدون أنفسهم، ومن أشهر مؤلفي الأغنية الشاوية ومغنيها عيسي جرموني الذي يلقب بعميد الأغنية الشاوية، وبقار حدة وهي من أبناء مدينة سوق أهراس.

وقد ارتبطت الأغنية الشاوية بآلات موسيقية محددة وهي (القصبة) الناي و (البندير) الدف إذ يبدأ الفنان أغنيته بموال مرفق بألة القصبة التي تحاكي تماما كلمات الأغنية، وقبل أن يسترسل الفنان في الأداء يبدأ البندير ليضفي على الأغنية خفة وإيقاعات متزنة⁽¹⁾، وكتبت الأغنية الشاوية باللغتين الأمازيغية والعربية أوصلها مبدعوها إلى مساح عالمية، ومازالت الموسيقى الشاوية إلى اليوم تعُي بها الحفلات والأعراس والمناسبات.

وهناك أهازيج مشهورة ترددها المرأة الشاوية لرضيعها حتى ينام وتتمحور حول الأرض والعائلة منها أغنية قوق أمي قوق، وكلمة قوق في اللهجة الشاوية تستعمل لتدليل الصغار وتنطق جيم مصرية مثلها مثل كلمة أرقاز وهو حرف اصيل في اللغة الامازيغية وليس اصله قاف ومن كلماتها:

قوق أمي قوق أذسغ ثيفولا وذيغث غلولا بالدُوح يتيلولا قوق أمي قوق، قوق أمي قوق أتالي غَر وَذَرار فو غُبول أوسار ماني نَلَا زيك نَتِيرار قوق أمي قوق. وترجمتها هي: نم يا ابني نم سأشترى حبالا وأصنع لك أرجوحة كمهدك المتأرجح، نم يا ابني نم، نركب الحمار المسن ونذهب للجبل حين كنا نلعب هناك من زمن.

3.4. الفروسية:

من الفنون التي ارتبطت بمنطقة سوق أهراس ارتباطا بارزا منذ القدم، حيث تميز هذا الفن بتقاليد عريقة خاصة ما تعلق بتجهيزاتها كإعداد لوازمها كالسرج، اللجام وما يلبسه الفارس، ولا تعد الفروسية عند الكثيرين من أبناء المنطقة مظهرا من مظاهر الاحتفال والفانتازيا فحسب بل هي جزء لا يتجزأ من نمط حياتهم.

يهتم الخيالة بالحصان البربري (البارب) من حيث زينته فالسرج المطرز بخيوط ذهبية هو كسوته وكذلك بطعامه، ويقدم الفرسان عروضاً فنية خلال الحفلات المحلية والأعراس مرتدين حلة خاصة تضيف عليهم مظهر الهيبة والشهامة، ويبقى للفروسية في مدينة سوق أهراس هيبتها وحبها من طرف الجميع فلا يكاد يخلو عرس من الفرسان وهم يتباهون بالبنادق وطلقات البارود.

5. اللهجة الامازيغية بسوق أهراس:

تعد اللغة الأمازيغية أساس الهوية عند الأمازيغ والحديث بلغة غيرها عند بعضهم منقصة وتنكر للأصل الأمازيغي، وبناء على أهمية مكون اللغة في الهوية الأمازيغية وجب توضيح من أين ينحدر سكان المنطقة؟ وأي لهجة يتكلمون؟ وماهي درجة حفاظهم عليها؟

1.5. أصل السكان:

ينحدر أغلب سكان سوق أهراس من أصول بربرية، فقد انتشرت بها قبائل نوميدية منذ فترات غابرة من تاريخ المنطقة

(1) _ <http://www.hayatweb.com/article/172356> محمد حاجي: الموسيقى الشاوية صوت جبال الأوراس.

حيث استقرت بها منذ القدم قبيلة بابيرية ذات الأصول البربرية وقبيلة كيرينا التي تعرف بقبيلة الأباطرة⁽¹⁾. أما اليوم فينتشر بها قبيلة الحرا كته ببطونها، وقبائل المامشة، وعرش ولاد خيار، وعرش المحاتلة وعرش العمامرة، وعرش سلاوة لخرارب، وعرش السفينية وغيرهم من الأعراش التي تنتهي إلى فرع زناته⁽²⁾ من أكبر القبائل البربرية في شمال إفريقيا

2.5. لغتهم:

بما أن المنطقة تنتهي إلى الأوراس الجغرافي فهي من الطبيعي أن تنتهي إلى الأوراس الثقافي الذي يمتد على لغتين: لغة زناته: وهي لغة الأواس الغربي تمتد من خنشلة إلى أم البواقي إلى غاية قسنطينة إلى كامل غرب الأوراس إلى غاية سطيف. لغة مازيغا: وهي ما يسمى المامشة حاليا، تمتد من القيروان داخل تونس إلى صفاقس لتحتوي جزءا كبيرا من تونس الجزء الجنوبي الوسطي والمركزي ثم الجزء الشرقي للجزائر إلى غاية خنشلة وعين البيضاء، فهاتين اللهجتين من أربعة عشر لهجة كبرى في الشمال الإفريقي يكونون اللهجة الشاوية واحدة من أبرز لهجات الشمال الإفريقي وهي زانتية الأصل⁽³⁾.

إذن فسكان سوق أهراس يتكلمون الشاوية إلى جانب العربية، فالبعض محافظون على اللهجة الأصلية الشاوية أم البعض الآخر فيعتبرون أنفسهم عربا وينفون عنهم الأصل الأمازيغي بحجة أنهم لا يتحدثون الأمازيغية يقول العربي عقون « فالمنطقة الشاوية تشهد استعرابا حثيثا وأكثر من ذلك اختزل العامة هناك الانتماء إلى الأصل الأمازيغي في اللغة توهم أن البربري هو من يتكلم الشاوية لا غير ظنا أن الوضع الذي هم فيه أرقى ولا يمكن أن تتراجع للوراء بعد أن حققت ذلك الرقي»⁽⁴⁾، حقيقة هذا ينطبق على أكثر الأعراش الشاوية في منطقة سوق أهراس، فالمنطقة خليط لغوي شاي-عربي فالأغلب تعرب لسانه لكن هناك شاوية محافظون على اللغة وهم قليل واكثرهم في كل من بلدية ترقالت⁽⁵⁾، أم العظام، مداوروش، المشروحة، وقليل من سدراته وفي بلديات المدينة كلها بنسب قليلة جدا «لا يزالون يستعملون اللغة الشاوية في حياتهم اليومية تميزا لهم عن الأمازيغ المستعربين الذين تخلوا نهائيا عن استعمالها منذ أجيال في ظروف تاريخية معينة، والملاحظ أن الشاوية المحافظين هم في الواقع مزدوجو اللغة فهم يتكلمون الشاوية إلى جانب العربية الشعبية بلهجاتها المختلفة»⁽⁶⁾.

(1) مداوروش المدينة الدرّة: مرجع سابق، ص 16.

(2) وهي على طبقتين الأولى التي عرفها العرب منذ دخولهم بلاد المغرب والمتمثلة في قبائل لواته وهوارة ونفوسة وجراوة؛ وهي قبائل بربرية صرفة أسلمت واستعربت بعض الشيء والطبقة الثانية فهي زناته المسلمة المستعربة تأثرت تأثرا عميقا بالعرب الهلاليين وهم المقصودون في هذا المقال لأن قبائل الشاوية يعدون من فروعهم «...وبجبال أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم ويقال وطن زناته» ينظر: ابن الأحرر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان. تحقيق: هاني سلامة، ط 1، بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 2001، ص 4، ص 5، ص 6.

(3) ساسي عابدي: مرجع سابق.

(4) العربي عقون: الامازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الاصول والهوية (التنوشي للنشر، المغرب، ط 1، 2010) ص 26 الهامش

(5) يرجع أصل التسمية إلى واحد من بنات ديهيا (الكاهنة) التي كلفتها بمواجهة الاحتلال الروماني لكن في منتصف المعركة وبداية قرب انهزامها من الجيش الروماني خافت وفضلت الهرب إلى هذه المنطقة وحتمت غابتها فعبرها أهل المنطقة بوصفها بالفتاة الهاربة وهي باللهجة الشاوية ثموتأرقالت) وأصبحت ترقالت.

(6) العربي عقون: مرجع سابق، ص 16 الهامش.

بالرغم استعراب الأمازيغي إلا أن لسانه يبقى مميز عن من استعرب قبله كعرب المشرق، ورغم أن الشعب الأمازيغي يمتاز بالمرونة بطبيعته في التعامل مع الثقافات الأجنبية - استعمالهم للغة الآخر في تعاملاتهم اليومية- فقد تمكن من الاحتفاظ بتقاليده وفنونه إلى حد كبير وبلغته بشكل نسبي يقول العربي عقون «هي معجزة أن تنجو الأمازيغية من عادات الزمن وتصل إلى القرن الواحد والعشرين رغم عدم وجود سند من الدين أو من السياسة يدعمها»⁽¹⁾، المعجزة هي اعتزاز الأمازيغي الحقيقي بلغته كاعتزازه بأرضه ينافح عنها ويورثها جيلا بعد جيل، -مع قلة المتحدثين باللهجة الشاوية في هذا الجيل- وهذا مؤشر قوي على استمرارها والحفاظ عليها كعامل أساسي من مكونات الهوية الجزائرية.

خاتمة:

بالرغم من تأثير الإسلام على المنطقة وتغلب اللسان العربي على اللسان الأمازيغي، ورغم ظهور عادات دخيلة على الموروث الأمازيغي فيها بسبب تأثير عوامل الحداثة والعولمة، إلا أنها منذ عقود طويلة ما تزال تحافظ على أغلب عاداتها وتقاليدها الأمازيغية كما هي رغم منافاة بعضها لتعاليم الإسلام كتقاليد المأتم، وقد كيفت بعض العادات مع الدين بالمحافظة على الموروث الأمازيغي بصيغة إسلامية مثل تحويل ذبح الخراف للمولود الذكر إلى ما يعرف بالعقيقة في الإسلام، فلإبقاء على هذا الموروث والمحافظة عليه وجب نقله للأجيال القادمة عن طريق البحث فيه وتوثيقه، خاصة وأن من يعي هذا الموروث في صدره هم كبار السن وأصحاب الذاكرة القوية وهم قلة، فلن يسلم هذا الموروث من الضياع إلا بتوثيقه.

قائمة المراجع:

- (1) <https://www.youtube.com/watch?v=84qutU2Sdcs> سامي عابدي، سليمان بخليلي: حوار عن: الفرق بين القبائل والشاوية سنة 2006.
- (2) <https://www.youtube.com/watch?v=n4l3n4DONxo> محند ارزقي فراد: محاضرة ملتقى الأنوار للفكر الحر 2015.
- (3) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للنشر والطباعة، د.ب، 1989.
- (4) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.س .
- (5) أبو البقاء الكفوي: الكليات، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط2، 1998.
- (6) بخوش أحمد: التراث الثقافي الشاوي بين الثابت والمتغير دراسة لبعض العادات والتقاليد لسنة 1935-1936، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، عدد خاص الملتقى الدولي الاول حولة الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري.
- (7) جمال ورتي: طغاست مهد الحضارات، مجلة سوق أهراس محروسة الأسود، تاريخ وأفاق، منشورات cds 2012، عدد خاص 2012.

(1) _ المرجع نفسه: ص 18 الهامش.

- (8) الراغب الاصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، د.ط، دار القلم، 2009.
- (9) طيب تيزيني: من التراث إلى الثورة، دار ابن خلدون، بيروت، ط2، 1978.
- (10) العربي عقون: الامازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصول والهوية، التنوخي للنشر، المغرب، ط1، 2010.
- (11) فريدريك معتوق: مدخل إلى سيكيولوجيا التراث، دار الحداثة، بيروت، ط1، د.س.
- (12) لوكيوسابليوس: الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر 2001 .
- (13) محمد حاجي: الموسيقى الشاوية صوت جبال الاوراس <http://www.hayatweb.com/article/172356>
- (14) محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 1991.
- (15) مداوروش المدينة الدرة، مجلة عن مديرية السياحة والصناعات التقليدية لولاية سوق أهراس، 2011.
- (16) منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة: التراث الثقافي غير المادي.
- (17) نور الدين النوصيري: الحكاية الأمازيغية واشكالها توظيفها تربويا، الحوار المتمدن-العدد: 4344 - 2014 / 1 / 24 - <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=39742118:40>
- (18) يوسف محمد عبد الله: الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته، جامعة صنعاء.



دور المراكز البحثية في إثراء المعرفة والبحث العلمي

دراسة ميدانية على عينة من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة سرت

The role of research centers in enriching knowledge and scientific research
A field study on a sample of faculty members at the Faculty of Arts, Sirte University

د. لطيفة عمر البرق/جامعة سرت، ليبيا

D.Latefa Omar Albarg

ملخص

يعتبر البحث العلمي من أهم النشاطات التي يمارسها العقل البشري، فمن المعروف أن تقدم الأمم ونهضتها الحضارية مرهونة برعايتها واهتمامها به وبتطبيقاته، ومن هنا، فإن هذه الأهمية للبحث العلمي تتطلب الاهتمام بمؤسساته وأدواته ومن أهمها مؤسسات ومراكز البحث العلمي، لما لها من دور أساسي في عملية النهضة والتنمية الشاملة والفاعلة، ونسأل في هذه الورقة عن أهم أهداف المراكز البحثية؟ وإلى أي مدى تمكنت مراكز الأبحاث من إنتاج دراسات نوعية لأهم القضايا الراهنة؟ وما مدى قدرتها على إيجاد حلول للالتزامات التي يعرفها المجتمع؟

الكلمات المفتاحية: البحث العلمي- المراكز البحثية – تطوير مراكز الأبحاث- جامعة سرت.

Abstract:

Scientific research is considered one of the most important activities that the human mind engages in. It is known that the progress of nations and their civilized renaissance depends on their care and interest in it and its applications. Hence, this importance of scientific research requires attention to its institutions and tools, and among the most important institutions and centers of scientific research, because it has a fundamental role in the process Renaissance and comprehensive and effective development, and we ask in this paper about the most important goals of research centers? And to what extent were the research centers able to produce qualitative studies of the most important current issues? To what extent is it able to find solutions to the crises that society knows?

Key words: scientific research - research centers - development of research centers - University of Sirte.

تمهيد:

تعد مراكز البحث العلمي من أهم مصادر تطوير المعارف الإنسانية، فهي تحقق التنمية المستدامة، والتمايز المعرفي في المجالات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، فضلاً على أنها تولد الإبداع والابتكار، الذي يحقق الشراكة المجتمعية بجوانبها المادية، والإنسانية، وإمكانية من التقنيات، والإمكانات المتوافرة لخدمة المجتمع وحل مشكلاته، وإثراء المعرفة بأنماطها المختلفة.

50

لقد أصبح إنشاء المراكز البحثية أمراً في غاية الأهمية، وضرورة من ضروريات الحياة، فهي تعد من المرتكزات الأساسية لتطوير المجتمعات، والأمم والدول المتقدمة التي ترجع إليها في حل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية.

مشكلة البحث:

يعد وجود مراكز للبحث العلمي في أي دولة مؤشر على تقدم الحياة المعرفية والبناء المؤسسي فيها، بشرط أن تأخذ دورها في محيطها الذي تعمل فيه، فوجودها لوحده لا يعني قدرتها على التأثير، لذا هناك بعض الدول تنشط فيها هذه المؤسسات فتترك تأثيرها الواضح على المعرفة الإنسانية، ودول أخرى المؤسسات بها تكون هامشية وضعيفة ومحدودة التأثير. وينطلق هذا البحث من طبيعة المشكلات والمعوقات التي تعاني منها المراكز البحثية ودورها في تطوير المعرفة والبحث العلمي في كلية الآداب بجامعة سرت بحسب آراء أعضاء هيئة التدريس بها.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من منطلقين نظري وميداني فمن الجانب النظري يسعى البحث إلى رصد واقع ومعوقات البحث العلمي في المراكز البحثية وكيفية إزالتها أو التخفيف منها، أما من الجانب الميداني فيسعى البحث إلى معرفة وجود وواقع المراكز البحثية وطبيعة المعوقات التي تعيق عمل هذه المراكز أن وجدت من خلال استبيان آراء أعضاء هيئة التدريس بالكلية فيها بهدف وضع الحلول والمقترحات المناسبة لها.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى:

- 1- معرفة الوضع الراهن للمراكز البحثية ودورها في تطوير الجامعة.
- 2- محاولة وضع مجموعة مقترحات المناسبة لعلاج المشكلات التي تواجه نشاط المراكز البحثية داخل الجامعة.
- 3- النهوض بواقع البحث العلمي لخدمة المعرفة والتقدم العلمي.

تساؤلات البحث:

ينطلق البحث من تساؤلات عدة وهي:

- 1- هل توجد مراكز للبحث العلمي داخل كلية الآداب بجامعة سرت؟
- 2- ما واقع البحث العلمي والمراكز البحثية في جامعة سرت؟
- 3- ما المعوقات التي تعيق القائمين بالبحث العلمي في المراكز البحثية؟
- 4- كيف يمكن النهوض بمراكز البحث العلمي في جامعة سرت؟

مصطلحات ومفاهيم البحث:

1- المراكز البحثية: "هي تجمع وتنظيم لنخبة متميزة ومتخصصة من الباحثين تعكف على دراسة معمقة ومستفيضة لتقدم استشارات أو سيناريوهات مستقبلية يمكن أن تساعد أصحاب القرارات في تعديل أو رسم سياستهم بناء على هذه المقترحات في مجالات مختلفة¹.

تعرف إجرائياً: بأنها مراكز تقوم بإجراء البحوث العلمية بناءً على احتياجات المجتمع سواء أكان بمبادرة منها لوضع حلول لمشكلة يعاني منها قطاع معين أم بناءً على طلب قطاع ما لأجل التوصل إلى حلول ووضع مقترحات.

2- البحث العلمي: "هو مجموعة الجهود المنظمة التي يقوم بها الإنسان مستخدماً الأسلوب العلمي والقواعد العلمية لزيادة سيطرته على بيئته واكتشاف بئته وتحديد العلاقات بين ظواهرها"².

ويعرف إجرائياً: بأنه عملية بحثية تتبع الطرق العلمية لدراسة المشكلات التي يواجهها المجتمع وإيجاد الحلول المناسبة لها.

3- جامعة سرت:

هي مؤسسة مهمة تأسست عام 1989م كفرع من جامعة قاريونس في بنغازي، ثم انفصلت عنها بصدور قرار اللجنة الشعبية العامة سابقاً رقم (745) لسنة 1991م، والذي اعتمدت بموجبه تحت مسمى "جامعة التحدي" ومقرها مدينة سرت، ثم غير الاسم في عام 2010م إلى جامعة سرت. وتعتبر جامعة سرت من أهم المعالم الموجودة داخل مدينة سرت، وتأخذ الجامعة مكاناً مميزاً داخل المدينة حيث تقع عند المدخل الجنوبي للمدينة³.

ماهية المراكز البحثية وأهدافها:

تعرف المراكز البحثية بأنها "تلك المعاهد المنظمة التي يتحدد هدفها بإجراء أبحاث مركزية ومكثفة، وتعمل على تقديم الحلول والمقترحات للمشكلات وبخاصة في المجالات التكنولوجية والاجتماعية والسياسية والاستراتيجية، أو ما يتعلق بالسلح". وترى موسوعة (ويكيبيديا) بأنها "المنظمات أو المؤسسات التي تتولى إعداد الأبحاث والدراسات والتحليلات لمسائل عامة ومهمة في الوقت نفسه"⁴.

أما هوارد. ج. وياردا "فيصنفها بأنها عبارة عن "مراكز للبحث والتعليم، ولا تشبه الجامعات أو الكليات، ولا تقدم مساقات دراسية، بل هي مؤسسات غير ربحية، وإن كانت تملك منتجاً وهو الأبحاث. وهدفها الرئيس البحث في السياسات العامة للدولة،

¹- عصام زيدان: المراكز البحثية الأهداف الطموحة والحلقات المقفودة، مقال منشور على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت) www.siironline.org

²- عبد الرحمن عدس وآخرون: البحث العلمي، مفهومه أدواته أساليبه، دار نائل للنشر، عمان، 1989م، ص 42.

³- دليل كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، جامعة سرت، 2014م، ص 5

⁴- أحمد فرحات: مراكز الفكر والبحوث في العالم بين سلطة المعرفة وسلطة السياسة، مقال منشور على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت) على الموقع الإلكتروني www.main.omandaily.om

ولها تأثير فعال في مناقشة تلك السياسات. وهي تقديم معرفة معمقة للمسائل، وهدفها الأساسي هو توفير البحوث والدراسات المتعلقة بالمجتمع والسياسات العامة، والتأثير في القضايا الساخنة التي تهم الناس¹. وهي "جامعات بلا طلاب، أبحاثها الأكاديمية عالية الجودة، هدفها بيان العواقب المحتملة لإتباع مجموعة من الخيارات في السياسة الخارجية"².

وتتمثل أهداف المراكز البحثية في الآتي:

1- إنشاء وتطوير البنية التحتية للبحث العلمي بما يفي بمتطلبات البحث العلمي، ويسهم في التطوير والتحسين المستمر لجهود البحث العلمي، وتوطين التقنية الحديثة والبيئة المناسبة. ويتحقق هذا الهدف من خلال الآتي:

- توفير التقنيات الحديثة والأجهزة المتطورة لدعم مجالات البحث العلمي.
- استقطاب الكوادر البشرية المتميزة لمساعدة الباحثين على تبادل الخبرات العلمية.
- توفير الكوادر الفنية لإدارة البنية التحتية للمراكز البحثية وصيانتها والمحافظة عليها.

2_ تشجيع البحث العلمي، وتنمية ملكة الإبداع والابتكار لدى الكوادر الأكاديمية بها، وتحفيزهم على إجراء البحوث المتميزة لخدمة المجتمع.

ويتحقق هذا الهدف من خلال الأهداف الفرعية الآتي:

- رفع قدرات ومهارات البحث العلمي لدى أعضاء هيئة التدريس.
- دعم البحوث العلمية والدراسات التطويرية والتطبيقية.
- نشر أبحاث المركز العلمية محلياً وإقليمياً وعالمياً.
- إقامة المؤتمرات وورش العمل لمشاركة الباحثين آخر ما توصلت إليه أبحاثهم العلمية.
- دعم وتحفيز التأليف العلمي وترجمة الكتب العالمية.

3- تحديد موضوعات واستراتيجيات المركز ومجالات البحث العلمي في ضوء الاحتياجات التنموية للمجتمع، وربطها بالمؤسسات بما يسهم في تطويرها وحل مشكلاتها.

ويتحقق هذا الهدف من خلال الأهداف الفرعية الآتية:

- إنشاء المجموعات البحثية وتحديد توجهاتها بما يلائم الأهداف والاستراتيجيات المرسومة.
- تنمية العمل البحثي المشترك في مجموعات تضم جميع أقسام الكليات في مجالات محددة بما يخدم توجهات المجتمع الحالية والمستقبلية.

¹ محمد السيد باغي: واقع البحث العلمي الجامعي في الوطن العربي وأفاق تطوره لخدمة التنمية الإدارية في القطاع الصناعي ، بحوث مؤتمر البحث العلمي في الوطن العربي ومشكلات النشر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر، 2006م، ص591.

² محمد عطية وآخرون: دليل المكاتب الاستشارية والمراكز والوحدات البحثية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، دائرة البحث والتطوير، 2011م، ص78.

• تنمية ودعم الشراكة الفعالة مع مختلف قطاعات المجتمع وربطها بالمركز.¹

أهمية ودور المراكز البحثية في تطوير العلم:

ترجع أهمية مراكز الأبحاث إلى كون كثيراً من مشكلات العالم المعاصر لا يقع الجزء الأكبر من حلها ضمن نطاق مسؤولية عامة الناس أو نخبة التنفيذ المدنية والعسكرية، بل يقع ضمن مسؤولية المؤسسات النخبوية ذات التركيز المعرفي العالي، من أجل تحديد طبيعة المشكلات، وسبل علاجها، والتحرك برؤية واضحة نحو المستقبل، مع تذليل العقبات وتجاوز التحديات، وتأتي مراكز الأبحاث والدراسات في مقدمة هذه المؤسسات.

والذي يميز هذه المراكز عن غيرها هو دورها الريادي في بناء الدول والمجتمعات، والحاجة الماسة إليها مع تعقد قضايا الفكر والمعرفة، وبروز مظاهر التطرف، وتصاعد الأزمات والصراعات، وتشابك المصالح، وتعدد مصادر المعلومات في عالم يتجه إلى مزيد من التقارب في ظل تنامي حركة العولمة وتقدم مستوى التقنية، إذ يتحدث (جيمس ماك جين) أحد خبراء معهد بحوث السياسات في الولايات المتحدة عن أهمية المراكز البحثية فيقول "بأنها ليست فقط للتزويد بالمعلومات، وإنما يستعان بها لوضع وتقرير أجندة السياسات، أي أنها تقوم من خلال دراستها وأبحاثها في صنع القرار السياسي".²

وتمثل المراكز البحثية قناة اتصال غير مباشرة وغير رسمية بين صناع القرار في الدولة وبعض الأطراف الخارجية لمعرفة مواقفها وأطروحاتها وآرائها السياسية وطبيعة أدوارها واهتماماتها والاتجاهات الدولية السائدة من خلال المشاركة في أنشطة علمية مشتركة أو دعوة هذه الأطراف إلى الندوات والمؤتمرات التي تعقدتها المراكز البحثية، كما أنها تمثل مجسبات للاستشعار المبكر واستقراء المستقبل من خلال دورها في الاستشراف المستقبلي استناداً إلى قواعد علم المستقبلات لمساعدة صناع القرار على التخطيط الاستراتيجي للمستقبل.

وتأتي أهمية المراكز البحثية من خلال:

- 1- استخدام البحوث العلمية لخدمة القضايا التنموية.
- 2- تأهيل الكوادر المحلية عملياً كباحثين ومساعدين باحثين،
- 3- استقطاب النخبة من الباحثين من خلال رفع السمعة العالمية للجامعة.
- 4- جذب التمويل الخارجي للأبحاث من خلال تسويق الإمكانيات البحثية.
- 5- مد جسور التعاون مع المؤسسات المحلية والدولية على تشكيل عقود استشارية بحثية وخدمات فنية.³

¹- خالد العرداوي: تفعيل دور مراكز الأبحاث في صنع القرار السياسي، ورقة بحثية مقدمة في مؤتمر مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العراق، 2003م، ص 84.

²- سعيد عوض: معوقات ومشاكل البحث العلمي الإدارية والبيئية في الجامعات اليمنية من وجهة نظر عضو هيئة التدريس، بحوث مؤتمر البحث العلمي في الوطن العربي ومشكلات النشر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر 2006م، ص 373.

³- عادل عوض وآخر: البحث العلمي العربي وتحديات القرن القادم برنامج مقترح للاتصال والربط بين الجامعات العربية ومؤسسات التنمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الإمارات العربية المتحدة، 1998م، ص 42.

تاريخ ونشأة المراكز البحثية:

عند تتبع المسار التاريخي لمراكز الأبحاث والدراسات العلمية يلاحظ أن الباحثين يختلفون في تحديد البداية التاريخية لتأسيسها، فهناك من يحدد نشأتها الأولى مع تأسيس المعهد الملكي للدراسات الدفاعية في بريطانيا عام 1831م، وهناك من يربط نشأتها مع تأسيس الجمعية الفابية البريطانية التي تعنى بدراسة التغيرات الاجتماعية عام 1884م، وبصرف النظر عن البداية التاريخية لنشوء هذه المراكز، إلا أنه مع مطلع القرن العشرين ازدادت أعداد مراكز البحوث، ففي الولايات المتحدة تم أسس معهد كارنيغي للسلام الدولي عام 1910م، ثم معهد بروكغز في عام 1916م، ومعهد هوفر عام 1918م، ومؤسسة القرن عام 1919م، والمكتب الوطني لأبحاث الاقتصاد عام 1920م، ومعهد غالوب في عام 1920م، أما في بريطانيا فتأسس المعهد الملكي للشؤون الدولية عام 1920م، وفي فرنسا تم تأسيس المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية عام 1979م، وفي ألمانيا تم تأسيس الأكاديمية الألمانية للسلام عام 1931م واستمرت حركة تأسيس هذه المراكز بالتصاعد لاسيما خلال عقود الأربعينات والخمسينات والستينات من القرن الماضي، إذ تم في أمريكا في هذا الوقت تأسيس معهد انتربرايز عام 1943م، ومؤسسة رائد عام 1945م، ومعهد دراسات الشرق الأوسط عام 1948م، ومركز فض النزاعات عام 1956م، وفي لندن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية عام 1958م، وفي السويد معهد ستوكهولم لأبحاث السلام عام 1966م، وانتشرت ظاهرة تأسيس المراكز عبر الغرب ومنه إلى العالم حتى وصلت ذروتها في عام 1996م، بمعدل 150 مركزاً تم تأسيسها سنوياً.¹

قامت الدول العربية خلال العقود الستة المنصرمة بتكوين العديد من مراكز الأبحاث المستقلة أو التابعة للجامعات، التي تتولى القيام بالأنشطة البحثية في مختلف العلوم والمعارف، وتعد مراكز البحوث والدراسات التابعة لجامعة الدول العربية الذي أسس عام 1952م، أول مركز للبحوث في العالم العربي، ثم تبعه في التأسيس المركز القومي للبحوث بالقاهرة عام 1956م، تلاهما إنشاء مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية عام 1968م، ثم مركز دراسات الوحدة العربية عام 1975م، ومركز الإنماء العربي في طرابلس عام 1976م، ومنذ ذلك الحين تزايد إنشاء مراكز البحوث والدراسات إلى أن وصلت إلى أكثر من (600) مركز بحثي مقابل (1500) مركز في فرنسا، (1851) مركزاً في الولايات المتحدة، وتنوعت المجالات البحثية التي اشتغلت بها هذه المراكز إلى التاريخ، العلوم السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، والاجتماعية والأمنية.²

ويمكن رصد بداية المراكز البحثية غير الحكومية في ليبيا مع انتشار ظاهرة مؤسسات المجتمع المدني ما بعد 2011م، إذ لم يكن مسموحاً قبلها إنشاء مؤسسات مجتمع مدني دون موافقة أمنية تخضع لحسابات الولاءات السياسية، وبشكل مختلف عن التيار قلة من المجموعات اهتمت بإنشاء مراكز بحثية غير حكومية كمؤسسات مجتمع مدني، أو حتى كشركات خاصة في وقت انتشرت فيه الجمعيات الخيرية والعمل الإغاثي الأهلي، إذ لم تكن ثقافة المجتمع المدني متجذرة أساساً في المجتمع، فضلاً على أن يكون هناك تجدر لفكرة إنشاء المراكز البحثية كما هو موجود في العالم المتقدم، لذلك فإن عدد المراكز

¹ - خالد وليد محمود، مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر، بحث منشور على الموقع الإلكتروني للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. www.dohainstitute.org

² - حاتم مصطفى: واقع التعليم والبحث العلمي بعد 2011م، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر نحو تأسيس مركز اختراعات في منطقة شمال أفريقيا والبحر المتوسط، تحالف الأبحاث لشمال أفريقيا، 2014م، ص 45.

البحثية التي أنشئت في ليبيا عام 2011م، وحتى الآن يعد على الأصابع إذ بدأت نشأة هذه المراكز بشكل خجول وبعدها بسنوات، حتى وصلت للعدد الموجود حالياً وهو لا يتجاوز من 10-15 مركزاً بحثياً غير حكومي¹. على عكس المراكز البحثية غير الحكومية، فإن نشأة المراكز البحثية الحكومية كانت قديمة للغاية إذ يشير بعض الخبراء إلى أنها تعود لـ 40-50 سنة مضت، ومع الوقت أصبح عدد المراكز البحثية الحكومية في تزايد كبير حيث أن معظم القطاعات الحكومية تقريباً بها مراكز بحثية مرفقة بها مثل مركز بحوث الشؤون الاجتماعية، ومركز بحوث الطاقة المتجددة، ومعهد التخطيط الوطني، ومعهد البحوث الصناعية وغيره بالإضافة إلى وجود مراكز بحثية حكومية قائمة ومستقلة بذاتها لعل أشهرها مجلس التخطيط الوطني ومجلس التطوير الاقتصادي².

تصنيفات المراكز البحثية:

أولاً: من حيث التمويل

تنقسم المراكز البحثية من حيث التمويل إلى مراكز بحثية حكومية، مثل معهد البنك الدولي ومعهد دائرة بحوث الكونغرس في الولايات المتحدة، والدوائر الملكية المتحدة لدراسات الأمن التابع للاتحاد الأوروبي وغيرها. ومراكز بحثية أكاديمية، سواء كانت تابعة لجامعات أو تعتمد على جامعيين في عملها مثل معهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد، ومركز التنمية الدولي ومركز بيلفير للعلوم والشؤون الدولية التابعان لجامعة هارفارد، ومراكز بحثية خاصة سواء ارتبطت بتقديم النفع العام أو تقديم النفع للجهات التي أسستها كالشركات مثلاً وهذه كثيرة ومتنوعة.

ثانياً: من حيث الاتجاه السياسي أو الأيديولوجي

تنقسم إلى مراكز بحثية ليبرالية، ومراكز بحثية محافظة: دينية، قومية، اجتماعية، ومراكز بحثية يسارية. ومراكز بحثية مستقلة فكرياً.

ثالثاً: من حيث الاستقلالية

من أمثلتها مراكز بحثية مستقلة، ومراكز بحثية شبه مستقلة، ومراكز بحثية جامعية، ومراكز بحثية حزبية، مثل: مؤسسة (فريدريك ايبرت)، ومؤسسة (كونراد ديناور) في ألمانيا، مركز جيل البحث العلمي في الجزائر (www.jilrc.com)، ومركز الدراسات السياسية في فرنسا.

رابعاً: من حيث الارتباط الحكومي: تنقسم إلى: مراكز أبحاث حكومية، أي ترتبط بالحكومات إدارياً ومالياً، ومراكز أبحاث شبه حكومية، أي تكون مستقلة إدارياً عن الحكومات، ولكن الأخيرة تمثل مصدر من مصادر تمويلها مالياً. ومراكز أبحاث خاصة، والتي تستقل عن الحكومات إدارياً ومالياً، فتعتمد على نفسها في إدارة شؤونها.

خامساً: من حيث التخصص: توجد مراكز متخصصة بمجال معرفي معين مثل: مؤسسة (رانند) الأمريكية التي تركز في دراساتها على القضايا ذات الطبيعة العسكرية والمخابراتية والاستراتيجية، ومعهد أمريكي انتربرايز ذي الميول الاقتصادية، ومكتب المحاسبة العامة التابع للكونغرس.

¹- احمد حسين الرفاعي: مناهج البحث العلمي تطبيقات إدارية واقتصادية، ط 6، عمان، الأردن، 2009م، ص 21.

²- محمد الصفدي: البحث العلمي والتنمية الإدارية في الوطن العربي الواقع والتطلعات المستقبلية، بحوث مؤتمر البحث العلمي في الوطن العربي ومشكلات النشر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر 2006م، ص 305

سادسا: من حيث النطاق الجغرافي: وتنقسم إلى: مراكز تعنى بمنطقة جغرافية محددة كدولة ما أو قارة ما مثل مركز أبحاث البصرة والخليج العربي، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى وغيرها.¹

و وقع البحث العلمي والمراكز البحثية:

يتسم واقع البحث العلمي في ليبيا بالضعف والتدني إذ يحتل مرتبة متأخرة على الصعيد العربي وفق المؤشرات المستخدمة في قياس مدى تقدم الدول في مجال البحث العلمي والمراكز البحثية، مثل الإنفاق على البحث العلمي وعدد براءات الاختراع والنشر العلمي المحكم، مما يدل على وجود صعوبات ومعوقات محلية تعيق الباحث وتحد من إنتاجه العلمي، وتتمثل مدخلات البحث العلمي في جانب مالي يتعلق بحجم الإنفاق على البحث العلمي والتطوير، وجانب يرتبط بالموارد البشرية متمثل بعدد الباحثين والتقنيين المشتغلين في مجالات البحث العلمي والتطوير التكنولوجي، كما يشكل مؤشر الإنفاق أحد المؤشرات لقياس فعالية عمليات البحث العلمي والتطوير، ويلاحظ من بيانات الجدول رقم (1) السابق تعدد ليبيا من أقل الدول في العالم العربي على الاهتمام بالبحث العلمي والمراكز البحثية، فمن خلال إحصائية عدد المقالات العلمية المنشورة في دوريات عالمية لعام 2011م، بلغت 18 بحث منشور فقط، وهذا يرجع إلى قلة الإنفاق على البحث العلمي وإلى انخفاض عدد الباحثين في مراكز الأبحاث التابعة للجامعات أو المراكز البحثية المستقلة.²

مقترحات لتطوير مراكز البحث العلمي:

- (1) أهمية تنمية وترسيخ الوعي بأهمية البحث العلمي، ومراكز المعلومات لدى كافة أفراد المجتمع، وبيان دورها الكبير في دعم التنمية الشاملة في كافة المجالات: الاقتصادية، والاجتماعية، والتعليمية، والثقافية.
- (2) توفير الميزانيات اللازمة لهذه المراكز العلمية، والإنفاق عليها بسخاء أسوة بما تنفقه الدول المتقدمة في هذا المجال.
- (3) ضرورة تحسين وضع دخول الباحثين، وخصوصاً في المجالات العلمية ذات الدعم والتأثير القوي في التنمية والتطوير، ووضع الحوافر المادية المناسبة لهم لتشجيعهم، وتحفيزهم لمزيد من العطاءات المفيدة.
- (4) الحرص التام على توافر التجهيزات، والوسائل العلمية الجيدة، والمتطورة في مراكز البحوث، والمعلومات، والعناية بإدخال كل التقنيات الحديثة المساعدة في تسهيل مهماتها.
- (5) أهمية إظهار الشفافية، والوضوح التام، والتحرر من قيود سرية المعلومات، وتسهيل إمكانية الوصول إلى البيانات والإحصاءات المطلوبة باعتبار أن ما سيتم إنجازه هو لخدمة المجتمع وتقدمه.
- (6) ضرورة أن يكون هناك تواصل مستمر مع المراكز البحثية، ومراكز المعلومات في الدول المتقدمة، وعمل الاتفاقات اللازمة حتى يتم الاستفادة من الأفكار، وتبادل المعلومات التي تخدم حاجات المجتمعات الإسلامية.
- (7) العناية بإعطاء الأولوية في المرحلة الأولى إلى إنشاء مراكز علمية في الكيمياء، والفيزياء، والتكنولوجيا، وكافة العلوم العلمية الأساسية المهمة للتطور والرفق بالمجتمع.

¹ - خالد وليد محمود: مراكز البحث في الوطن العربي، الإطار المفاهيمي، الأدوار، التحديات والمستقبل، مركز نماء للبحوث والدراسات بيروت، 2003م، ص 25.

² - نزار قنوع، وآخرون: البحث العلمي في الوطن العربي واقعه ودوره في نقل التكنولوجيا، مجلة تشرين للبحوث والدراسات التطبيقية، المجلد 27، العدد 4، سوريا، 2005م، ص 86.

الإجراءات المنهجية:

يتناول هذا الجزء من البحث الإجراءات المنهجية المتبعة كنوع الدراسة ومنهجها، وأداة جمع البيانات الميدانية، والأساليب الإحصائية المتبعة في تحليل البيانات.

(1) منهج الدراسة:

اعتمد في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه المنهج الملائم لطبيعة البحث، حيث يركز هذا المنهج على توصيف الخصائص المميزة للظاهرة، ويوضح أبعادها لمعرفة دور المراكز البحثية في تطوير البحث العلمي في جامعة سرت باعتبارها مكان الدراسة.

(2) مصادر جمع البيانات:

اعتمدت هذا البحث على استمارة الاستبيان لجمع البيانات من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب، وتم عرضها على مجموعة من المحكمين المتخصصين، لتقييم الاستبيان من ناحية ملائمة أسئلته لتساؤلات البحث، وارتباطها بالأهداف، وقد تم التعديل بناء على تعليقاتهم في بعض فقرات الاستبيان، أما معامل الثبات فاستخدمنا معامل (كرونباخ) وقيمته 75%.

(3) مجالات الدراسة:

المجال المكاني: كلية الآداب جامعة سرت.

المجال البشري: ويتمثل في عينة عشوائية من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة سرت.

(4) مجتمع الدراسة وعينته:

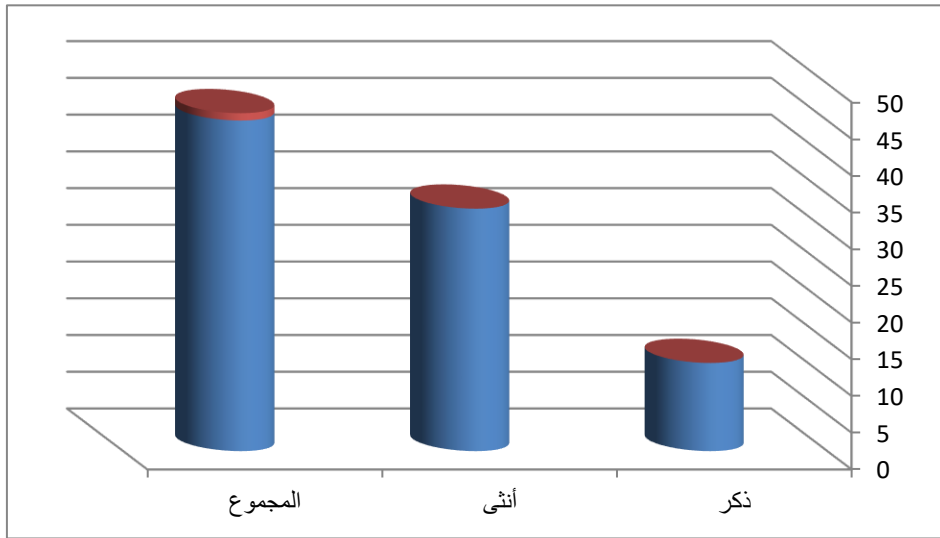
تمثل مجتمع البحث في عينة عشوائية من أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة سرت البالغ عددهم (112) عضو هيئة تدريس)، بلغ عددهم (45) مفردة، وقد تم اختيارها من الأقسام العلمية لكلية الآداب.

الجدول رقم (1) عدد أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب على حسب الأقسام

| النسبة | عدد العينة | عدد الأعضاء بالقسم | القسم |
|--------|------------|--------------------|--------------------|
| 0.04 | 2 | 4 | القسم العام |
| 0.2 | 9 | 21 | الاجتماع |
| 0.18 | 8 | 17 | التاريخ |
| 0.09 | 4 | 13 | الجغرافيا |
| 0.18 | 8 | 19 | اللغة العربية |
| 0.18 | 8 | 23 | اللغة الإنجليزية |
| 0.04 | 2 | 6 | التفسير |
| 0.02 | 1 | 3 | المكتبات |
| 0.07 | 3 | 6 | الدراسات الإسلامية |
| 100 | 45 | 112 | المجموع |

الجدول (2): توزيع المبحوثين حسب النوع

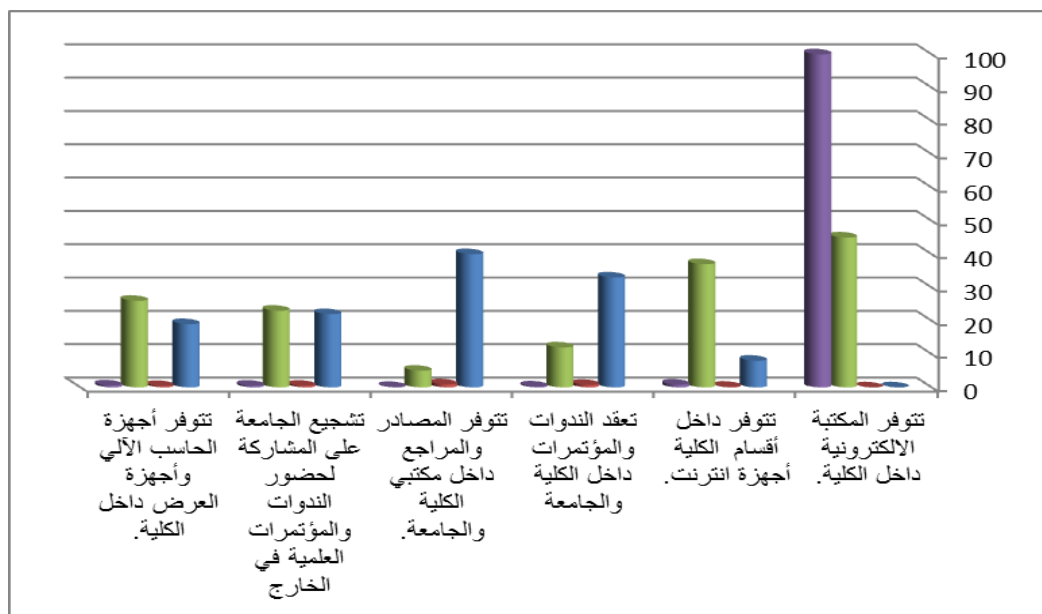
| النوع | التكرار | النسبة |
|---------|---------|--------|
| ذكر | 12 | 0.27 |
| أنثى | 33 | 0.73 |
| المجموع | 45 | 100 |



تبين من خلال الجدول رقم (2) توزيع المبحوثين حسب النوع حيث تبين أن نسبة الإناث في أقسام الكلية أعلى من نسبة الذكور ، فنسبة الإناث 0.73% ، ونسبة الذكور 0.27% ، ويرجع ذلك إلى أن عدد أعضاء هيئة التدريس من الإناث في أقسام الكلية أكثر من الأعضاء الذكور.

جدول (3) : إجابات أفراد العينة عن مدى توفر أدوات البحث العلمي داخل الكلية والجامعة

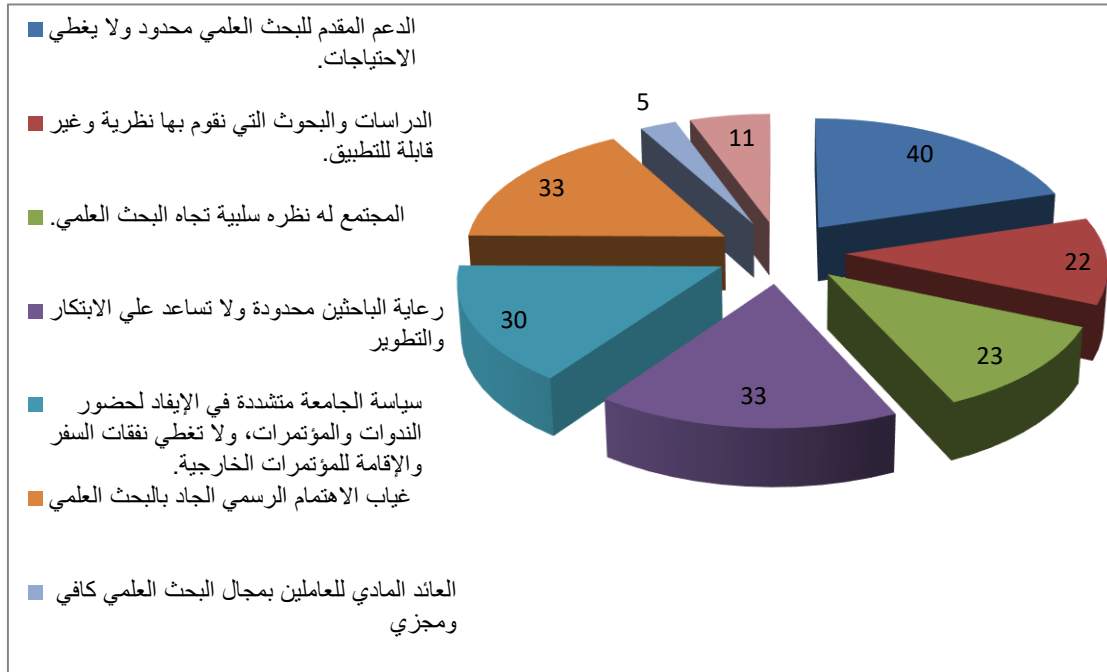
| النسبة | المجموع | لا | | نعم | | العبارات |
|--------|---------|--------|-------|--------|-------|---|
| | | النسبة | العدد | النسبة | العدد | |
| 100 | 45 | 100 | 45 | 0 | 0 | تتوفر المكتبة الالكترونية داخل الكلية. |
| 100 | 45 | 0.82 | 37 | 0.18 | 8 | تتوفر داخل أقسام الكلية أجهزة انترنت. |
| 100 | 45 | 0.27 | 12 | 0.73 | 33 | تعقد الندوات والمؤتمرات داخل الكلية والجامعة |
| 100 | 45 | 0.11 | 5 | 0.89 | 40 | تتوفر المصادر داخل مكتبي الكلية والجامعة. |
| 100 | 45 | 0.51 | 23 | 0.49 | 22 | تشجيع الجامعة على المشاركة لحضور الندوات والمؤتمرات العلمية في الخارج |
| 100 | 45 | 0.58 | 26 | 0.42 | 19 | تتوفر أجهزة الحاسب الآلي وأجهزة العرض داخل الكلية. |



من خلال البيانات الواردة في الجدول والشكل (3) يظهر أن نسبة الإجابات التي أفادت بعدم توفر المكتبات الإلكترونية داخل الكلية 100%، وبلغت نسبة من أجابوا بتوفر أجهزة إنترنت داخل الأقسام العلمية بالكلية، وبلغت نسبة الذين أفادوا بوجود انعقادات للمؤتمرات والندوات داخل الكلية والجامعة، وبلغت نسبة من أفادوا بتوفر المصادر والمراجع داخل مكتبة الكلية والجامعة 89%، في حين شكلت نسبة ممن أجابوا (بلا) على تشجيع الجامعة على حضور المؤتمرات والندوات الخارجية بنسبة 51%، والذين أفادوا بتوفر أجهزة الحاسب الآلي وأجهزة العرض المختلفة داخل الكلية 58%، وهذا يدل على ضعف البحث العلمي داخل الكلية نتيجة لعدم توفر الإمكانيات اللازمة داخل الكلية لإنجازه.

جدول (4): توزيع آراء المبحوثين حول واقع البحث العلمي في المراكز البحثية

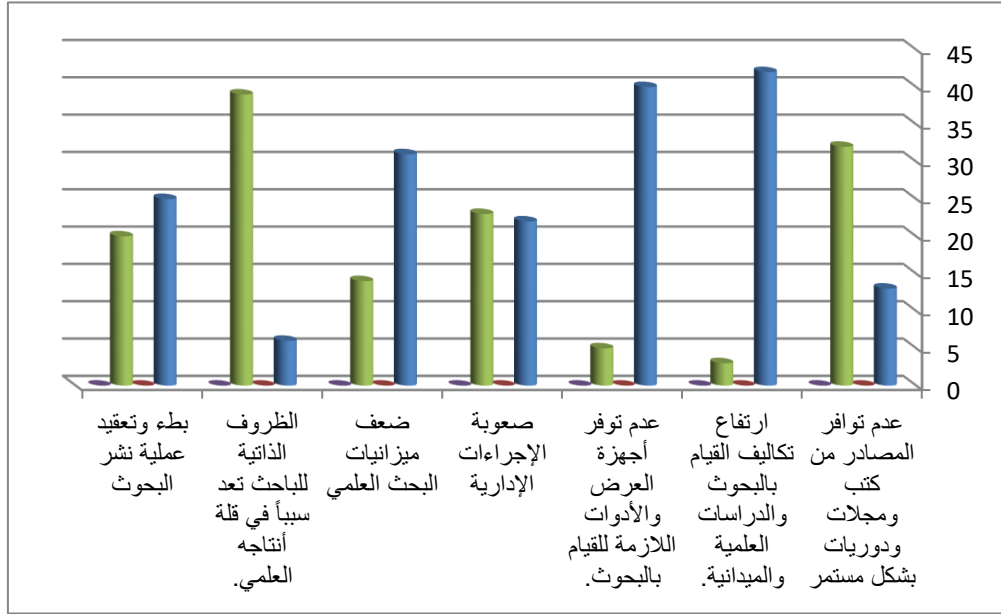
| المجموع | لا | | نعم | | العبارات | |
|---------|--------|-------|-----|-------|----------|---|
| | النسبة | العدد | % | العدد | | |
| 100 | 45 | 0.11 | 5 | 0.89 | 40 | الدعم المقدم للبحث العلمي محدود ولا يغطي احتياجات البحث |
| 100 | 45 | 0.51 | 23 | 0.49 | 22 | الدراسات والبحوث التي تقوم بها نظرية وغير قابلة للتطبيق. |
| 100 | 45 | 0.49 | 22 | 0.51 | 23 | المجتمع له نظره سلبية اتجاه البحث العلمي. |
| 100 | 45 | 0.27 | 12 | 0.73 | 33 | رعاية الباحثين محدودة ولا تساعد علي الابتكار والتطوير |
| 100 | 45 | 0.33 | 15 | 0.67 | 30 | سياسة الجامعة إزاء الإيفاد لحضور الندوات والمؤتمرات متشددة ولا تغطي نفقات السفر والإقامة. |
| 100 | 45 | 0.27 | 12 | 0.73 | 33 | لا يوجد اهتمام جاد بالبحث العلمي |
| 100 | 45 | 0.89 | 40 | 0.11 | 5 | العائد المادي للعاملين بمجال البحث العلمي كافٍ ومجزى |
| 100 | 45 | 0.76 | 34 | 0.24 | 11 | هناك انخفاض في المستوى العلمي لأعضاء هيئة التدريس الجدد |



تشير نتائج الجدول والشكل (4) إلى واقع البحث العلمي في الجامعات والمراكز البحثية حيث تشير بيانات الجدول إلى أن الدعم المقدم للباحثين لإجراء البحوث ضعيف جدا وقد يكون معدوماً ولا يغطي احتياجات البحث حيث بلغت نسبته 0.89%، يلما فقررة أن رعاية الباحثين لا تشجع على الابتكار والتطوير، وعدم الاهتمام الجاد بالبحث العلمي جاءت بنسب متساوية حيث بلغت 0.73%، وهكذا جاءت نسب الفقرات متفاوتة حيث تؤكد كلها على عدم الاهتمام بالبحوث والدراسات وعدم رعايتها وتقديم الدعم اللازم لها.

الجدول (5): توزيع آراء أفراد العينة حول أهم المعوقات التي تواجه البحوث العلمي

| المجموع | لا | | نعم | | العبارات |
|---------|--------|-------|--------|-------|--|
| | النسبة | العدد | النسبة | العدد | |
| 100 | 0.71 | 32 | 0.29 | 13 | عدم توافر المصادر من كتب ومجلات ودوريات بشكل مستمر |
| 100 | 0.07 | 3 | 0.93 | 42 | ارتفاع تكاليف القيام بالبحوث والدراسات العلمية والميدانية. |
| 100 | 0.11 | 5 | 0.89 | 40 | عدم توفر أجهزة العرض والأدوات اللازمة للقيام بالبحوث. |
| 100 | 0.51 | 23 | 0.49 | 22 | صعوبة الإجراءات الإدارية |
| 100 | 0.31 | 14 | 0.67 | 31 | ضعف ميزانيات البحث العلمي |
| 100 | 0.87 | 39 | 0.13 | 6 | الظروف الذاتية للباحث تعد سبباً في قلة إنتاجه العلمي. |
| 100 | 0.44 | 20 | 0.56 | 25 | بطء وتعقيد عملية نشر البحوث |



من خلال بيانات الواردة في الجدول والشكل (5) ان ارتفاع تكاليف القيام بالبحوث والدراسات العلمية والميدانية شكل نسبة بلغت 93%، يليها عدم توفر أجهزة العرض والأدوات لإجراء البحوث بنسبة 89%، وضعف ميزانيات البحث العلمي بنسبة 67%، في حين احتل بطء وتعقيد عملية نشر البحوث بنسبة 56%، تليها صعوبة الإجراءات بنسبة 49%، وعدم توفر المراجع من كتب ومجلات دورية بنسبة 29%، وأخيراً الظروف الذاتية للباحث تعد سبباً لقلّة إنتاجه البحثي بنسبة 13%.

النتائج :

يمكن تلخيص أهم النتائج التي توصل إليها البحث في الآتي :

- 1- لا يوجد اهتمام جاد بالبحث العلمي داخل الكلية والجامعة، ويتضح ذلك من خلال عدم إشراك الجامعات ومراكز البحث العلمي في وضع السياسات العامة ولا في مناقشتها، سيما أن البحوث التي أنجزت في السابق لا يستفاد منها في الجانب التطبيقي، بل تبقى على رفاف المكتبات.
- 2- هناك عوائق كثيرة تحول دون الانخراط الجاد في البحث العلمي أبرزها عدم الاستقرار الأمني والسياسي وقلة الحوافز المشجعة على الابتكار وعدم تطبيق نتائج البحوث وارتفاع تكاليف إجراء البحوث، ومستوى الدخل غير المناسب، فضلاً عن طبيعة البيئة السياسية والاجتماعية الطاردة للكفاءات العلمية.
- 3- عدم توفر الأجهزة وأدوات البحث العلمي، وهذا حال دون القيام بالدراسات والأبحاث اللازمة وبطء إجراءات النشر.
- 4- نقص في التمويل وقلة في وسائل البحث العلمي من مختبرات وتجهيزات ومكتبات ومراجع ومصادر للمعلومات وغيرها، الأمر الذي قلل من قدرة الباحثين على متابعة التطورات المحلية والعالمية.
- 5- لا توجد فرص لتدريب الباحثين حديثي التخرج ولا روابط مع الجامعات ومراكز البحث العلمي في الخارج، فضلاً عن وجود نقص في الفنيين وعمال الصيانة.

سابعاً: المقترحات والتوصيات

- 1- لا بد من تطوير المراكز البحثية من خلال تحديث المختبرات وتوفير الأجهزة والمعدات وإنشاء مركز للمعلومات وشبكات التواصل الإلكتروني في الجامعات وربطها بشبكات المعلومات العالمية، وشراء الكتب حديثة النشر والاشتراك في الدوريات العلمية لمواكبة المستجدات في مجال البحث العلمي.
- 2- زيادة المخصصات المالية لدعم عملية نشر البحوث العلمية مما يستلزم زيادة الإنفاق على البحث والتطوير من خلال تخصيص ميزانية للبحث العلمي منفصلة عن ميزانية التعليم العالي.
- 3- رفع جودة البحث العلمي وفق المقاييس العالمية تحدد أهدافه ومنطلقاته واتجاهاته الرئيسية وتأخذ في الاعتبار متطلبات القطاعات الاقتصادية واستراتيجية التنمية الوطنية.
- 4- إعطاء الجامعات والمراكز البحثية الأولوية في الدراسات والبحوث الاستشارية التي تحتاجها الدولة، وتشجيع القطاع الخاص على الإنفاق على البحث والتطوير مما يؤمن مصادر جديدة لتمويل البحث العلمي لحساب هذه القطاعات.
- 5- توفير بيئة مناسبة ومشجعة على البحث والابتكار، ويكون من خلال اعطاء حوافز ومكافآت مالية ومعنوية مجزية ومشجعة تغطي احتياجات والتركيز على البحوث المشتركة والفرق البحثية وتكثيف الحوارات العلمية.
- 6- تنمية وترسيخ الوعي بأهمية البحث العلمي، ومراكز المعلومات لدى أفراد المجتمع كافة، وبيان دورها الكبير في دعم التنمية الشاملة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، والتعليمية، والثقافية.
- 7- استقلالية مراكز البحوث في قراراتها ونتائجها، وعدم إخضاعها لسلطة رسمية توجهها وفقاً لأهدافها الخاصة.
- 8- إظهار الشفافية، والوضوح التام، والتحرر من قيود سرية المعلومات، وتسهيل إمكانية الوصول إلى البيانات والإحصاءات المطلوبة باعتبار أن ما سيتم إنجازه هو لخدمة المجتمع.
- 9- التواصل المستمر مع المراكز العلمية والبحثية، ومراكز المعلومات في الدول المتقدمة، وعمل الاتفاقات بذلك حتى يستفاد من الأفكار، والمعلومات، وتبادل المعلومات التي تخدم حاجات المجتمعات الإنسانية كافة.

قائمة المراجع:

- 1- أحمد حسين الرفاعي: مناهج البحث العلمي تطبيقات إدارية واقتصادية، ط 6، عمان، الأردن، 2009م.
- 2- احمد فرحات: مراكز الفكر والبحوث في العالم بين سلطة المعرفة وسلطة السياسة، مقال منشور على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت) على الموقع الإلكتروني www.main.omandaily.om
- 3- حاتم مصطفى: واقع التعليم والبحث العلمي بعد 2011م، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر نحو تأسيس مركز اختراعات في منطقة شمال أفريقيا والبحر المتوسط، تحالف الأبحاث لشمال أفريقيا، 2014م.
- 4- خالد العرداوي: تفعيل دور مراكز الأبحاث في صنع القرار السياسي، ورقة بحثية مقدمة في مؤتمر مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العراق، 2003م.
- 5- خالد وليد محمود، مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر، بحث منشور على الموقع الإلكتروني للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات www.dohainstitute.org.

- 6- خالد وليد محمود: مراكز البحث في الوطن العربي، الإطار المفاهيمي، الأدوار، التحديات والمستقبل، مركز نماء للبحوث والدراسات بيروت، 2003م.
- 7- دليل كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، جامعة سرت، 2014م.
- 8- سعيد عوض: معوقات ومشاكل البحث العلمي الإدارية والبيئية في الجامعات اليمنية من وجهة نظر عضو هيئة التدريس، بحوث مؤتمر البحث العلمي في الوطن العربي ومشكلات النشر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر 2006م.
- 9- عادل عوض وآخر: البحث العلمي العربي وتحديات القرن القادم برنامج مقترح للاتصال والربط بين الجامعات العربية ومؤسسات التنمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الإمارات العربية المتحدة، 1998م.
- 10- عبد الرحمن عدس وآخرون: البحث العلمي، مفهومه أدواته أساليبه، دار نائل للنشر، عمان، 1989م.
- 11- عصام زيدان: المراكز البحثية الأهداف الطموحة والحلقات المفقودة، مقال منشور على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت) www.siironline.org
- 12- محمد السيد ياغي: واقع البحث العلمي الجامعي في الوطن العربي وأفاق تطوره لخدمة التنمية الإدارية في القطاع الصناعي، بحوث مؤتمر البحث العلمي في الوطن العربي ومشكلات النشر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر، 2006م.
- 13- محمد الصفدي: البحث العلمي والتنمية الإدارية في الوطن العربي الواقع والتطلعات المستقبلية، بحوث مؤتمر البحث العلمي في الوطن العربي ومشكلات النشر، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، مصر 2006م.
- 14- محمد عطية وآخرون: دليل المكاتب الاستشارية والمراكز والوحدات البحثية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، دائرة البحث والتطوير، 2011م.
- 15- نزار قنوع، وآخرون: البحث العلمي في الوطن العربي واقعه ودوره في نقل التكنولوجيا، مجلة تشرين للبحوث والدراسات التطبيقية، المجلد 27، العدد 4، سوريا، 2005م.

حروب رعمسيس الثالث مع شعوب البحر (1194 - 1162 ق.م)

Third Rhamseas, wars against Sea People (1194- 1162 B.C)

ط.د. تمام خالد الهواش ♦ الأستاذ الدكتور جهاد عبود/جامعة دمشق، سورية

Tammam Khalid Al-Hawash-PH.D JehadAbboud- Damascus University- Syria. Student at Ancient History

ملخص :

تعرضت منطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط لغزوات شعوب عدة عرفت بشعوب البحر، وقد اجتاحت هذه الشعوب المهاجرة منطقة تلو الأخرى على طول الساحل السوري- الفينيقي كما تخبرنا النصوص المصرية فقضت على الامبراطورية الحثية وخطمت العديد من المدن والموانئ، ومنها مدينة أوغاريت، وقد استمرت هذه الشعوب في السير براً وبحراً حتى بلغت حدود مصر حيث استطاع رعمسيس الثالث وقف تقدمهم وهزمهم في معركتين برية وبحرية.

الكلمات المفتاحية: شعوب البحر، رعمسيس الثالث، مصر.

Abstract :

The region of the eastern coast of Mediterranean had been attacked by many people had been known by Sea People. These emigrated people ravaged area after another, as the Egyptian texts tell us along the Syrian. Phoenician coast, They abolished the Hiti Empire and they destroyed many cities and ports such of Ugarit, and these people continued going in mainland and sea until They reached to borders of Egypt where Third Rhamseas could stop their progressing and he defeated them in two battles in mainland and sea.

Key WORDS : Sea People , Third Rhamseas , Egypt.

مقدمة

مع نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد شهدت منطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط، والبلاد المحيطة به تغيرات هامة نتيجة تحركات وهجرات شعوب مختلفة، سواء من الشعوب المتبريرة التي تنتهي أصلاً إلى أواسط آسيا، وهي شعوب يطلق عليها المؤرخون عادةً اسم الشعوب الهندو-أوربية أو من الشعوب السامية القادمة من الجنوب، غيرت معالم منطقة الشرق الأدنى القديم قبل ذلك في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد.

ولكن ما يهمننا أكثر هي الشعوب الهندو-أوربية القادمة من الشمال، التي يبدو أنها وصلت إلى مناطق شرق أوروبا من شمال البحر الأسود لكي تستقر في البلقان، ثم انتشرت جنوباً متنقلة على عربات ثقيلة تجرها الخيول.

كانت هذه الشعوب دائمة التنقل والتحرك، وكان أشهرهم "الدوريون" الذين توغلوا في كامل بلاد اليونان مخلفين الكثير من الدمار والخراب في المدن المسيية الكبرى، ولم تنجُ من هذا الغزو سوى "أتيكا"¹.

ومن شبه جزيرة البلوبونيز اتجه الدوريون نحو كريت، حيث حطموا ما تبقى من الحضارة الإيجية ثم استولوا على جزيرة رودوس، وكانوا قبل ذلك قد وصلوا إلى السواحل الجنوبية الغربية لآسيا الصغرى حيث المستعمرات المسيية، ولكنّ الحثيين استطاعوا وقف تقدمهم، ومنعهم من الوصول إلى جزيرة قبرص. وعلى أية حال، فقد أدى قدوم هذه الشعوب المهاجرة إلى صراع مرير بينها وبين السكان المحليين القاطنين بهذه المناطق، وكان من نتائجه أن قبائل عديدة هجرت أوطانها الأصلية وعبرت البحر باحثة عن موطن جديد يكون أكثر أمناً واستقراراً.

لقد أصبحت منطقة اليونان الداخلية وبحر إيجة، وآسيا الصغرى مليئة بأفواج بشرية متحركة، ومما زاد الأمر تعقيداً تلك الصراعات والمجاعات التي حلت بالمناطق الساحلية الجنوبية الغربية لآسيا الصغرى، كل هذا حمل العديد من الشعوب على الترحال، فاضطر الآخيون إلى الرحيل مع نساءهم وأطفالهم على السفن، فلجأ بعضهم إلى شبه جزيرة أتيكا وإلى جزيرة "أوبي"²، ولكن القسم الأكبر منهم أبحر باتجاه ليبيا، وإلى فينيقيا وبلاد كنعان، ومن جهة أخرى اضطرت الشعوب التي طردت من ليديا وميسيا وكاريا وليسيا إلى التوجه نحو ليبيا عن طريق البحر، كما نزل فريق آخر منهم عن طريق اليابسة على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط في عربات ثقيلة ذات عجلات تجرها ثيران ذات سنام، وهي تحمل النساء والأطفال.

وقد اجتاحت هذه الشعوب المهاجرة منطقة تلو الأخرى، كما تخبرنا النصوص المصرية على طول الساحل السوري-الفينيقي- فحطمت العديد من المدن والموانئ، ومنها مدينة أوغاريت، وقد استمرت هذه الشعوب في السير براً وبحراً حتى بلغت حدود مصر، حيث استطاع رع مسيس الثالث وقف تقدمهم وهزمهم في معركتين برية وبحرية.

¹-أتيكا: شبه جزيرة يونانية توجد بها مدينة أثينا، وتتميز بسلاسل جبلية صغيرة وسهول خصبة.

²- جزيرة أوبي: جزيرة في بحر إيجة .

أ- حرب السنة الخامسة (1189 ق.م)

جاء رعمسيس الثالث إلى الحكم خلفاً لوالده " ست نخت "، ويعتبره (مانيتون) المؤسس الحقيقي للأسرة العشرين، وقد ولد له من زوجه "تي مرن إيزه" التي كانت تلقب بـ "زوجة الإله العظيمة وزوجة الملك"، وصورت على لوحة من أبيدوس جالسة ومتعبدة مع " ست نخت "؛ مما يدل على أنها كانت زوجة له، كما صورت على قطعتي حجر من أبيدوس أيضاً تالية لرعمسيس الثالث، وبدون أي لقب؛ مما يشير إلى أنها كانت أمّاً له.¹

حينما تولى رعمسيس الثالث العرش كانت الأوضاع الخارجية في غاية الخطورة، فمن الجهة الغربية لمصر لم تتوقف القبائل الليبية ومعها شعوب البحر منذ هزيمتهم أمام مرنبتاح من تنظيم أنفسهم والتسلل داخل الدلتا.²

أما من الجهة الشرقية والشمالية فإن علاقة مصر بإمبراطوريتها الآسيوية كانت قد مرت بفترة هدوء بعد المعاهدة المصرية-الحيثية في عهد رعمسيس الثاني، حيث شهدت خلالها بعض الازدهار التجاري بين مصر والمدن الفينيقية، إلا أنّ هذا الهدوء لم يستمر طويلاً؛ إذ تعرضت دول وممالك الشرق الأدنى القديم في هذه الفترة إلى هجرة الأقوام الهندو - أوربية التي تسببت بدورها في موجات هجرة أخرى من الأقوام الذين اندفعوا إلى هذه المناطق، وكانوا السبب الرئيسي في انهيار الإمبراطورية الحيثية واختفائها من خريطة الشرق الأدنى القديم، رغم الجهود الجبارة التي بذلها الإمبراطور الأخير " شوبيليوما الثاني ".

وقد توسعت موجة هذه الهجرات نحو الجنوب من سيليسيا³، ونهارينا⁴، وبلاد آمور⁵، كما دمرت وحرقت الموانئ الفينيقية الكبيرة مثل أوغاريت⁶، وتعرضت جزيرة قبرص بدورها إلى التدمير، ثم بعد ذلك سيطرت هذه الشعوب الهندو- أوربية على كنعان واستقرت في الممتلكات المصرية في سوريا وفلسطين، وأصبحت تهدد مصر نفسها، ولكن رعمسيس الثالث استطاع صدّ هؤلاء المحاربين سواء الذين قدموا عن طريق البر أو عن طريق البحر.⁷

أما عن تطورات هذه الحرب، أو هذا الغزو الذي تعرضت له مصر، وسير المعركة والاستعدادات التي قام بها رعمسيس الثالث، فإن هناك سلسلة من المناظر الرائعة المصورة على جدران معبد مدينة هابو، بالإضافة إلى النصوص المصاحبة لها، كما تقدم لنا بردية هاريس⁸ المشهورة تفاصيل هذه الحوادث وهذه النقوش التي تشير بصفة عامة إلى الحروب التي خاضها

¹-مهران، محمد بيومي، مصر والشرق الأدنى القديم - الكتاب الثاني (مصر)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988، ص144.

²-R.O.FAULKNER, Egypt From The inception of the Nineteenth Dynasty to Ramesses III, Cambridge Ancient History II, Chapter 23, 1975, P.242.

³-سيليسيا: إقليم يقع جنوب تركيا من أهم مدنه أدنة.

⁴-نهارينا: مملكة تقع شرق الفرات كانت حدودها الغربية تصل حتى حلب.

⁵-بلاد آمور: جاء اسم بلاد آمور كثيراً في رسائل العمارنة، وكانت تستعمل هذه التسمية لتدل على هضبة صحراء سورية.

⁶-أوغاريت: مدينة سورية تعود آثارها إلى الأزمنة القديمة، اكتشف موقعها صدفة عام 1928 في رأس شمرا على بعد 1300 متراً من شاطئ البحر المتوسط واثني عشر كلم شمال مدينة اللاذقية.

⁷- CLAJRE LALOUETTE, L, Empire des Ramses, Fayard, 1985, P. 300- 301.

⁸- بردية هاريس: محفوظة الآن بالمتحف البريطاني، وهي من أروع محفوظات الدولة المصرية وأكبر الوثائق حجماً إذ يبلغ طولها 133 قدماً، وتضم 117 مقطعاً من الكتابة الهيروغليفية، ونجد في كل مقطع بين 12 و13 سطراً، عثر عليها عام 1855م في مكان بالقرب من معبد الدير البحري، وقد وصلت إلى أحد تجار الآثار واشتراها منه في نفس العام السيد " هاريس " الإنكليزي الأصل والذي أهداها بدوره إلى المتحف البريطاني.

رعمسيس الثالث، وهي مكتوبة بلغة شعرية لكنها مليئة بالعبارات الرنانة والمبالغة الكبيرة، شأنها في ذلك شأن النقوش والنصوص التي تعود إلى عهد رعمسيس الثاني، إذ يلعب المجاز فيها دوراً كبيراً، فضلاً عن كثير من الصفات والنعوت وعبارات المديح والإطراء للفرعون ونصره على العدو، وذلك على لسان موظفيه من رجال البلاط، ولكن ذلك لا يخلو-بطبيعة الحال- من الحقائق، وإن قلّت، ورغم هذا فهي ذات أهمية قصوى، خاصة أنها مصدرنا الوحيد عن هذه الحروب.

كما أن هناك اختلافاً بين المؤرخين حول نقش السنة الخامسة الذي يتناول في الأساس الحرب الليبية، لكن وجدت بعض الفقرات من هذا النقش تشير إلى حروب قام بها رعمسيس الثالث ضد الآسيويين والشماليين، وهذه الفقرات مشابهة لما ورد في نقوش السنة الثامنة الخاصة بحربه ضد شعوب البحر، ويرى كل من "دريوتون وفاندييه" أنه ليس من المحال أن يكون رعمسيس الثالث قد قام بصده هجوم شعوب البحر مرتين خلال أربعة أعوام، إلا أن الأكثر قرباً إلى الحق أن نطقاً أن نصوص السنة الخامسة- الخاصة بالحملة الليبية الأولى- مؤرخة بتاريخ سابق، وأنها تشير إلى حملة السنة الثامنة، ومن المؤكد أن كتابات مدينة هابو نقشت بعد الحوادث، فلا عجب إن وجدنا شيئاً من عدم الدقة في التتابع الزمني للحوادث¹.

وتؤكد "كلار لا لوات" أنه من الممكن أن يكون هذا الجزء من النقش يتعلق في الواقع بحملة السنة الثامنة، التي حارب فيها المصريون شعوب الشمال، وأنه وضع هنا خطأً، ولعل هذه الفرضية هي الأكثر قبولاً².

ولكن هناك من يعتقد أن تحالفاً حدث بين شعوب البحر والليبيين في هذه الحرب، كما حدث في أيام مرنبتاح، ف"برستد" يرى أن هناك فريقاً من شعوب البحر اتجهوا بأساطيلهم التي يقودها رجال مغامرون إلى شواطئ الدلتا، متبعين أساليب النهب والقرصنة أينما حلوا، وحينما وصلوا إلى شواطئ إفريقيا انضم الليبيون إليهم، وكانوا يأملون نهب أراضي الدلتا الخصبة واحتلالها، ثم تقدموا معاً - براً وبحراً - حيث قابلهم رعمسيس الثالث وحدثت بينهم معركة انتهت بهزيمتهم³. وتتفق مع هذا الرأي "كلار لا لوات"، حيث تؤكد أن هذه الفقرات - التي وضعت في مجرى القصص المتعلقة بالحملة الليبية للسنة الخامسة - تحمل شهادة على أن شعوب البحر المستقرين في آسيا قاموا بإرسال بعض الجنود المشاة والسفن الحربية لمساندة الليبيين⁴.

أما "جون ويلسون" فيرى أن مناظر الحرب العشرة الموجودة بمدينة هابو لا تصور أعداءً باستثناء جيش (ريبو أو ليبو- تحنو)⁵، وأن شعوب البحر المصورين كانوا يحاربون من جانب مصر كمرتزقة، كما أن النقوش المصاحبة لم تذكر الشماليين إطلاقاً، وأن نقش السنة الخامسة الذي يعطي بيانات عن هذه الحرب ينقسم إلى قسمين: قسم يعالج الحرب الليبية الأولى،

¹-دريوتون، ايتين، فاندييه، جاك، مصر، ترجمة: عباس بيومي، القاهرة، 1950، ص 482-483.

²-CLAIRE LALOUETTE, OP. CIT, P.306.

انظر أيضاً: ALESSANDRA NIBBI, The Sea Peoples, Oxford, 1972, P. 45- 48.

³-مهران، محمد بيومي، حركات التحرير في مصر القديمة، ج3، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1976، ص 252.

⁴-CLAIRE LALOUETTE, OP. CIT, P. 306.

⁵-التحنو: ذكر التحنو أو تحني في النقوش المصرية منذ فجر التاريخ المصري، وأقدم إشارة إليهم ترجع إلى عهد الملك العقرب، إذ كتب اسم بلادهم على أثر يصور أسلاباً أحضرت من هناك، ثم من عهد الملك نعرمر، ومنذ الدولة القديمة حتى الأسرة الثامنة عشرة كان سكان تحنو أو تينحو يذكرون باعتبارهم "حاتبيوعا" وهو لفظ كان يطلق على الأمراء المصريين. انظر:

A.H.GARDINER, Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947, p.116-117.

وقسم منفصل يعالج الحرب ضد شعوب الشمال، وأن المعركتين بقيتا مختلفتين، ومن هنا فليس هناك تحالف، خاصة أن الاشتباك الحاسم كان على حافة الصحراء في الركن الشمالي الأقصى من الدلتا.¹

وهذا الرأي أكده "ساندارز" أيضاً الذي يعتقد أن الشماليين لم يكونوا قط في صفوف الأعداء الليبيين الذين هاجموا مصر في السنة الخامسة من عهد رمسيس الثالث، ولكن من الممكن أن يكون بعض الأعداء القدماء الذين حاربوا مرتبناح في الحرب الليبية مثل "الإقواش، تيرش، شيكلش"²، وبشكل خاص "الشردان" قد أصبحوا محاربين في صفوف الجيش المصري يقاتلون ضد حلفائهم السابقين لذلك ظهروا في الرسومات الحربية.³

ومهما كان الأمر يبدو أن حرب السنة الخامسة كانت في جملتها من الليبيين، وإن كان هذا لا يمنع من أن بعضاً من شعوب البحر قد ساعدوا الليبيين في حملتهم هذه على مصر، وإن لم يكن ذلك بصورة رئيسية، ويتضح هذا من خلال فقرتين مميزتين من هذا النقش، إذ تشير هاتان الفقرتان إلى قيام رمسيس الثالث بحرب ضد الآسيويين والشماليين من شعوب البحر، يتعلق الأمر في الفقرة الأولى ببلاد أمور إذ نجد: "أن رئيس أمور قد أصبح رماداً، وبذرتة قد انقطعت وأخذ كل قومه أسرى وشتتوا وأخضعوا، وكل من بقي على قيد الحياة في بلاده، كان يأتي بالثناء ليروا شمس مصر العظيمة تطلع عليهم. جمال قرص في وجودهم. والشمسان (شمس السماء الملك شمس مصر) اللذان يطلعان ويضيئان الأرض: شمس مصر، والشمس التي في السماء. ويقولون الرفعة لرع، إن أرضنا قد خربت، ولكننا في أرض الحياة التي معي منها الظلام، ملك مصر العليا والسفلى: أوسر ماعت رع مري أمون، ابن رع: رمسيس الثالث."⁴

كما نجد في السطور 20-22: "لقد أحضر الأعداء مع الآسيويين والليبيين (أسرى)، هؤلاء الذين خربوا مصر فيما مضى، حتى جعلوا الأرض قاحلة، وفي خراب تام منذ بدء الملوك، في حين أنهم قد اضطهدوا الآلهة، وكذلك كل فرد، ولم يكن هناك بطل يستقبلهم (للقتال) عندما ثاروا"⁵.

وهكذا يبدو أن رمسيس الثالث قام بحرب ضد الآسيويين في بلاد أمور – ربما في الفترة السابقة لحرب السنة الخامسة – وقد استطاع أن يقضي عليهم كما يبين ذلك النص المذكور.

لكن الفقرة التي أثارت الجدل والاختلاف بين المؤرخين تبدأ من السطر الخمسين، حيث يدور الكلام على وقائع أكثر دقة، فنعلم أن مصر كانت مهددة من قبل شعوب البحر المتجهة نحو الدلتا براً وبحراً، وإن اقتصر ذكر هذه الشعوب على شعبين أو ثلاثة، وقد اعتبر "ساندارز" أن هذه الحوادث غير حقيقية، وأن هذا النص (ليس إلا تفاخر) مبالغ فيه لرمسيس الثالث⁶.

¹-مهران، محمد بيومي، مصر والشرق الأدنى القديم (9)، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990، ص 126.

²-الأقواشوالثيرشوالشيكلش هم أقوام من شعوب البحر.

³-N.K.SANDARS, The Sea Peoples Warriors Of the Ancient Mediterranean 1250-1150 B.C. Thames and Hudson, London 1978, P.132-133.

⁴-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, Historical of Ramsses III, PLS 27-28,1930, P.22-23.

⁵-Ibid, pls 27-26, p.23.

⁶-N.K..SANDARS, OP. CIT, P. 132- 133.

إذ نقرأ فيه: " بلدان الشمال ارتعدت في أجسادها، وبالتحديد البلست والثيكر الذين اقتطعوا من أرضهم، وكانت روحهم محطمة حين قدموا. وقد كانوا محاربين 1th في البر، وفي البحر (الأخضر العظيم) الذين قدموا عن طريق البر هزموا وذبحوا لأن آمون رع كان وراءهم وحطمهم، أما الذين دخلوا في أفواه النيل فقد كانوا كالطيور التي وقعت في الشبكة المنصوبة.... وقد اقتلعت قلوبهم ولم تعد داخل أجسادهم، ورؤسائهم سلبوا وذبحوا وأصبحوا أسرى..."².

بالإضافة إلى هذا النص الذي يذكر اسم شعبين فقط من الغزاة، نجد هناك منظراً يظهر الملك وهو يقدم الأسرى إلى آمون حيث نقرأ: " ذراعي القوية هزمت الذين قدموا ليثوا على أنفسهم: البلست، الدنن، وشيكلش"³.

وهكذا يتضح من خلال هذه النصوص أنه من الممكن أن يكون رعمسيس الثالث قد أرسل أسطولاً بحرياً إلى البحر المتوسط ليقضي على سفن شعوب البحر التي توغلت في الدلتا، في الوقت الذي أوقف فيه الجيش المصري تقدم الشعوب الليبية من الناحية الغربية، لذلك فمن المحتمل جداً أن هناك معركة بحرية أولى في السنة الخامسة، أما معركة السنة الثامنة فهي المعركة الثانية، ورغم أن تفاصيل هاتين المعركتين متقاربة أحياناً، إلا أن معركة السنة الثامنة شاركت فيها شعوب أخرى من غير البلست والثيكر، كما أن حوادثها رويت بطريقة مختلفة إلى حد ما.

وعلى أية حال، فإنه من الممكن أيضاً أن يكون الأسطول المصري قد أنزل بعض الجنود المشاة لكي يردوا العدو المتقدم عن طريق البر، وربما هذا ما تعنيه عبارة " آمون رع وراءهم "⁴.

ب - حرب السنة الثامنة (1186 ق.م)

كانت السنة الثامنة من عهد رعمسيس الثالث من أقسى السنوات على مصر، إذ تغيرت الأمور، وازداد خطر شعوب البحر الذين قدموا هذه المرة من الناحية الشرقية والشمالية، وعن طريق البر والبحر وبأعداد غفيرة بهدف الاستقرار في أراضي المراعي الغنية، ليس في الدلتا وحدها، بل في سوريا وفلسطين أيضاً، لذلك جاؤوا ومعهم نساؤهم وأطفالهم في عربات ذات عجلات تجرها ثيران ذات سنم.⁵

وقد وصفت هذه الشعوب المعادية لمصر وصفاً رائعاً في النقوش المصرية، وبشكل خاص الصور التي سجلت المعركة البحرية الفريدة من نوعها، أما النصوص المكتوبة فقد امتزجت بحديث مليء بالزهو، موجه من رعمسيس الثالث إلى أبنائه ورجال بلاطه.⁶ وأشهر هذه النصوص نص السنة الثامنة الذي يذكر: "... إن البلاد الأجنبية قد قامت بمؤامرة في جزرها، وقد زعزت المعركة وبعثرت البلاد كلها في وقت واحد، ولم تكن هناك أرض تستطيع أن تقف أمام أسلحتهم، وقد ابتدأوا بـ " خاتي "

¹-كلمة لم يعرف معناها الحقيقي إلا أنها تستخدم في الغالب لتقصّد جنود العربات، وقد استخدمت للمحاربين الحثيين في معركة قادش.

²-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, PLS 27-28, P.30-31.

³- W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, PLS 44, P.47.

⁴-CLAIRE LALOUETTE, OP. CIT, P. 307-308.

⁵-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, PLS 32-34, P.38.

⁶-جاردنر، سير آلن، مصر الفرعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل ابراهيم، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1987، ص313.

وقودي (قدي)¹ وكركميش² ويرث (أرزاوا)³ وويرس (ألاشيا-قبرص)، ولكنهم سحقوا في وقت واحد وأقاموا معسكراً في مكان واحد في أمور (أمورو) وقضوا على شعبيها وأرضها فأصبحوا كأن لم يكن لهم وجود من قبل، وقد اتجهوا نحو مصر، واللهب معد أمامهم، وكان حلفهم مكوناً من " البلست والثيكر والشيكلكش ودنين (دانونا) ووشش " متحدين جميعاً ووضعوا أيديهم على البلاد جميعها إلى محيط الأرض كلها، وقلوبهم تردد في ثقة " سوف تنجح خططنا"⁴.

يتضح من خلال النص أن هجرات شعوب البحر تحركت جنوباً في آسيا الصغرى ناشرة الخراب والدمار في جنوب الأناضول وسورية وقبرص، ويبدو أن هذه الجماعات قد اتخذت لها مركزاً برياً في بلاد أمور التي كانت دائماً المركز العدائي القديم للامبراطورية المصرية، وقد ذكرنا أعلاه بأن رعمسيس الثالث أخضعها منذ سنوات قليلة.

ولكن الهجوم على مصر لم يقتصر على البر من أمورو، وإنما كانت هناك تحركات أخرى عن طريق البحر، ولم يكن رعمسيس الثالث غافلاً عن تحركات هذه الشعوب، لذلك نجده يقوم بالاستعدادات اللازمة لمواجهة سواء من ناحية البر أو البحر، وقد وصفت النصوص المصرية هذه الاستعدادات؛ فقالت: " قلب هذا الإله، سيد الآلهة، كان مستعداً ومجهزاً لاقتناصهم كالطيور لقد دعمت حدودي في زاهي، وأعددت أمامهم الأمراء المحليين، وقواد الحاميات والماريانو⁵ وأمرت بأن يجهز مصب النهر (دلتا النيل) كسور قوي بالسفن الحربية والغلايين والقوارب التي كانت مجهزة تماماً من مقدمتها حتى مؤخرتها بمحاربين شجعان مسلحين، ومن المشاة من خيرة رجال مصر الذين كانوا كالأسود المزمجرة فوق الجبال، أما العربيات فكان بها المحاربون الأكفاء وكل الضباط الممتازين ذوي الأيدي القادرة، وكانت خيولهم ترتعد كل مفاصلها مستعدة لسحق البلاد الأجنبية تحت حوافرها"⁶.

ولم تقف النقوش عند الوصف الكتابي فقط، بل إن مناظر من مدينة هابو تقدم لنا صورة لهذه الاستعدادات تصاحبها النصوص- التي تعود إلى نقش السنة الخامسة الذي أثار الجدل الكبير كما ذكرنا من قبل- ويبدو أن رعمسيس الثالث قد بدأ استعداداته وتجهيزاته للمعركة مع الجنود المشاة وجنود العربيات، وقد سهر بنفسه على تجهيز الجيش حيث نشاهده يقف على المنصة ليشراف على توزيع المهمات، وفوقه رجل ينفخ في البوق للنداء، بينما حاملو الأعلام والضباط يحيونه، أما أسفل ذلك فنشاهد أحد الأمراء يصدر أوامره التي يقوم الكاتب بتدوينها، وآخرون يسجلون وحدات الجيش ويحصون التجهيزات الموزعة من خوذات وحراب وأقواس وسيوف ودروع وكنانات وغيرها من معدات الحرب.

¹-قدي: منطقة شمال سورية تقع بين كركميش والبحر المتوسط.

²-كركميش: موقع مدينة جرابلس السورية على الحدود مع تركيا.

³-أرزاوا: تقع على ساحل البحر المتوسط في الجهة الغربية من الجنوب الغربي من بلاد الحثيين.

⁴-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, PLS 46, P.53.

⁵-الماريانو: طائفة من الجنود المرتزقة امتازوا بشجاعتهم وقوة بطشهم كانوا منتشرين في آسيا، ولزيد من الاطلاع، انظر:

N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 133.

⁶-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, PLS 46, P.54-55.

وقد خاطب رعمسيس الثالث موظفيه ورفاقه وكل قائد من جيش المشاة وجنود العربات الذين كانوا في حضرته قائلاً: "أخرجوا أسلحتكم وأرسلوا الجيوش لتدمر البلدان الثائرة التي لم تعرف مصر من خلال قوة أبي آمون".¹ كما أشرف بنفسه على توزيع الأسلحة على الجنود الأكفاء، حيث نجد "الأمير" الكاتب الملكي الكبير والابن الملكي الذي قال لقادة الجيش ونقباء الفرق العسكرية والضباط: هكذا تكلم الفرعون: بأن كل رجل كفاء، وكل جندي شجاع يعرف جلالته دعوه يمر أمامه ليتسلم أسلحته."² ثم يرد الموظفون والقادة في حضور رعمسيس الثالث قائلين: "هيا! هيا! لقد تجمع الجنود، ثيران البلد، صفوة مصر كلها."³

كما وجد منظر آخر يمثل الفرعون وهو في طريقه إلى زاهي لمحاربة شعوب البحر، إذ ينطلق الفرعون في عربته يرافقه في ذلك جنوده المصريون والمرتزة من الأجانب: "وينطلق جلالته إلى زاهي مثل "مونتو" ليحطم كل بلد اعتدى على حدوده، وجنوده كالثيران مستعدة في ميدان المعركة وخيله كالصقور في وسط الطيور الصغيرة أمام الأقواس التسعة حاملة النصر، ووالده الفاخر آمون رع كدرع له."⁴

وهكذا يتضح لنا من خلال النصوص أن هناك معركتين واحدة برية وأخرى بحرية، ويبدو أن المعركتين منفصلتان حيث يظهر أن المعركة البرية كانت قبل المعركة البحرية، ولكن اختلف المؤرخون حول تحديد مكان المعركتين بالضبط، فالنص يذكر بأن معسكرهم كان في بلاد أمور (أمورو)، ومن الطبيعي أن يكون هذا المعسكر قد أقيم لتجميع القوات والاستعداد والتجهيز للهجوم على مصر، مما يعني أن هذا الهجوم أو المعركة قد حدثت في مكان ما شمال كنعان المقاطعة أو المحافظة المصرية القديمة، وقد اتفق البعض على أنها وقعت ربما شمال مدينة طرابلس مباشرة.⁵

وعلى أية حال، فإن تجمع شعوب البحر وتعسكرهم في أمورو شمال سورية يدل على أن هذه الشعوب كانت لها السيطرة التامة على هذه المنطقة التي كانت تعتبر من المراكز التقليدية المهمة المعادية لمصر، وفي فترة العمارنة كانت هذه المنطقة مركزاً لنشاطات "عبدي-عشيرتا" وابنه ضد مصر، ثم إن نقش السنة الخامسة من عهد رعمسيس الثالث نفسه يشير إلى هزيمة أمورو واستيلاء مصر عليها، ولذلك فإن نقش السنة الثامنة كثيراً ما يكتنفه الغموض.

وبالنسبة لـ "ألسندرا نبي" فإن هذه الشعوب التي استطاعت أن تقضي على العديد من الممالك والدويلات في الشرق الأدنى القديم، وخصوصاً الامبراطورية الحثية لا بد أنها كانت معروفة للحثيين والمصريين، وأن منطقة تمرزهم لا بد أنها كانت تقع بين الامبراطوريتين القويتين مصر وخاتي، وبذلك سهل عليهم مهاجمة حدودهما معاً، إذ لا نستطيع التصور بأن قوماً غرباء بعيدين عن المنطقة يقومون بغزو هذه الممالك كلها، حتى يصلوا الحدود المصرية على عربات تجرها ثيران بطيئة الحركة،

¹-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, PL. 29, P.35.

²-Ibid, PL.29, P.36.

³-Ibid, PL.29, P.36-37.

⁴-Ibid, PL.31, P.37-38.

⁵-N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 120. انظر أيضاً:

R.DEVAUX,O.P, La Phénicie et Les Peuples de La MER, Mélanges de L, Université, Saint- Joseph, Tome 67, Beyrouth (LIBAN) ,1969, P.485.

ومتنقلة في أراضي وعرة لا يمكن اجتيازها ومعهم النساء والأطفال، وتؤكد " نبيي " أن التعبير المصري " لم تكن هناك أرض تستطيع أن تقف أمامهم " لا يقصد أي معنى خاص أو مميز باستثناء المبالغة في وصف قوة العدو، ذلك أن هذا التعبير نفسه قد أشير إليه في مواقع أخرى من النصوص المصرية كما هو الحال في معبد " حور محب " حيث نجد: " لم تستطع أي أرض أن تقف أمامه "1.

أما بالنسبة للمصطلح الجغرافي " زاهي " الذي تحدث عنه رعمسيس الثالث بأنه نظم فيه حدوده، فقد كان يقصد منطقة في فينيقيا²، ولكنه كان يقصد - في البداية- منطقة في فلسطين أيضاً³، ويعتقد "ساندارز" بأن " زاهي " منطقة من المحتمل أنها كانت تقع في جنوب فلسطين، أو بين مصر وفلسطين⁴، ويجب التأكيد على أن مصر في هذه الفترة لم تكن لها القدرة على بسط نفوذها إلى أبعد من شمال فلسطين، كما أن رعمسيس الثالث نفسه يذكر في النص كلمة " حدودي " التي غالباً ما تستخدم لتدل على خط الحصون الحدودية التي تحرس الدلتا على الجانب الشرقي، ولذلك فمن المحتمل جداً أن تكون هذه المعركة قد حدثت قرب هذا الخط من القلاع والحصون⁵، وهذا ما أميل إليه.

أما بالنسبة للمعركة البحرية فإن هناك اختلافاً حول موقعها، إذ يرى البعض أنها كانت في سورية قرب معسكر أمورو، وأن التعبير المصري " أفواه النهر " يمكن أن يقصد مصب نهر ساحلي⁶، بل إن شيفر SCHAEFFER يعتقد أن هذه المعركة قد حدثت أبعد من شمال الحدود المصرية قرب جزيرة " أرواد ARVAD"⁷، ولكن تعبير " أفواه النهر " غالباً ما يطلق على مصبات نهر النيل، لذلك فمن المحتمل أن تكون المعركة البحرية قد حدثت في الدلتا. وهذا ما يؤكد " نلسون " الذي يرى أن موقع المعركة البحرية - على الأقل- يكون كما أراد الفنان المصري أن يصوره - وربما يتفق كذلك مع تقرير النقش - قد كان عند مصب نهر ربما كان واحداً من فروع النيل بالدلتا⁸. وهذا رأي " بارنت " أيضاً⁹، وكذلك " أدرجتون " و " ويلسون " اللذان يميلان إلى أن هذه المعركة البحرية قد حدثت عند مصبات النيل¹⁰.

أما الدكتور " مهران " فيرى أن معركة رعمسيس الثالث البحرية هذه، ربما قد حدثت في مكان ما إلى شرق بورسعيد الحالية قريباً من مخرج الفرع البيلوزي للنيل، وأن السفن المصرية التي اشتركت في هذه المعركة إنما خرجت من منف إلى الفرع البيلوزي، ومنه إلى البحر المتوسط، حيث اشتركت في المعركة البحرية مباشرة وهذا محتمل جداً، خاصة أنه لا نعلم بوجود

1-ALESSANDRA NIBBI, OP.CIT, P. 41-43.

2-R.DEVAUX,O.P, OP. CIT, P.485.

3- A.H.GARDINER, OP.CIT, P. 145-146.

4-N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 119.

5-R.DEVAUX,O.P, OP. CIT, P.485.

N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 119: وكذلك

6-R.DEVAUX,O.P, OP. CIT, P.485.

7-R.D.BARNETT, The Sea Peoples, Cambridge Ancient History II, Chapter 28, 1975, P.372.

8-HAROLD. M.NELSON, The Naval Battle Pictured at Medinet HABU, Journal of Eastern Studies, 2, Chicago, 1943, P.45.

9-R.D.BARNETT, OP. CIT, P.372.

10-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON OP. CIT, P.31.

أسطول مصري في البحر المتوسط أو البحر الأحمر منذ أقدم العصور إلى عصر النهضة المصرية، والأمثلة القليلة التي نعلمها عن سفر البعثات إلى لبنان أو بلاد البونت (الصومال) لا تكفي للتدليل على وجود أساطيل مصرية بحرية، وكل ما ورد من إشارات عن حروب بحرية سواء في عهد الفوضى الأول أو فترة طرد الهكسوس أو أسطول تحوتمس الثالث أو في غزو بعنخي لمصر كلها توجي بأن هذه كانت سفناً نيلية تستخدم عند الضرورة في البحر المتوسط، ولذا يعتقد- أي الدكتور مهران- بأن المعركة البحرية قد حدثت عند مصبات النيل في البحر المتوسط¹.

أما فيما يخص تفاصيل المعركتين، فقد قدمت لنا مدينة هابو صوراً عدة ومناظر لهما بالإضافة إلى الوصف اللفظي، فبالنسبة للمعركة البرية نجد منظرًا للفرعون في عربته وهو يهجم في قلب قوات شعوب البحر الذين ساد بينهم الارتباك وسوء النظام، ويساعده مشاة مصريون وفرسان وجنود أجانب من الشردانا الذين ظهروا بخوذاتهم ذات القرون المميزة².

أما بالنسبة لشعوب البحر فإن طريقة قتالهم تشبه إلى حد بعيد طريقة الحثيين، إذ كانت كل عربة تحمل ثلاثة أشخاص اثنين من المحاربين وشخصًا ثالثًا للقيادة³. أما العربات المصرية فقد كانت تحمل شخصين فقط (سائق ومقاتل) والمعركة في حد ذاتها كانت عبارة عن شجار وتشابك بالأيدي بين راكبي العربات والرجال المشاة، ولكن المفاجأة هي تلك العربات التي تجرها الثيران والتي تحمل النساء والأطفال، مما يؤكد أن هذه الشعوب كانت تتحرك بحثاً عن مأوى أو وطن جديد، ويبدو أن معسكرهم قد هوجم بغتة (أخذوا بعنصر المفاجأة) مما شكل هذا الاضطراب، وربما هوجموا أيضاً أثناء تحركهم⁴، ويتضح من المنظر أن هذه العربات التي تجرها الثيران هي عربات خشبية في الغالب من الطراز الحثي وخاصة العجلات الصلبة وهي تشبه تلك العربات التي استخدمها الحثيون في معركة قادش⁵. والواقع أن عجلات هذه العربات كانت معرضة للتحطيم عند الاصطدام بالصخور أو الحفر رغم قوتها وصلابتها، ومن الجائز جداً أن تكون هذه العربات قد تم فكها وحملها في السفن عن طريق البحر إلى فلسطين حيث تم تركيبها من جديد⁶. وهناك لوحات مسينية عليها رسومات لعربات بدون عجلات مما يدعم هذا الاحتمال.

وعلى أية حال، فإن هذه العربات لم تكن من وسائل النقل الثقيلة التي بها أربع عجلات ويجرها اثنان أو أربعة ثيران أحياناً، وهناك العديد من النماذج البرونزية أو الطينية لبعض هذه العربات في الأناضول، وفي الشرق الأدنى، بينما العربات الحقيقية فقد بقيت في مدافن التلال بالقوقاز قرب بحيرة " سيفان SEVAN"⁷، وقد تحطم الكثير منها على صخور نفس المنطقة، ولكن

¹-مهران، محمد بيومي، مصر والعالم الخارجي في عصر رمسيس الثالث، الاسكندرية، 1969، ص 229.

²-N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 120.

³-R.D.BARNETT, OP. CIT, P.372.

⁴-N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 120- 121.

⁵-R.D.BARNETT, OP. CIT, P.372.

⁶-W.F.ALBRIGHT, Syria The Philistines and Phoenicia, Cambridge Ancient History II, Chapter 33, 1975, P.508.

⁷-بحيرة سيفان:بحيرة في أرمينيا تبلغ مساحتها 1408 كم².

العربات التي كانت مع شعوب البحر مختلفة تماماً وربما كانت من نوع فريد، فهي عربات للنقل بعجلتين يجرها زوجان من الثيران يربطان مع بعضهما جنباً إلى جنب.¹

ومهما يكن، فإن عدم وجود الخيالة أو فرق عسكرية من المشاة لحماية الجنود الذين كانوا في العربات التي تجرها الثيران، جعل هؤلاء مكشوفين ومعرضين لخطر السهام المصرية، ونلاحظ في مناظر المعركة إحدى العربات تحمل ثلاثة نساء ومعهن طفلان، وأحد الأطفال سقط أو رمي خارج العربة والأم تمسك ولداً صغيراً عارياً تماماً من ذراعيه ربما لترميته أو لتنقذه، كما أن هناك عربة أخرى تحمل رجلاً مقاتلاً، وربما رجلاً آخر وامرأة وطفلاً، أما العربة الثالثة فقد أتلقت صورتها ولكن يبدو أنها كانت تحمل امرأتين وطفلين.²

على كل حال، فقد انتهت المعركة بين مصر وشعوب البحر بهزيمة ساحقة للغزاة وبانتصار عظيم لرعمسيس الثالث الذي يصف انتصاره بقوله: "وأما الذين وصلوا حدودي فقد أفنيت بذرتهم، وقد قضي على قلوبهم وأرواحهم إلى الأبد"³، وهكذا نجح رعمسيس الثالث في أول لقاء بينه وبين هؤلاء المتبريرين، واستطاع أن ينال منهم، وأن يهزمهم شر هزيمة.

وبعد المعركة البرية تصف النصوص الهجوم عن طريق البحر حيث نقرأ: "... أما الذين أتوا بمجاميعهم معاً عن طريق البحر، فإن اللهب الشامل⁴ كان أمامهم عند مصبات النيل، في حين أن سياجاً من الحراب قد أحاطت بهم على الشاطئ، ولذلك ألقوا أرضاً على الشاطئ، وذبحوا وأصبحوا أكواماً من مؤخرة السفينة حتى المقدمة، أما سفنهم وبضائعهم فقد سقطت في الماء"⁵.

ولكن بالنسبة لتفاصيل هذه المعركة البحرية فمن الأفضل أن نلجأ إلى النقوش أكثر مما نعتمد على اللفظي حيث نجد منظرًا لخمسة سفن من سفن شعوب البحر إحداها مقلوبة، بينما أربعة من السفن المصرية تطاردهم وتحاصروهم بشدة، ويبدو أنهم يقودونهم نحو الشاطئ حيث يقابلون بالنبالة المصرية.⁶

ويرى " نلسون " أن المناظر تبين لنا أن سفن العدو تبدو وكأنها لم تستعد للقيام بمناورة، إذ كانت أشرعتها مطوية، بينما تبدو السفن المصرية تهاجم بطريقة منتظمة بمقدمتها المتجهة جميعاً نحو العدو، أما سفن شعوب البحر فلا يوجد لديها مثل هذا التشكيل، وربما كان هدف الفنان من ذلك أن يظهر لنا مدى اضطراب أسطول العدو حين يقارن ذلك بالتقدم المنظم للأسطول المصري، ومن الواضح أن هذا الأسطول قد قبض على عدوه بمهارة.

¹-N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 132- 120.

²-Ibid, P.124.

³-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, OP. CIT, PL.46, P.55.

⁴-اللهيب الشامل: ربما بالتخمين يقصد به الأسطول المصري.

⁵-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, OP. CIT, PL.46, P.55-56.

⁶-Ibid, PLS 37-39, P.41.

ثم يرى " نلسون " بعد ذلك أن الفنان حين رسم هذا السطر، قد وفر في ذهنه ما كان يفكر فيه الكاتب المصري¹، حين كتب يقول: " شبكة كانت معدة لهم لاصطيادهم، وأما الذين دخلوا في مصبات النيل فقد وقعوا في وسطها مقيدون في أماكنهم²، " وحين كتب " وأما هؤلاء الذين دخلوا مصبات النيل فقد كانوا كالطيور التي وقعت في مصيدة³ "، وفي موقع آخر نجد " أما الذين قدموا بجمعهم معاً عن طريق البحر، فإن اللهب الشامل كان أمامهم عند مصبات النيل، في حين أن سياجاً من الحراب قد أحاط بهم على الشاطئ"⁴.

كل هذا يعني بأن الأسطول المصري قد قطع انسحابهم عن طريق البحر، كما منع الجيش فرارهم من ناحية البر، وهكذا كانت الخطة كاملة لدرجة أن العدو قد وقع في المصيدة التي أعدت له، ومن هنا فإنهم قد دمروا تماماً عندما التقى المصريون بهم.⁵

ويظهر من النقوش أن هناك ثلاثة سفن من السفن المهاجمة، بما في ذلك السفينة المقلوبة تحمل رجال ارتدوا نفس غطاء الرأس العالي الذي لبسه المدافعون عن العربات التي تجرها الثيران في المعركة البرية، أما رجال السفينتين الباقيتين فقد ارتدوا خوذة ذات قرون، ربطت ربما خطأً مع خوذة حراس الفرعون من الشردان.

والحقيقة أن القرون هي الشيء الوحيد الذي كان مع الحرس الخاص، أما التنورات والملابس الضيقة ذات الأشرطة فقد كانت متماثلة مع تلك الملابس التي يرتديها المهاجمون الآخرون.

ولم يذكر نص السنة الثامنة الشردان بالرغم من أنهم ذكروا في بردية هاريس، والرابطة الأساسية التي تربط بين الرجال الذين في السفن والشردان هو التشابه الكبير بينهم وبين رئيس هذه القبيلة، الذي ظهر بين أسرى رؤساء القبائل الأخرى، حيث ذكر بالاسم.

وقد ارتدى رئيس الشردان نفس الخوذة التي ارتداها المهاجمون في السفن، مع انثناء منخفض على الجانبين وعمود بين القرون ينتهي بقرص، ويعتبر هذا العمود العلامة المميزة للحرس المصري، كما كان هذا الأسير بلحية، بينما كان المهاجمون بدون لحية، وقد افترض " ساندارز " أن هذا الأسير يمكن أن يكون خائناً من الحرس المصري، ألقي القبض عليه مرة أخرى.⁶

وهناك قضية مشاركة رمسيس الثالث في المعركة البحرية، حيث إن " نلسون " يميل إلى الشك في أن الفرعون قد قام بدور شخصي في هذه المعركة رغم أن هذا لا يمكن إثباته بالرغم من أن المناظر تظهره وكأنه غير قادر على أن يصل إلى العدو بطريقة فعالة بقوسه، كما أن نشاطه لم يكن له نفس التأثير الأدبي على جنوده كما هو الحال في المعركة البرية، ولكن الفنان

1-H.NELSON, OP. CIT, P.46.

2-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, OP. CIT, PL 42, P.41.

3-Ibid, PLS 27-28, P.31.

4-Ibid, PL.46, P.55.

5-H.NELSON, OP. CIT, P.46.

6-N.K.SANDARS, OP. CIT, P. 125.

لم يكن يستطيع أن يرسم جزءاً من معركة دون أن يجعل الفرعون الصورة الرئيسية في المنظر¹، ودون أن تنسب النصوص المصرية النصر كل النصر للفرعون، لهذا نرى النص المصاحب لمنظر المعركة البحرية والذي يظهر فيه الفرعون على الشاطئ مع رماته، وهم يرسلون وابلأً من السهام على العدو المهزوم، ويذكر النص: "والآن فإن الممالك الأجنبية التي في جزرها كانت أجسادها مرتجفة، وقد نفذت في قنوات مصبات النيل، ومنعت خياشيمها من أن تؤدي وظيفتها، وقد كانت رغبتهم أن يتنفسوا النفس، فخرج إليهم جلالته كالإعصار محارباً في ميدان المعركة كالعداء، وقد دخل الفزع والرعب منه إلى أعضائهم، فانكفؤوا وقهروا في أماكنهم، وخلعت قلوبهم وذابت أرواحهم، وتبعثرت أسلحتهم في البحر، وكان يطعن رمحه فيهم حيث أراد، بينما سقط الهاربون منهم في الماء وجلالته كأسد غاضب يهاجم منازل بقرنه، وكان السلب بيده اليمنى والقوة بيده اليسرى، وهو مثل "ست رع آمون والده الذي يقهر له كل الأراضي ويحطم له كل بلد تحت قدميه ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضين وسر ماعت رع آمون، رع ميسيس الثالث".²

وهكذا استطاع رع ميسيس الثالث أن يصد هجوم شعوب البحر عند حدوده الشرقية، كما كتب له النجاح أيضاً في أن يصد هجومهم البحري عند "مدخل الأنهار" في الدلتا، وبذلك حرّمهم من الدخول إلى مصر، ومن المرجح أنهم اضطروا إلى التراجع للاستقرار في فلسطين، كما أشاع الاضطراب في أسطولهم البحري عند مصبات النيل، إذ نجد إحدى قطعهم البحرية وهي تحمل الجنود في أقصى حالات الاضطراب، والمصريون مقبلون عليهم بقيود حديدية فيسقط اثنان منهم في الماء، بينما يتطلع واحد إلى الشاطئ يلتمس الرحمة من الفرعون، وهناك قارب ثالث يظهر مقلوباً وقد طرح برجاله جميعاً في الماء، وهكذا كانت هزيمتهم كاملة برأً وبحراً.³

ومن نتائج هذا النصر، دحر المهاجمين وانقاذ مصر من خطر مؤكد لا يقل عن الخطر الذي تعرضت له البلاد عند غزو الهكسوس، وإن لم يزد عنه كما يرى "دريوتون" و"فاندييه" اللذان يؤكدان- دون مغالاة- أن رع ميسيس الثالث قد أنقذ بلاده من غزو أخطر بكثير من غزو الهكسوس، فلو أن شعوب البحر استطاعت أن تتوغل في مصر، لكان من المحتمل أن البلاد ما كانت تستطيع أن تنهض، وأنها كانت تختفي من التاريخ، كما اختفت دولة الحثيين قبل ذلك ببضع سنين⁴. وفي الحقيقة إن ذلك صحيح تماماً، ذلك أن مصر بانتصارها العظيم قد استطاعت أن تنقذ نفسها من غزو مدمر، حطم قبل ذلك ممالك عدة، وقد قامت الاحتفالات بمصر بمناسبة هذا النصر العظيم.

وتقدم لنا نقوش مدينة هابو رع ميسيس الثالث، وهو واقف في مكان مرتفع أمام حصن، وموظفوه يقدمون له أسرى شعوب البحر، والكتّاب يسجلون إحصاء الكومتين من الأيدي المقطوعة بينما هناك منظر آخر يقدم فيه الأسرى إلى اثنين من الموظفين، وهم يسمونهم، ثم يسجلون في طوائف مختلفة.⁵

¹-H.NELSON, OP. CIT, P.47.

²-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, OP. CIT, PLS 37-39, P.41-42.

³-جاردنر، سير آلن، المرجع السابق، ص 316.

⁴-دريوتون، فاندييه، المرجع السابق، ص 484.

⁵-W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, OP. CIT, PL.42, P.41-42.

ويتجه رعمسيس الثالث إلى ربه شاكراً على هذا النصر العظيم الذي منحه إياه، وليقدم له-بصفته الشريك الأول في النصر- نصيبه الكبير من الغنيمة، فنراه يقود ثلاثة صفوف من أسرى شعوب البحر للإله آمون وللإلهة موت، ويُشاهد الإله يمد سيفاً معقوفاً للملك، ثم يخاطبه آمون قائلاً: "مرحباً بك في سلام لأنك أخذت هؤلاء الذين هاجموك أسرى، ولأنك ذبحت الذين اعتدوا على حدودك، لقد كان سيفي معك لتقهر به البلاد، لقد قطعت رؤوس الآسيويين وطرحت أرضاً لك كل بلد، حتى جعلتهم ينظرون إلى جلالتك في رعب كابني " ست " حين يهيج وتخاطبه " موت " قائلة: إنني أضع ذراعي كحماية حولك بينما حرارتي ضد أعدائك لقد أعطيتك ملايين الأعياد ومئات الألوف من السنين إلى أبد الأبدين"¹.

ثم يضيف نص السنة الثامنة واصفاً سهر رعمسيس الثالث على ضمان حماية مصر وازدهارها حيث نقرأ: "أه فرحة مصر حتى أعالي السماء، لأنني حاكم الأرضين فوق تاج أتوم لقد بددت الأحران التي في قلوبكم وجعلتكم جالسين في ثقة دون توقف ... لقد غطيت مصر، وحميتها بذراعي الشجاعة منذ أن حكمت كملك مصر العليا والسفلى فوق تاج أتوم.... لأن قلبي يثق في إلهي (سيد الآلهة) آمون رع الشجاع، سيد السيف الذي أعرف بأن قوته أكبر من قوة الآلهة الأخرى، وبأن قدر سنوات مدة الحياة كلها بيده أنا قوي وشجاع ومخططاتي نجحت، ولم يفشل أي شيء قمت به، وخلقني ممتاز وقد ورثته من هذا الإله، أب الآلهة والدي! أنا لست غافل عن ضريحه، ورغبتني ازدادت لمضاعفة القرابين من الغذاء لما كان موجوداً من قبل"².

على كل حال، فإن هناك نقوشاً أخرى ذكرت شعوب البحر غير نقش السنة الثامنة، حيث نجد لوحة السنة الثانية عشرة من حكم رعمسيس الثالث تذكر انتصار هذا الفرعون على شعوب البحر، والحقيقة أنني لم أعثر على نص هذه اللوحة سوى عند "كلار لا لوات" التي نقلته بدورها من كتاب:

Kitchen.K.A, Ramesside Inscriptions Historical and Biographical, V, 73, Oxford, 1982.

ونجد في هذه اللوحة ما يلي: "اسمعوني، كل البلاد، كل الأحياء، جيل الشباب والأشخاص المحترمين للبلد المحبوب، أنا ابن لشجاع وبذرة (الإله) لبطل ذو قوة عظيمة، ملك الجنوب والشمال، لقد هزمت البلاد الأجنبية التي اغتصبت حدودي منذ أن أصبحت ملكاً على عرش أتوم، ولم يبق أي بلد بجانبني كان ينافسني، أنا ثابت كثور أمامهم (ثور) بقرون حادة لقد قهرت الآسيويين الذين داسوا تربة مصر ذكرى اسمي خلقت الخوف في بلدانهم ... لقد هزمت الثيكر، وبلاد فلسطين والندن والوشش والشيكليش كما حطمت تنفس المشواش... لقد رفعت وجه مصر"³.

أما بردية هاريس فتذكر: "لقد وسعت حدود مصر، وقهرت الذين غزوها من أراضيهم، لقد ذبحت الدندن في جزهم، الثيكر والبلست أصبحوا رماداً، أما شردان ووشش البحر فقد أصبحوا وكأنه لم يكن لهم وجود لقد أخذوا أسرى في وقت واحد وحملوا

¹ -W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, OP. CIT, PL. 44, P.46-47.

²-Ibid, PL.46, P.56-58.

³-CLAIRE LALOUETTE OP. CIT, P.319.

إلى مصر مثل رمل الشاطئ، وقد وضعتهم في حصون الحدود في اسيوط والعديد في طبقاتهم مثل مئات الآلاف، لقد فرضت عليهم الضريبة عليهم في الملابس والحبوب في المخازن كل سنة".¹

وهكذا انتهت غزوات شعوب البحر على مصر بالفشل الذريع، ولم تستطع هذه الشعوب الدخول إلى أراضي وادي النيل الخصبة، غير أن صورة عالم الشرق الأدنى القديم قد تغيرت تماماً، إذ استقر الفريجيون في آسيا الصغرى خلفاً للحثيين، أما الدوريون فقد استقروا في منطقة حوض بحر إيجه، بينما تشكلت بعض الولايات الحثية الجديدة في شمال سورية، أما في منطقة الساحل الشرقي للبحر المتوسط التي تعرضت لتدمير عنيف أدى إلى اختفاء مدن عديدة كمدينة أوغاريت، فقد ظهر الفينيقيون الذين أصبح لهم دور حضاري كبير في البحر المتوسط في القرون التالية.

أما شعوب البحر فقد استطاع البعض منهم الاستقرار على شاطئ البحر المتوسط، كالفلسطينيين الذين استقروا حول موانئ غزة وعسقلان ويافا، وأسسوا دولة لهم، أصبحت لها أهمية في الفترة التالية رغم أنها ظلت تابعة لمصر.

أما الثيكر فقد استقروا إلى الشمال منهم، كما حاول البعض منهم التسلل إلى مصر سلمياً للاستقرار وخاصة الشردان، والوشش الذين وضعوا في قلاع خاصة لخدمة الفرعون، حيث يقدمون الحبوب وينسجون الأقمشة.

أما المشوش والليبو وربما بعض الأخيين فقد ظلوا في ليبيا مع القبائل المحلية من التحنو والتحمو.

وأما باقي شعوب البحر ومنهم التيرش والشيكلس وربما بعض الشردان فقد راحوا يبحثون عن وطن يستقرون فيه، ومن المحتمل أنهم توجهوا بسفنهم إلى أوروبا خاصة إيطاليا والجزر المحيطة بها كسردينيا وصقلية، وبذلك حملوا لها حضارة وثقافة عالم الشرق الأدنى القديم.²

خاتمة :

هكذا استطاع رعمسيس الثالث صد هجمات شعوب البحر على مصر، ونجح في إنقاذ مصر من هذا الخطر الداهم الذي لم تنج منه الامبراطورية الحثية وسورية وفلسطين- ودون مغالاة- فإننا نؤكد بأن مصر استطاعت أن تصد أخطر غزو بعد غزو الهكسوس إذ لو قدر لهذه الشعوب أن تجتاح مصر فربما كان مصيرها كمصير دولة الحثيين.

المصادر والمراجع :

المراجع العربية والمعربة

1- جاردنر، سير آلن، مصر الفرعونية، ترجمة: نجيب ميخائيل ابراهيم، مراجعة: عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة، 1987.

2- دريوتون، ايتين، فاندييه، جاك، مصر، ترجمة: عباس بيومي، القاهرة، 1950.

¹-J.H.BREASTED, Ancient Records of Egypt, VOLS III- IV, Chicago, 1930, Parag 403.

²-CLAIRE LALOUETTE OP. CIT, P.323-324.

3- مهران، محمد بيومي، حركات التحرير في مصر القديمة، ج3، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1976.

4- مهران، محمد بيومي، مصر والشرق الأدنى القديم – الكتاب الثاني (مصر)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1988.

5- مهران، محمد بيومي، مصر والشرق الأدنى القديم، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990.

6- مهران، محمد بيومي، مصر والعالم الخارجي في عصر رمسيس الثالث، الاسكندرية، 1969.

المراجع الأجنبية :

1-A.H.GARDINER, Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947.

2- ALESSANDRA NIBBI, The Sea Peoples, Oxford, 1972.

3- CLAJRE LALOUETTE, L, Empire des Ramses, Fayard, 1985.

4- HAROLD. M.NELSON, The Naval Battle Pictured at Medinet HABU, Journal of Eastern Studies, 2, Chicago, 1943.

5- J.H.BREASTED, Ancient Records of Egypt, VOLS III- IV, Chicago, 1930.

6- N.K.SANDARS, The Sea Peoples Warriors Of the Ancient Mediterranean 1250-1150 B.C. Thames and Hudson, London 1978.

7-R.D.BARNETT, The Sea Peoples, Cambridge Ancient History II, Chapter 28, 1975.

8- R.DEVAUX,O.P, La Phénicie et Les Peuples de La MER, Mélanges de L, Université, Saint- Joseph, Tome 67, Beyrouth (LIBAN) ,1969.

9-R.O.FAULKNER, Egypt From The inception of the Nineteenth Dynasty to Ramesses III, Cambridge Ancient History II, Chapter 23, 1975.

10- W.F.EDGERTON AND J.A.WILSON, Historical of Ramesses III,1930.

11- W.F.ALBRIGHT, Syria The Philistines and Phoenicia, Cambridge Ancient History II, Chapter 33, 1975.

التكنولوجيا بين الحياة الخاصة والأسرية : دراسة تحليلية

Technology Between Private life and family Analytical study

د. الزهرة الغلي/جامعة شمال غرب للمعلمين، مدينة لانتشو، الصين

professor : Northwest normal university lanzhou china D/ El rhalbi Ezzohra

ملخص :

يعتبر مجال تكنولوجيا الاتصال من أهم الاكتشافات التي طور من خلالها الأفراد موهبتهم العلمية ، جاء نتيجة الاندماج بين المعلومة والتكنولوجيا، حيث أضاف هذا من أهميتهما داخل المنظومة الإنسانية التي عرفت حراكا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا، وحقت قوتها من خلال الاعتماد على مختلف العلوم والأبحاث ليس من أجل الوصول إلى المعلومة فقط، وإنما أيضا البحث عن كيفية تحليلها بشكل يواكب التطور المعرفي، حيث صنف ضمن أهم الاختراعات، الأمر الذي دفع بالمختصين إلى تطويره محققين الاكتفاء الوفير لاحتياجات الأفراد المختلفة الحصول. لكن مقابل كل هذا الانهيار يوجد تخوف وتشويش على الحياة الخاصة للأفراد وما ينتج عن ذلك من ضرر معنوي ومادي الذي يصيب الضحية والمتلقي معا حيث صيب حياته المادية والأسرية . ونخص بهذا التطور المواقع الإلكترونية وخاصة ، مثل موقع " التويتتر " و" الواتساب " " الفايسبوك " و" علي بابا " و" تاوباو " وقد استخدمنا المنهج التحليلي.

الكلمات المفتاحية: تكنولوجيا الاتصال ، المواقع الإلكترونية الأسرة، الحياة الخاصة.

Abstract :

The field of communication technology is one of the most important discoveries through which individuals developed their scientific talent, came as a result of the merger , between information and technology , as this added to their importance with the human system , which defined social , economic, political, and cultural mobility, and achieved their strength by relying on various science and research not for access to information only, but also search for how to analyze it in a way that matches cognitive development, as it was classified among the most important inventions ,which prompted the specialists to develop it, achieving the abundance of the needs of different individuals. but against all this fascination, there is fear and confusion over the private life of individuals and the resulting moral and material harm that afflicts the victim and the recipient together as it affected his material and family life ,and we specifically design this website especially ,such as tewitter WhatsApp , facebook and ali baba , taobao ;we used the analytical method.

مقدمة :

إن أساس الحياة الاجتماعية والأسرية هو الاتصال الذي تطور عبر الزمن حتى أصبح يشكل منظومة قائمة بذاتها تتطلب الكثير من القواعد التي توطئها، وجاء ذلك بناء على أهمية الضرر الذي تلحقه ببعض الأفراد والجماعات والمس بحياتهم الاسرية والخاصة ، ويلخص ذلك في جرائم الاتصال التي تدخل في نطاق دراسة القسم الخاص لأننا نقف من خلالها على دراسة كل جريمة على حدة بتحديد عناصرها وأركانها الأساسية والعقوبة المقررة لها.

وقد صار العالم يعلم مدى الضرر الذي ينتج عن قرصنة الأعمال وسرقتها وقرصنة الصور ونشرها بدون وجه حق وخلق خل داخل التوازن العائلي والأسري ، بالإضافة إلى ذلك هناك الجرائم التي تنتج عن الفيروسات التي تدمر كل شيء ، ناهيك عن الانتهاكات الذي أصبحت تعرفها بعض المواقع من قبل ما يسمى بالقرصنة الإعلامية أو الهاركرز، خاصة الذين يخترقون المواقع الأمنية أو ما يسمى بالإرهاب الإلكتروني، وعموما فهي تخلص إلى هدف واحد وهو المس فيما يدخل في ملكية الغير حيث تجاوز هذا الخلل الصورة ليشمل الاخلاق داخل البيوت وخاصة الاسلامية .

كما أحدثت الثورة المعلوماتية تغييرات أساسية في المجتمع من كافة نواحيه، منذ بداية الاكتشافات التكنولوجية سواء تعلق الأمر الهاتف أو التقني أو عبر الأنترنت ودفعت الحاجة في التواصل إلى البحث عن كافة السبل من أجل تحقيق نتيجة جيدة.

المبحث الأول: مفهوم الحياة الخاصة وتطورها

تكرس جل القوانين والدساتير مبدأ حماية خصوصية الأفراد والمجتمع، ولا يحق لأي شخص أن ينال منها إلا إذا سمح له القانون بذلك، حماية منه للعناصر الأساسية للشخص والتي لا تقوم بدونها، وفي عصرنا هذا أصبحت حقوق الأفراد أكثر عرضة للمس سواء كانت هذه الحقوق أسرية أو مادية أو أخلاقية وحتى العقائدية ، لدرجة أننا داخل بيوتنا يمكن أن نكون مراقبين أثناء نومنا وأكلنا، مثل المراقبة من خلال الهواتف الذكية، ووضع كاميرات صغيرة جدا التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة باعتماد تقنية العالية وفي أماكن يصعب تعقبها، بل أكثر من ذلك يمكن أن تأخذ لنا صورة أثناء اضطلاعنا على بعض البرامج ، ويمكن أن يقع الأمر مع الجميع أحيانا أثناء إبحارنا عبر برنامج من البرامج الإلكترونية تشتغل آلة التصوير لوقت قد لا يتجاوز الثانية وقد تأخذ لك صورة في غرفة النوم وبلا بس خفيفة وتصبح متهما في جريمة أخلاقية ، قد تكون سبب في تدمير علاقاتك العائلية لتقف عن الاشتغال بعد ذلك، وهنا نكون قد تعرضنا لعملية تصوير قد تستغرق مدة زمنية لا تتجاوز بضع ثواني زمنية ، فإلى جانب التقدم العلمي والتكنولوجي الذي أنتج أفقا كبيرة أمام التقدم البشري لتحقيق حياة أسهل وأفضل، هناك مخاطر تهدد الأفراد والمجتمع وتصيب بالدرجة الأولى الحياة الخاصة والأسرية والإنتاج كذلك، وأمام هذه الأسباب عمل المفكرون على منحها الأولوية وذلك بمحاولة تقديم تعريف خاص بها، الأمر الذي استعصى عليهم لصعوبة تحديد الأشياء التي تدخل في إطار الحياة الخاصة، والتي لا تدخل في ذلك، نظرا لتعدد الثقافات واختلافاتها حسب كل مجتمع على حدة وحسب كل فئة دون أخرى.

المطلب الأول : مفهوم الحياة الخاصة في ظل القوانين الدولية

لم تستطع جل الدراسات وضع تعريف خاص ومدقق للحياة الخاصة، نظرا لشموليتها واختلافها حسب كل المجتمعات "وبالتالي فهو لم يزل عائنا بعد، ولم تتحدد أبعاده بصورة دقيقة، كما لم يعرف تعريفا يعتمد على الحدود والرسوم المنطقية من جانب القانون"¹، وإن مرد التركيز على حماية الحياة الخاصة هو للدلالة على أن هنالك خصوصية واجبة الحماية مصانة بعدد من القوانين والمراسيم والأنظمة والقرارات، التي صدرت بهدف ضمان أمنها، مما يسهل عرض هذه الحياة داخل إطار المعلوماتية والمطالبة بحمايتها بعد وضع تصور مقبول للحماية من المخاطر التي يتعرض لها، مثل الحماية من الوجهة المادية، فليس هناك قانون واحد لأجل الحماية إنما عدد من القوانين المتعددة والمتنوعة الرامية لحماية الأوجه المختلفة المهتدة بالمخاطر²، وقد أكد المشرع على ذلك من أجل تأمين كل ما يدخل في إطار الحياة الخاصة، لارتباطها بالأشياء التي تخص الشخص، ثم لأن في مسها ضرراً يصيب هذا الأخير في علاقته بمجتمعه ومحيطه.

وتشمل الخصوصية كل ما يدخل ضمن تفاصيل حياة الخاصة للفرد، أي ما هو خاص بمملكته والتي لا يرغب للغير بالاضطلاع عليها ويحتفظ بها لنفسه، ويسعى جاهدا كي لا تنتشر، ومفهوم الخصوصية له معنى ومضمون يختلف من مجتمع لآخر حسب التقاليد والعادات والقوانين، فالحياة الخاصة في المجتمعات العربية أكثر شمولية بالمقارنة مع المجتمعات الغربية، تتسع لتشمل عدة جوانب، فكلما ارتبطت بالمجتمعات المحافظة تدخل في نطاق حرية الإنسان وحقه في العيش الكريم.

إن صعوبة تحديد المفهوم وإيجاد تعريف خاص، يرجع لسبب دخوله في إطار المفهوم العام لحياة الإنسان، إضافة إلى كونه محكوما بمستويات وأوضاع وعادات في مجتمع محكوم بالقيم الاجتماعية والقواعد الأخلاقية، وتم التركيز عليه في الحريات العامة المتفق عليها عالميا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يرتبط بالظروف الزمكانية التي ينتمي إليها الفرد، فالحياة الخاصة في زمن القرن الثامن عشر ليست هي نفسها في زمن القرن الحادي والعشرين، وتقاليد وعادات الأزمنة الماضية ليست نفسها موجودة في الزمن الراهن، لأن الأفراد أصبحوا أكثر تحررا، والسبب هو التطور الذي عرفته تكنولوجيا التواصل، حيث خرقت الحدود الجغرافية والجوية وأصبحنا نتحدث عن عولمة ثقافية بالدرجة الأولى، الأمر الذي يدفعنا لنطرح السؤال حول كيفية تحدثنا عن ذلك أمام كل هذه التطورات التكنولوجية.

وقد تم تحديد وحماية الحياة الخاصة للأفراد من قبل القضاء، وذلك بتطبيق الأحكام والقواعد التي تؤطر المجتمع، وبعد ذلك لجأ المشرع إلى وضع قوانين جنائية من أجل المزيد من الحماية، حيث نجد ذلك في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والدساتير والقوانين الغربية، حيث تجاوز هاجس تحديد تعريف الحياة الخاصة نطاق الفقه والقضاء ليشمل المجتمع المدني.

¹- عبد اللطيف الهميم، احترام الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية دار عماد للنشر، ط 1، سنة 2004، ص 10.

²- نعيم مغيب: مخاطر المعلوماتية والانترنت، لبنان، منشورات حلي اللبنانية، بيروت، ط 2، سنة 2008، ص 19.

أولا: حماية الحياة الخاصة في القانون المغربي والقانون المقارن

1- القانون المغربي

منح المشرع المغربي لكل فرد حق حماية حياته الخاصة، حيث لا يمكن الترخيص بالاضطلاع على مضمونها أو نشرها كلها أو بعضها إلا بأمر قضائي، وفق الشروط التي ينص عليها القانون¹، إدراكا منه للتعدي الذي أصبح يصيب الحقوق للصيقة بالشخصية، والذي تزايد مع التطورات المختلفة للتكنولوجيا خلافا للماضي، الذي كان لا يعرف التكنولوجيا ووسائل التواصل التي نعيشها اليوم، فقط أعطى الحق في الحماية عوض أن يحدد مفهومها والسبب يرجع لتغيره حسب العادات، وبالتالي فالأمر قضائيا يترك للسلطة التقديرية للقاضي، حسب الاجتهاد بمراعاة المحيط الذي ينتمي أو تنتهي إليه الضحية.

كما عاقب على المس بالخصوصية من خلال قانون الصحافة والنشر وخاصة الفصل 89، حيث يعد تدخلا في الحياة الخاصة كل تعرض لشخص يمكن التعرف عليه، وذلك عن طريق اختلاق ادعاءات أو إفشاء وقائع أو صور فوتوغرافية أو أفلام حميمية لأشخاص أو تتعلق بحياتهم الخاصة، ما لم تكن لها علاقة وثيقة بالحياة العامة أو تأثير على تدبير الشأن العام. بالإضافة إلى ذلك عاقب عليها من خلال الدستور في المادة 24 ويتعلق بحق كل شخص في حماية حياته الخاصة وذلك في الباب المتعلق بالحريات والحقوق الأساسية، ثم تحديد المشرع المغربي لمكان خاص من حيث وجود شخص وبت أو تسجيل أو توزيع صورة له دون موافقته، أصبح بمقتضى الفصل 447 من القانون الجنائي جرما يعاقب عليه من 6 أشهر إلى 3 سنوات، غير أن الإشكال يكمن في مدلول المكان الخاص، هل يقصد به منزله أو مكان عمله أو مكان ممارسة الشعائر الدينية أو مكان ممارسة الرياضة المفضلة إلى آخره.

وأعتقد أن كل ما يدور في المكان الخاص للإنسان كبيته ومكتبه يعتبر بالضرورة خصوصيا، كما أن التقاط أو تسجيل محادثة تليفونية أو بثها من غير موافقة صاحبها تعتبر جريمة لأنها مساس بحرمة الحياة الخاصة، ولأن الخصوصية تتوفر دائما في المحادثات التليفونية، شأنها شأن المنزل، وأن مجرد الاطلاع على ما يروج فيهما يعتبر مساسا بالحق في الخصوصية، وبالتالي اعتداء على الحياة الخاصة².

إذن فبالرغم من صعوبة وضع تعريف شامل وخاص بمفهوم الحياة الخاصة إلى أن جل القوانين الوطنية المغربية اعتبرتها خط أحمر لا يجب تجاوزه خاصة أمام ما أصبحنا نعيشه كل ثانية وكل دقيقة، وكيف يتم استغلال التكنولوجيا في التصديق ووضع صور وفيديوهات من أجل النيل من سمعة بعض الأشخاص أو لغرض ابتزازهم وهذه الظاهرة الخطيرة أصبحت تعرف انتشارا متسارعا بدول مختلفة.

2- القانون الفرنسي

منح للدولة الفرنسية دور الزعامة والبطولة في السبق للإقرار بحق الخصوصية، حيث ساهم الفقه والقضاء في هذه الأخيرة بدور فعال في فعل الاعتراف بالحق في حرمة الحياة الخاصة، قبل أن يقره المشرع سنة 1970 بوصفه حقا مستقلا، لاسيما أن الفقه الذي أدى دورا أساسيا في إقرار هذا الحق، ودافع عنه وطالب القضاء دائما بمزيد من الاعتراف به والتوسع في معناه

¹ المشرع المغربي: دستور 2011، الصادر بتنفيذ الظهير الشريف رقم 1.11.91 بتاريخ 29 يوليوز 2011، الفصل 24، إعداد وتقديم محمد لفروجي، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1، سنة 2011، ص 27.

² - <https://assabah.ma/334049.html>/الحياة-الخاصة-الارتباك

وتحديد مجاله، وأول من وضع أسس ومفهوم الحياة الخاصة في فرنسا القضاء ففي سنة 1858م، وأقرت محكمة السين للإنسان في نفس السياق، بالحياة الخاصة الجديرة بالحماية، عند إثارة موضوع انتهاك الحق في حرمة الحياة لأول مرة أمام محكمة السين الابتدائية في قضية الممثلة الفرنسية الشهيرة "راشيل" وتتخلص وقائعها في أن أحد رجال الإعلام التقط صورة فوتوغرافية لتلك الممثلة بعد وفاتها، وهي ملقاة على فراش الموت قبل دفنها، ونشر هذه الصورة في إحدى الجرائد، وعلى إثر ذلك أقامت أسرته دعوى ضد الصحيفة، تأسيساً على ما أصابها من ضرر من جراء النشر، فقضت المحكمة لصالحها بناء على أن لها الحق في سرية حياتها الخاصة، وأن هذا الحق لا يحتمل المناقشة وهو ما يستوجب ضرورة الحصول على موافقة ذوي الحقوق لالتقاط صورة فوتوغرافية لها، مهما كانت شهرتها الفنية، وحتى لو كان الغرض من التصوير إعداد برنامج كامل عن حياتها. إذن سبب الجريمة نشر صورة جثة، صدر عنه حكم بالتعويض للأقرباء الضحية فما بالك في عصرنا هذا وما ينشر بمئات المواقع الالكترونية وحتى بعض الجرائد الالكترونية التي لها اسم مشهور، ويمكن بنقرة واحدة تخرج لنا عشرات النماذج عن ذلك في مركز البحث العالمي قوقل، حيث تسارع بعض المواقع الالكترونية إلى بث فيديو ذبح وتقطيع لريح المزيد من الإعجاب، وارتفاع سبب النقرة الذي كلما ارتفع كلما كان الريح أكثر، وخير دليل جريدة ذبح السائحين الدنماركية والترويجية بالمغرب نهاية سنة 2018 بمنطقة الحوز وكيف تنافست بعض المواقع على نشر فيديو الذبح البشع الذي يتنافى والأخلاق الإنسانية. أو يتم وضع إعلان يوهمون به المتلقي بأن الخبر المهم وعندما تنقر تجد تفاهة، فكيف لصحافة تحترم نفسها أن تفعل هذا والهدف الأساس دائماً هو المزيد من الريح.

وقد عاقب المشرع الفرنسي على ذلك بالحبس من شهر إلى سنة وغرامة من 2000 حتى 6000 فرنك، أو إحدى هاتين العقوبتين كل من يوقع الاعتداء على ألفة الحياة الخاصة للأفراد¹، ويحصر المشرع الفرنسي الأفعال الاعتداء على الحياة الخاصة وجرائم التشهير وجريمة إفشاء الأسرار في المادتين 368-372 من قانون العقوبات على الشكل التالي:

- التجسس بواسطة الأجهزة السمعية البصرية.
- نشر المطبوعات تتضمن أقوالاً أو صوراً لأحد الأفراد.
- استخراج نسخ من أحد أجهزة التسجيل، أو الأفلام التي تستخدم أقوالاً أو صوراً لأحد الأفراد بغير موافقة².

وقد حصر المشرع الفرنسي وسائل العلانية التي يتم بواسطتها المس بالحياة الخاصة في الأجهزة السمعية البصرية من قنوات فضائية أو أرضية ثم الإذاعات، ثم المطبوعات من جرائد ومجلات وغيرها، أو باستخراج ما يدخل في حكم خصوصية الأفراد من الأفلام وأشرطة التسجيل، وبهذا يكون قد أشار إلى وسائل الاتصال والإعلام في عموميتها.

ونرى بأن المشرع الفرنسي اشترط لتوفر الخصوصية وجود الشخص معين في مكان خاص، الأمر الذي يطرح صعوبة لدى القضاء أحياناً حينما يتم هناك تداخل بين الأمكنة العامة والخاصة، وتصعب مهمة تحديد نوعية المكان لأن المكان الذي يعتبر خاص وشهد حضوراً كبيراً من الناس أثناء وقوع الحادثة، فهل يعتبر هنا في حكم الخاص أم في حكم العام، حيث يترك الأمر للسلطة التقديرية لقاضي الموضوع، مثل غيرها من الدعاوى التي يعود حكمها إلى اجتهاد القاضي، بالإضافة إلى ذلك فقط نص

¹ - Roland du mas . le droit de information presses universitaires de France .op.560.

² - عبد اللطيف هميم: احترام الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية والقانون المقارن، دار عمادة للنشر والتوزيع، ط 1، سنة 2004، ص 75.

على مفهوم الخصوصية في القانون المدني كذلك من خلال المادة 9 التي تنص على مايلي: " لكل شخص الحق في احترام حياته الخاصة"¹، معنى أن حرمة الخصوصية تدخل في نطاق الحقوق الطبيعية التي كرسها الشرائع السماوية قبل القوانين الوضعية" لإذن هذه مجموعة من المواد القانونية الفرنسية التي جرمت في سابق عهدها جريمة المس بالحياة الخاصة وهي واضحة ولا لبس فيها ، وكل شخص حتى وإن كان غير متخصص في الحقوق يستطيع فهم المواد المجرمة للفعل بسلاسة .

ثانيا : الاعتراف بالخصوصية في القانون الأمريكي

ذهب القضاء الأمريكي على غرار الفرنسي في اعترافه بالخصوصية، وهذا ما اعترف به كل من وارين وبرانديز²، وعلى عكس القضاء فالفقه انشطر إلى قسمين: رأي رفض الاعتراف بالحق في حرمة الحياة الخاصة بوصفه حقا مستقلا وجانب اعترف باستقلالية هذا الحق، حيث تصدى الفقهاء الأمريكيون لهذه القضية وأوضح أن نظام Common Law لم يقف جامدا أمام التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسة المستجدة، بل يكاد يجدد شبابه على مر العصور وكلما أسفر التقدم العلمي عن ظهور ما قد يسبب أذى للمرء بشكل أو بآخر، فإن القانون يهب لحمايته ويكون في خدمته³.

وبالرغم من كون الفقه لم يعرف بالخصوصية في شموليتها إلا أن مبادئ الحرية الشخصية أثرت في التعديل الرابع للدستور سنة 1789م، والذي أكد على حرمة البيت ومنذ ذلك الزمن أصبحت الحرية الفردية معترفا بها، وبالتالي فكل مس بالحقوق اللصيقة بالأشخاص، سواء كانت له علاقة بممتلكاتهم أو مساكنهم أو صورهم وإبداعاتهم، فإنه يعاقب عليه وفقا للقوانين المنصوص عليها.

ولبيان حجم تفسير نصوص الدستور الأمريكي نشير إلى قضية Olmstead والتي سجل فيها القاضي Brandeis رأيه المعارض لرأي أغلبية أعضاء المحكمة العليا الذين قضوا بأن الرسائل عبر أسلاك التليفون ليست من بين ما قصد التعديل الدستوري الرابع حمايتها من التفتيش والضبط غير المعقول وذكر القاضي "برانديز" في المحكمة بتفسير النصوص الدستورية، لتغطي نشاط وأهداف ما كان في وسع الآباء أن يتنبؤوا بها وشبه استراق السمع بالتجسس وفي فقرة مشهورة قال برينديز: إن مشرع الدستور قد أخذوا على عاتقهم ضمان الظروف المناسبة لتحقيق السعادة وتداولوا حق الناس في التحرر من التطفل الحكومي الذي لا مبرر له وهو تطفل على خصوصية الفرد، وبصرف النظر عن الوسائل التي تستخدمها الحكومة، فإن هذا التطفل يعتبر انتهاكا للتعديل الدستوري الرابع، وإن استخدام ما تم التوصل إليه عن طريق هذا التطفل في إجراء الإثبات الجنائي يجب اعتباره انتهاكا للتعديل الخامس وفي إطار الإصلاح الدستوري تجاوزت الحياة الخاصة ما يتعلق بالمسكن والممتلكات والحياة الأسرية إلى الأحاسيس والمشاعر، حيث منحت المحاكم مفهوما جديدا للخصوصية بمعنى الحق بالانعزال والسرية، وبالتالي أصبح معيار الخصوصية يتجاوز المكان ليشمل الإنسان نفسه، وللجزم بوجود إساءة أم لا فإنه يرجع مبدأ "الرجل المعتاد" لقبول التصرف أو لرفضه، وبناء عليه اعتبر بمثابة انتهاك للحق في الخصوصية، سماح الحكومة إجراء دعايات داخل

¹ - Roland Dumas .op.cit. p 541.

² - weren et brandes.op.p 214.signé par ebde latife haatame.op.p67.

³ - آدم عبد البديع ادم حسين: الحق في حرمة الحياة الخاصة ومدى الحماية التي يكفلها له القانون الجنائي، رسالة لنيل دكتوراه في الحقوق تحت إشراف محمود نجيب حسني، جامعة القاهرة، سنة 2000، ص73.

"باصات" شركة خاصة، لكن الناس قد لا يرغبون بسماع ما تطرحه الحكومة"¹، وعموما إن الخصوصية الأمريكية تشمل ما هو مادي ومعنوي بما فيه حرية الاجتماع والتعبير المعتقد الديني، وعموما حرية الاختيار والرأي.

وينظر شراح القانون الدستوري في الولايات المتحدة إلى التعديل التاسع والعاشر باعتباره أب الحق في حرمة الحياة الخاصة، فالدستور الاتحادي وتعديلاته الأخيرة قد كفل لكل الأفراد ولكل الأجيال القادمة جوهر الرجل الحر والمجتمع المفتوح، وقد أدرك ذلك من سن الدستور وتعديلاته العشرة الأولى، بعد أن تحقق من عدم إمكان سد جميع الثغرات وتغطية كل المواقف والحالات تنبأ بما قد يجد من احتياجات ومشاكل أمة جديدة ومجتمع مفتوح، وبالنظر لهذا التطور في قصور النصوص فقد تحفظ من وضع الدستور الاتحادي من البداية بالنص على حق الشعب الأمريكي في تعديل الدستور، وتشير التعديلات وصياغة التعديلين التاسع والعاشر بوضوح إلى أن الحقوق ليست على سبيل الحصر وإنه نظرا لعدم استطاعتهم تعريف وتحديد كل الحقوق التي ينبغي توفيرها للمواطنين في المجتمع الحر، فإن الشعب ذاته هو صاحب الرأي في هذه الحقوق²، وبالتالي فالقضاء كان جد حريص على تمتع الفرد الأمريكي بكل الحقوق التي ينص عليها الدستور بما فيها التي لم يتم التنصيص عليها صراحة، وذلك لضمان الظروف المناسبة لتحقيق وحماية الأفراد من التدخل الحكومي متجاوزا بذلك حق الأفراد في عيش حياة كريمة وحرية، ولا يأتي في ذلك إلا وجود استقلالية تامة بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية، مع احترام مبادئ الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، مادام الشعب هو الذي يختار الحكومة التي تمثله، وبالتالي على هذه الأخيرة أن تحقق الاستقرار للأفراد.

المطلب الثاني: حماية الحياة الخاصة والأسرية في الشريعة الإسلامية

1- حماية الحياة الخاصة

لقد تكفل الإسلام بحماية الحق في حرمة الحياة الخاصة إلى حد تتضاءل دونه كل حماية وفرتها له القوانين الوضعية، وكانت هذه الحماية منذ أنزل الله الإسلام على رسوله "صلى الله عليه وسلم" فهي مطروحة في النصوص الإسلامية قرآنا وسنة وليس مجرد توجيهات أخلاقية لا تقوى على رفع نظام تشريعي أو بناء فقهي، وإنما واجبات يأت من يتركها ويعاقب من يهتك سترها أو ينتهك حرمتها³، ونادى الدين الإسلامي الذي جاء بنظرية متكاملة حول هذا الموضوع نظرا لكونه لم يتعرض للتحريف وحفظه عز وجل في الصدور " بوضع نظام متكامل لحماية الحياة الخاصة، بالرغم من عجز القوانين الوضعية إلى الوصول

¹ - محمد عبد المحسن المقالع: حماية الحماية الخاصة للأفراد وضماناتها في مواجهة الحاسوب الالي، سنة 1993، [استشهاد مأخوذ من] نعيم مغيب، مخاطر المعلوماتية والانترنت، مرجع مذکور، ص25.

² - Chirif bassiouny. criminal law and its processes. 1972. p.395. signè. par adame abd lbadia. hassan, Droit à la vie privée. op. cit, p 76.

³ - محمد كمال الدين إمام: الاحتساب وحرمة الحياة الخاصة، قراءة في تراث الفكر الإسلامي، بحث مقدم إلى مؤتمر الحق في الحياة الخاصة، كلية الحقوق جامعة الاسكندرية، ص5، [ادم عبد البديع آدم حسن، مرجع مذکور، ص55.

لمستواه في مجال حماية حق الخصوصية، وجعلتها ضرورة إنسانية مثل سائر الضرورات اللازمة لإقامة مجتمع إسلامي سليم¹، ونص الله عز وجل على ذلك في كتابه الكريم، كما وردت في سنة رسوله محمد "عليه الصلاة والسلام".

فمنذ بداية الإسلام عني بتنظيم الأوجه المختلفة لحق الانسان بالتمتع بحياته الخاصة بعيدا عن أعين الآخرين، فوضعت الآيات مبدأ حرية المسكن والحرية الشخصية للأفراد²، وتم تكريس ذلك في مختلف الآيات القرآنية مثل قوله تعالى "يأبها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا"³، كما أن الإسلام فضل السيف في حماية الخصوصية إلى أقصى درجات الحماية الشرعية، فكفل للفرد الحق في أن يقاوم الاعتداء الواقع على حياته وأن يدفعه بالشيء الذي يندفع به لأنه اعتداء على حقه في الاحتفاظ بخصوصيته وأسراره⁴، كما جاء بدستور شامل يضع الحدود، ويمنح الحقوق وهو خير قانون يجب الأخذ به، وأنزل بذلك آيات تنظم جميع المبادئ والمجالات سواء تعلق الأمر بما هو حقوقي وقانوني أو تجاري واقتصادي التي لا تختلف مهما اختلف المكان أو الزمان، وبالتالي فإن دين محمد "صلى الله عليه وسلم" سبق المنظمات الدولية والحكومات في إكرام الأفراد من خلال حماية حياتهم الخاصة، ويتجلى ذلك في تقريره للضوابط الشرعية التي من شأنها صيانة أسرار الغير من التقصير أو الاضطلاع غير المشروعة⁵، حيث يقول عز وجل في كتابه الكريم "يأبها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أركبى لكم بالله بما تعملون عليهم"⁶، فمنع سبحانه عدم الاستئذان والنميمة والغيبة والمس بالآخر سواء أثناء حضوره أو أثناء غيابه، كما لا يجوز التجسس على الأفراد لأنه يؤدي إلى الوقوف على العورات المحرمة في الشريعة الإسلامية ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الظن وورد عنه حديث بخصوص ذلك، "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا"⁷.

وإن الدلائل على تكريم الله عز وجل في الشريعة الإسلامية متعددة حسب آياته وسوره، فهو كلام الله المقدس الذي عجز عن الإتيان بمثله وإن اجتمعا الخلق كله، موازاة مع ذلك اشترط سبحانه وتعالى الاستئذان للاطلاع على أسرار الغير ويتضح ذلك من خلال قول تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ

1 - حسني الجندي: ضمانات حرمة الحياة الخاصة في الإسلام دار النهضة العربية، ط 1، 1993، ص 22، [استشهاد مأخوذ من] آدم عبد البديع آدم حسين، الحق في حرمة الحياة الخاصة ومدى الحماية التي يكفلها له القانون الجنائي، مرجع مذکور، ص 3.

2 - نعيم مغيب: مخاطر المعلوماتية والانترنت، مرجع مذکور، ص 20.

3 - القرآن الكريم: سورة الحجرات الآية 12.

4 - محمد راكان الدغني: حماية الحق في الشريعة الإسلامية، دار السلام، بدون تاريخ، ص 35.

5 - عفيفي كامل عفيفي: ماجستير في القانون، جرائم الكمبيوتر، وحقوق المؤلف والمصنفات الفنية ودور الشرطة والقانون دراسة مقارنة، سوريا، تقديم فتوح الشاذلي منشورات الحلبي الحقوقية، ط 2، سنة 2007، ص 318.

6 - القرآن الكريم: سورة النور، الآية 28.

7 - صحيح البخاري بفتح الباري، المطبعة الكبرى، مصر، 1300هـ، ج 10 ص 384، رقم الحديث 2.66 [استشهاد مأخوذ من] آدم عبد البديع آدم حسين، الحق في حرمة الحياة الخاصة ومدى الحماية التي يكفلها له القانون الجنائي، مرجع مذکور، ص 56.

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹.

ثم إن من نظر إلى عورة مسلم من شقة باب أو ثقب أو نحوه فإنه يكون لصاحب البيت دفع الأذى عن بيته ونفسه فله رميه بحصاه أو حديدة، فالحياة الخاصة حرمت في القرآن والسنة قبل القوانين الوضعية، ولولا ضرورة الالتزام بعدد معين من الكلمات في هذا المقال لا تطلب الأمر كتابة كتب حول مدى تحريم الدين الإسلامي الحنيف لجرم المس بالحياة الخاصة.

2- الحياة الأسرية في الشريعة الإسلامية

إن الحياة الأسرية من أهم المسائل التي أحاطتها الشريعة الإسلامية الغراء بحماية مقدسة، حيث وضعتها في إطار مؤسسة الزواج، التي تتضمن العديد من الحقوق والواجبات الأسرية التي تسري على الأم والأب والأبناء، بل تجاوزت ذلك إلى حسن البر بالوالدين وصلة الرحم مع الأقارب، ومساعدة المحتاجين وزيارة المرضى وجعلت الأجر مضاعف في حالة التصديق على الأقرباء... وتعتبر الأسرة مؤسسة مرتبطة بالحياة الجنسية هدفها تربية الأبناء على الأخلاق الحسنة والحميدة بعيدا عن الفسوق والعصيان كما تعني الطمأنينة والاستقرار والسكن والراحة، لذا قدما القرآن والسنة عدة نصائح وقواعد لاختيار شريك -ة- الحياة بعيدا عن الماديات مركزا على الدين والنسب عوض المال والجمال.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: تنكح المرأة لأربع، لمالها ولنسيها ولجمالها ولدينها فأظفر بذات الدين تربت يداك. صدق رسول الله. ويعتبر هذا الحديث أحسن دليل لدخول طريق زواج مستقيم، تحقق من خلاله السلامة الأسرية من كل شائبة تشويها وتحصن ضد الحد الخيبي لسيف تكنولوجيا التواصل. ولا أطيل عليكم في هذا وسأنتقل لإحاطة طفيفة عن المفهوم القانوني للأسرة، حيث عرفها القانون الوضعي وخاصة المادة 23 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية بأن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الطبيعية والأساسية في المجتمع، ورغم التأكيد على ضرورة تمتع الأسرة بحماية المجتمع والدولة إلا أنه لم يتعرض للعنف الأسري وفي فحوى التعليق العام رقم 19 لهذه المادة من قبل اللجنة المعنية بالحقوق المدنية والسياسية، كما لخصها الميثاق العربي لحقوق الإنسان لسنة 2004 في المادة 33 على أنها الوحدة الطبيعية والأساسية للمجتمع، والزواج بين الرجل والمرأة أساس تكوينها وللرجل والمرأة تأسيس أسرة وفق شروط وأركان الزواج على أن ينظم التشريع النافذ الحقوق والواجبات لهما وتكفل الدولة والمجتمع حماية الأسرة وتقوية أواصرها وحماية أفرادها وتحظر أشكال العنف وإساءة المعاملة بين أعضائها وبخاصة المرأة والطفل².

لكن وبسبب التكنولوجيا التي جمعت العالم في قرية صغيرة، أصبحت هذه الأسرة التي كتب فيها مجلدان ذات طابع ديني تخترق بسهولة من طرف جهات غربية وشرقية، حيث يمكن للطفل أن يجلس أمام الكمبيوتر ساعة واحدة تكفي ليلف فيها العالم ويتعرف ويحفظ الجانب السلبي فيه أكثر من الإيجابي، ويتلقى الناشئ مفاهيم متعددة قد تتعارض مع عقيدته وتربيته الدينية، ونحن نعلم المشاكل التي تعانيها الأسر المسلمة التي تستقر بأوطانها أما الأسر المسلمة التي تعيش في ديار المهجر

1 - القرآن الكريم،: سورة النور، الآية، 62.

2 - مفهوم الأسرة وفقا للمعايير الدولية والتشريعات الوطنية - صحيفة الرأي <http://alrai.com/article/679452.html>

فحدث ولا خرج ، حيث الفسوق والعصيان أصبح منتشرًا بحجة الحرية الفردية ، وتقليد الغير ، والتقليد لم يعد يتوقف على شكل موضة شعر الرأس أو اللباس فقط بل تجاوز ذلك ، حيث أصبح الزواج من الأجنبي -ة- موضة أيضا ومجال دخل المنافسة العائلية ، وإن كان ليس على دين محمد، بل يتم التناول على الاسلام أيضا حيث يتم إظهار إسلام مزور، من أجل الحصول على وثيقة مسلم أو مسلمة فقط لإتمام شروط الزواج ، و كل عائلة عربية تقريبا أصبحت توجد بينها حالة من هذه الحالات أو اثنتين.. نظرا لانتشار مواقع التواصل الاجتماعية التي تعرض الالاف من مثل هذا الزواج ، والذي ينتج أسرة مفككة يصعب تصنيفها ، نظرا لاختلاف الثقافات والديانات وإنتاج جيل لا يهتم لأمر أحد، أجوف فارغ لا يفيد نفسه ولا غيره

المبحث الثاني: تكنولوجيا الاتصال وبعض القواعد القانونية

نعلم أن للتكنولوجيا تأثيرات تشمل عدة مجالات فإذا كانت تهدد الاستقرار الفردي وتمس بالحياة الخاصة للأفراد وتؤثر على الثقافات المجتمعية وتهدد الموروث التاريخي الذي حافظت عليه الجماعات والأفراد لأجيال فإن لها أيضا تأثيرات عميقة على التشريعات القانونية مثل القانون التجاري، والملكية الفكرية والقانون الجنائي والنظام الفضائي والاستثماري الذي يفرض تشعبا على هذا الموضوع، الأمر الذي دفعنا للتركيز على الجوانب الأكثر تأثرا بهذه التكنولوجيا والتي عرفت اكتظاظا داخل محاكم المملكة في السنوات الأخيرة، ونضرب المثال بالملكية الفكرية والتعاقد الإلكتروني والتجارة عن بعد، فإن كانت له ميزة السرعة في إبرام العقود والحصول على الإيجاب والقبول في مدة زمنية قصيرة، فله مضار نظرا لتطور تقنيات الكراكز Keracare والهاركاز Harkaz*، التي أصبحت تهدد الأبنك النقدية والمعلوماتية على السواء، وتأسيسا عليه فلا بد من التطرق لهذا الموضوع من أجل الوقوف عند بعض الإشكالات التي تعارضه، وذلك بتقسيم هذا المبحث إلى مطلبين ، نتناول في الأول مدى تأثير هذه التكنولوجيا على المعاملات التجارية، وفي الثاني ندرس كيفية حماية الملكية الفكرية من هذا المد التكنولوجيا.

المطلب الأول: جوانب تأثير تكنولوجيا الاتصال على العقود التجارية

قد عرف بأن للتكنولوجيا وخاصة نظام الكمبيوتر والأنترنت أثرا بالغا على القانونين المدني والتجاري وخاصة في العلاقات التعاقدية والإثبات¹، فهي ليست خيرا خالصا، كما أنها ليست شرا صرفا، وعادة ما تجمع بين ما هو إيجابي وما هو سلبي، وبالتالي فالتعاقد الفوري عبر نظام الكمبيوتر ينتج حركات بيع وشراء واسعة، كما ينتج أيضا الحركات الإلكترونية التي تدعم توليد بعض العوائق.

أولا: تأثير النظام الإلكتروني على القانون التجاري

تتأثر المعاملات التجارية في العصور الحديثة بالتكنولوجية المتطورة نظرا لتمييزها بعدة خصائص من بينها السرعة في التعاقد وسهول الحصول على المنتج دون بدل جهد، حيث يمكن أن تتعاقد مع زبون عبر الأنترنت، وندفع له عبر بطاقة

*- الكراكز فقط يهدمون ويسرقون ما بينه الهاركاز التي تسعى إلى خلق تقنيات عالية برامج توظف في المصلحة العامة.

¹- عبد الفتاح مراد: التجارة الإلكترونية والبيع والشراء على شبكة الانترنت والتشريعات العربية والدولية، مصر، دار الكتب والوثائق المصرية،

الائتمان وتتوصل كذلك بالسلع في المكان الذي توجد به لكن أي سطر يمكن أن يحصل يمكن أن تترتب عنه بعض الإشكالات، الأمر الذي دفع بالمشرع إلى وضع قواعد قانونية لتأطير هذا العمل ومراقبته.

وقد ذهب المشرع المغربي على غرار ذلك، حيث عمد على وضع قانون تحت رقم 53.05 الذي يحدد النظام المطبق على المعطيات القانونية يتم تبادلها بطريقة إلكترونية على المعادلة بين الوثائق المحررة على الورق، وتلك المعدة على دعامة إلكترونية والتوقيع الإلكتروني، كما يحدد الإطار القانوني المطبق على العمليات المنجزة من قبل مقدمي خدمات المصادقة الإلكترونية، وكذا القواعد الواجب التقيد بها من لدن مقدمي الخدمة المذكورة ومن لدن الحاصلين على الشهادات الإلكترونية المسلمة¹، وقد اعتبر المحرر الإلكتروني وثيقة قانونية يمكن الإدلاء بها عند الحاجة باستثناء الوثائق المتعلقة بتطبيق أحكام مدونة الأسرة، والمحررات العرفية المتعلقة بالضمانات الشخصية أو العينية، ذات الطابع المدني أو التجاري، التي لا تخضع لأحكام هذا القانون ماعدا المحررات المنجزة من لدن شخص لغرض مهنته، ونخص هنا الضمانات أي الدلائل والحجج التي نعتمدها عندما نطالب بحق قانوني معين، ويتأثر المجال التجاري أكثر من غيره بالتطور التكنولوجي لكونه يتيح عبر الأنترنت تجارة في السلع والخدمات مثل عمليات تعزيز الطلب والشراء المعلومات، حيث إن التجارة الإلكترونية تتيح عبر الأنترنت عمليات دعم المبيعات وخدمة العملاء، ويمكن تشبيه هذه الأخيرة بالسوق الإلكترونية يتواصل فيه البائعون (مورودون أو شركات أو مجلات والوسطاء، والمشترون) وتقدم فيه المنتجات والخدمات في صيغة افتراضية أو رقمية، كما يدفع السعر بالطرق الإلكترونية²، ونظرا لحساسية هذا المجال ولارتباطه برأس المال والصفقات، فإن التعامل الإلكتروني له شروط خاصة كما له فوائد متعددة.

1- ضوابط العقد الإلكتروني

يستفيد من التعاقد الإلكتروني الأفراد كما تستفيد منه الشركات فيما بينها وفي تجارتها مع الأفراد العاديين كذلك، شرط أن يضع المرسل شروط التعاقد بشكل واضح دون لبس أو إبهام من أجل الحصول على موافقة تامة من المرسل إليه، ويجب أن يتضمن العقد الخصائص الأساسية للسلعة أو الخدمة المقترحة أو الأصل التجاري المعني أو أحد عناصره، ثم يختلف المراحل الواجب إتباعها لإبرام العقد بطريقة إلكترونية على القواعد المهنية والتجارية الذي يعتمده صاحب العرض الخضوع لها عند الاقتضاء³، واعتبر المشرع المغربي بأن كل اقتراح غير متضمن لكافة البيانات المشار إليها في هذا الفصل لا يجوز اعتباره عرضا بل يبقى مجرد إشهار ولا يلزم صاحبه⁴، فحرصا منه على ضمان التجارة الإلكترونية وضع المشرع مجموعة من الشروط حماية منه للمتعاقد الثاني أي المرسل إليه، خاصة أننا أصبحنا نعيش جرائم إلكترونية كثيرة في السنوات الأخيرة سببها النصب والاحتيال على المتعاقدين من طرف المعلنين هذا من جهة المعلن، أما بالنسبة للمرسل إليه فإنه يصبح ملزما بالعرض بشكل لا رجعة فيه بمجرد تسلمه للعرض، ويجب على صاحب العرض الإشعار بطريقة إلكترونية ودون تأخير غير مبرر بتسلمه قبول

¹ - المشرع المغربي: قانون رقم 53.05 المتعلق بالتبادل الإلكتروني للمعطيات القانونية المادة الأولى موسوعة التشريعات المدنية والجنائية، جمع عبد الرحيم بعبيد وضياء علي أحمد نعمان المطبعة الوطنية، مراكش، ط 1، سنة 2010، ص 10.

² - لورنس محمد عبيدات: إثبات المحرر الإلكتروني، لبنان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، سنة 2005، ص 9.

³ - المشرع المغربي: قانون رقم 05.53، عبد الرحيم بن بوعيدة وضياء احمد لقمان، مرجع مذكور، ص 12.13.

⁴ - المشرع المغربي: قانون رقم 05.53، نفس المرجع، ص 13.

العرض الموجه إليه¹، لأن التراضي أهم شرط في العقود سواء الالكترونية أو التقليدية وتعتبر شروط عامة يمكن أن يتخذها العقد التجاري والعقود المدنية كذلك.

إضافة إلى الإشكالات التي تطرح في التعاقد التجاري الالكتروني والمتعلقة بالشروط المنظمة في العروض ومسألة النصب والاحتيايل الإلكتروني يطرح مشكل الإثبات وتقبل الوثيقة المحررة بشكل إلكتروني للإثبات شأنها في ذلك شأن الوثيقة المحررة على الورق، شريطة أن يكون بالإمكان التعرض بصفة قانونية على الشخص الذي صدرت عنه وأن تكون معدة ومحفوظة وفق شروط من شأنها ضمان تماميتها²، بالمقابل يطرح هذا الإشكال حول قوة الإثبات بالنسبة للنسخة الأصلية من النسخة المنسوخة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار كون النسخة الأصلية للمحرر الورقي تختلف عن المنسوخة، أما المحرر الالكتروني فهو دائما أصلي ولا وجود لنسخة ثانية فيه مادامنا نقوم بطبعه من الآلة الناسخة.

ويفرض علينا شرط الإثبات التطرق إلى التوقيع والمصادقة الإلكترونية، الذي يتيح التعرف على الشخص الموقع، ويعبر عن قبوله للالتزامات الناتجة عن الوثيقة المذكورة وتصبح الوثيقة رسمية إذا وضع التوقيع المذكور عليها أمام موظف عمومي له صلاحية التوثيق، وفي حالة التوقيع الالكتروني يجب استعمال وسيلة تعريف موثوق بها تضمن ارتباطه بالوثيقة المرتبطة به، والتأمين شرط أساس لضرورة الوثوق في الوسيلة المستعملة في التوقيع الإلكتروني، حيث يعتبر هذا الأخير مؤمنا إذا تم إنشاؤه وكانت هوية الموقع مؤكدة وتامة الوثيقة القانونية مضمونة وفق النصوص التشريعية والتنظيمية المعمول بها في هذا المجال، وتأسيسا على ذلك تحصل كل وثيقة مذيلة بتوقيع إلكتروني مؤمنة والمختومة زمنيا، بنفس قوة الإثبات التي تتمتع بها³، وبالتالي فكل وثيقة مصحوبة بتوقيع إلكتروني مؤمن والمختومة لها نفس قوة الإثبات التي توجد لدى الوثيقة المصادق على صحة توقيعها والمذيلة بتاريخ ثابت، فإذا كان للتواصل الالكتروني تأثيرات عدة على التجارة، فإن لها فوائد بالمقابل تشمل الفورية الزمنية والحرية في الاختيار وانخفاض مستوى الأسعار.

2- فوائد التجارة الالكترونية

من الفوائد التي يحصل عليها العميل من خلال استخدام الشبكة العنكبوتية، توفير الوقت والجهد تفتح

الأسواق الالكترونية بشكل دائم طيلة اليوم ودون أي عطله، ولا يحتاج الزبائن للسفر أو الانتظار في طابور لشراء منتج معين، كما ليس عليهم نقل هذا المنتج إلى البيت بل بمجرد النقر على المنتج وإدخال بعض المعلومات عن البطاقة الائتمانية⁴، يصبح المنتج في متناول طالبه ويتم نقله مباشرة إلى المنزل، كما تشمل عملية البيع التركيب والصيانة كذلك.

أ- حرية الاختيار: تزود التجارة الإلكترونية زبائنها بالمعلومات الكافية حول المنتج، ويكفي أن تكون غير خاضعة لضغوط أو التأثير على المشتري بالإشهار الشفوي من أجل إقناع المتلقي بالعرض، حيث يمكن الاختيار براحة تامة مقتصدتين عناء السفر والتنقل.

1 - المشرع المغربي: قانون رقم 05.53، عبد الرحيم بن بوعبدة و ضياء احمد لقمان، مرجع مذکور، ص 130.

2 - المشرع المغربي: قانون رقم 05.53، مرجع مذکور، المادة 1-417، ص 14.

3 - المشرع المغربي: قانون رقم 05.53، مرجع مذکور، ص 15.

4 - محمد عبيدات، ثبات المحرر الالكتروني، مرجع مذکور، ص 9-10.

ب- خفض الأسعار: توجد على الأنترنت العديد من الشركات التي تباع السلع بأسعار منخفضة مقارنة بالمُتاجر التقليدية، وذلك لأن التسويق على الأنترنت يوفر الكثير من التكاليف التي تتفق في التسويق العادي، مما يصب في مصلحة الزبائن¹.

وقد عرفت بعض الدول في العالم مثل جمهورية الصين الشعبية في هذه المجال تقدما كبيرا، من خلال عملية البيع والشراء الالكترونية والشاملة لجميع المواد وحتى الخضروات واللحوم عبر برامج متعددة وبدون وجو خطأ أو احتيال مثل برنامج "علي بابا" أو "تاوباو" و "تقنية الويتشات" حيث يمكنك دفع ثمن الشراء واستقبال مقابل البيع بالهاتف الذي يلغي محفظة النقود في الصين، لدرجة أنكه يمكنك أن تشتري الخبز والماء ناهيك عن الملابس وتكثري به دراجة هوائية أو سيارة التي تكون مركونة في مكان معين، حيث تستخدم عملية المسح الضوئي بالهاتف، ثم تدفع من خلال عملية المسح الضوئي ليفتح لك باب السيارة، وكل ما يباع بالهاتف عبر تطبيق "الويتشات" حيث يتم ربط رقم الهاتف وبرنامج "الويتشات" بالبطاقة البنكية وتحول النقود مباشرة إلى الهاتف لتسهيل عملية الاستفادة.

وقد ساهمت كل هذه الأسباب وغيرها في تطور وتنامي التجارة الإلكترونية عالميا، وموازة مع هذا التطور المهول للتعامل الالكتروني لا بد من وجود قانون يشملها لأنه يصعب حصر التصرفات التي تجري عبر شبكة الانترنت بشكل تام وكلي في إطار قانون شامل، سواء كانت هذه الاستفادة ذات بعد تعاقدية أو إعلامي، الأمر الذي دفع بالعديد من الدول إلى وضع قوانين توطر هذا المجال وإن كانت في بدايتها الأولى وخذ على سبيل المثال القانون المغربي رقم 00.53 والمتعلق بالتبادل الالكتروني للمعطيات القانونية.

ثانيا: تأثر قوانين العقوبات والإجراءات الجنائية بنظم التكنولوجيا

تساهم جل التطورات التكنولوجية عبر الزمن في إحداث تغيير جذري على سبل القواعد القانونية التقليدية المعتمدة، لأن الجريمة أو المخالفة تدخل فيها عناصر جديدة تستدعي أن يقف رجل السلطة والقانون عندها، لأنها إما أن يعتمد عليها كوسيلة لارتكاب مخالفة أو جريمة معينة أو يتم اعتمادها تقنيا في الجريمة مثل السرقة من خلال الانترنت أو التجسس أو المس بحريات الأفراد وعموما فتم حصر أدوار الكمبيوتر في مجال الجريمة في ثلاث عناصر:

- ✓ يشكل وسيلة متطورة لارتكاب الجرائم التقليدية بفعالية وبسرعة أكبر من الطرق التقليدية.
- ✓ وإما أن يكون الهدف الذي تتوجه إليه الأنماط الحديثة من السلوك الإجرامي التي تستهدف المعلومات.
- ✓ أو يمثل البنية التي تسهل ارتكاب الجرائم العابرة للحدود بما أتاحة من توفير مخازن المعلومات والأنشطة الإجرامية²، فالوسائل المختلفة والغاية وحيدة وهي النيل من الآخر وإصابته في بدنه أو ماله بالنصب والسرقة التكنولوجيين.

وقد أثار الإجرام التكنولوجي تحديات لها وزنها بالنسبة لقانون العقوبات في كل الأنظمة الدولية، والذي تأثر نتيجة لتغير طبقة ونموذج الأشياء من مادية إلى معنوية، ودفع بروز هذا النوع الإجرامي وتطوره إلى تدخل المشرع الجزائي لتوفير الحماية من هذه الأشكال الإجرامية الجديدة، والتي لا تتطلب وسائل مادية بالأسلحة النارية والبيضاء لقيامها، بل مجرد النقرة من أي

¹ - www.itep.ae/arabic/éducationnel/centre/centre commnet/e-commerce.asp

² - عبد الفتاح مراد: شرح جرائم الكمبيوتر والانترنت، مرجع مذکور، ص 32-33.

مكان في العالم، بحيث أمام شاشة الكمبيوتر يمكن للجاني بالوصول إلى الأشياء التي تخضع الأفراد بدون ضرب أو جرح لذا فالقياس واجب في هذا المجال، ومن الضروري ربط الجرائم الإلكترونية بالجرائم التقليدية التي وجدت على مر الزمن، خاصة أن نظام العقوبات الجزائي محكوم بقاعدتين رئيسيتين:

- ✓ القاعدة الأولى: مبدأ الشرعية الموجب لعدم إمكان العقاب على أي فعل دون نص قانوني محدد.
- ✓ القاعدة الثانية: هي قاعدة حظر القياس في النصوص المجرمة الموضوعية، وينبغي على القواعد الإجرائية الجنائية في ميدان التفتيش والضبط والتحقيق والاختصاص، وبين متطلبات فعالية نظام العدالة الجزائي في الملاحظة والبناء والمساءلة¹.

ويستخلص من الفرق الموجود بين الجرائم الإلكترونية والتقليدية، كون الأولى يطغى عليها الجانب المالي والمعنوي بخلاف الثانية التي تصيب الضحية في ماله أو بدنه، ووفقاً لهذا أصبح يطلق عليها من قبل الفقه الراجح وصف جرائم الأموال². وما يميز العقود الإلكترونية أنها تتشابه جميعاً من حيث وجود طرفين في العقد على الأقل وهما الموجب والقابل، كما أنها تتم في مجلس العقد سواء بحضور طرفي العقد لهذا المجلس في مكان واحد، وبغير حضورهما مثال في حالة انعقاده عن طريق الكمبيوتر، مع مراعاته للشروط المنصوص عليها في القانون المتعلق بالتبادل الإلكتروني للمعطيات القانونية المسجل تحت رقم 05.53.

وللعقد الإلكتروني مميزات متعددة مقارنة بالعقد التقليدي، حيث يبرم بدون تواجد مادي للطرفين في لحظة تبادل التراضي ويصدر الإيجاب ويقترن به القبول عن طريق شبكة الانترنت أو أي وسيلة اتصال حديثة، ومن ثم فإنه يعتبر عقداً فورياً رغم إتمامه من بعد³، ويجب أن يخضع هذا التراضي للضمانات الإلكترونية كذلك، فالمحرر الإلكتروني الذي يجب أن يصادق عليه من طرف المصالح المختصة يشكل حجة قانونية، لاسيما في ظل التطور الذي عرفه مجال التعاقد الإلكتروني وما يترتب عليه من جرائم تقنية بسبب ظهور أنماط جديدة، مثل أنشطة إنكار الخدمة التي تقوم على فكرة تعطيل نظام تقني ومنعه من القيام بعمله المعتاد، بواسطة الفيروسات التي تنتشر عبر الوسائل الإلكترونية.

المطلب الثاني: حماية الملكية الفكرية

إن غاية المشرع من وضع نصوص خاصة بالملكية الفكرية وحماية حق الأفراد في الفكر والإبداع والابتكار، لكونهم العامل الرئيسي لتقدم المجتمعات وبروز حضارات إنسانية متقدمة، ويجب أن ترتكز هذه الحماية على أساس الحرية الفكرية التي تؤدي إلى الاختراع والإبداع صحيح أن الحاجة أم الاختراع لكن على المجتمع كذلك أن يساعد هذا المبدع والمفكر كي يصل إلى الشيء المطلوب، ويعدّ مصطلح الملكية الفكرية مصطلحاً قانونياً مثل حقوق المؤلف وغيرها، فالملكية الصناعية تشمل حماية براءات الاختراع والعلامات التجارية والرسوم أو النماذج الصناعية وكذلك الإشارات الجغرافية وتستند إلى حماية النماذج

¹ - عبد الفتاح مراد: شرح جرائم الكمبيوتر والانترنت، نفس المرجع، ص 33.

² - فتوح الشاذلي: عفيفي كامل عفيفي، جرائم الكمبيوتر وحقوق المؤلف والمصنفات الفنية ودور الشرطة والقانون، دراسة مقارنة، مرجع مذکور، ص 135.

³ - محمد عبيدات، إثبات المحرر الإلكتروني، لبنان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مرجع مذکور 2005، ص 27.

ذات النفع وعرض المنتجات، وتوجد هذه الحماية أيضاً ضمن إطار الحماية ضد المنافسة غير المشروعة أو حماية المعلومات السرية والوثائقية أو أسرار المهنة، أما بالنسبة للملكية الفكرية فهي في الحقيقة تعد مثل المال أو الممتلكات النفيسة، مثل الأموال المنقولة أو الأموال غير المنقولة حتى وإن كانت تشمل أموالاً غير ملموسة مثل المعرفة، أما قيمة موجودات الملكية الفكرية فيتم تقييمها مقابل قيمة الأموال المادية بسبب الأهمية التي تتمتع بها الملكية الفكرية والمكان التي تحتلها الجوانب الفنية والتقنية في الاقتصاد المعاصر. وبناء على ما تقدم، ينبغي القول أن الملكية الفكرية تمثل مجموعة الأفكار الجديدة والتعابير المبتكرة والأسماء المتميزة والجوانب الخارجية التي تجعل المنتجات فريدة ونفيسة، ويمكن تحويل الملكية الفكرية من قبل من له الحق بالتصرف بها وبصيغة براءة اختراع أو أية صيغة أخرى من رخص الملكية الفكرية دون المساس بقيمتها الأصلية أو قيمة المنتج أو الخدمة المقدمة، وبدرجة أكبر من بقية الأنظمة التجارية فالتجارة الالكترونية تتضمن بيع منتجات وخدمات تتمتع بحماية الملكية الفكرية وبالرخص والإجازات المنبثقة عنها. تدخل المقطوعات الموسيقية والصور والرسوم والبرمجيات والنماذج الصناعية وغيرها ضمن إطار التجارة الالكترونية، علماً أن الملكية الفكرية تتضمن دائماً عنصراً أساسياً من قيمتها¹. ولذلك تؤدي دوراً مهماً لأن قيمة الأموال تدخل في الصفقات على الشبكة العالمية (الانترنت) ويجب أن تكون محمية بأنظمة فنية وتكنولوجية خاصة بالحماية، وكذلك وجود تشريعات قانونية تضمن هذه العملية، وفي الحالة المعاكسة فإنه بمقدور الغير حيازة ملكيتها بصورة غير مشروعة، والذي من شأنه أن يؤدي بمستقبل الشركة كلها وربما يؤدي ذلك الى اختفائها، إذن تلعب الملكية الفكرية دوراً بارزاً في مجال التجارة الالكترونية، مثلها مثل الشبكة العالمية (الانترنت)، وهذا بفضل البرمجيات والشبكات والرسوم والنماذج وجميع النشاطات المتعلقة بالشبكة العالمية فضلاً عن وجود حماية قانونية.

تأثرت التشريعات الملكية الفكرية سواء بالمغرب أو مصر وغيرهما بنظم الكمبيوتر والانترنت وخاصة فيما يتعلق بحماية حقوق المؤلف على البرمجيات وقواعد المعلومات والدوائر المتكاملة والنشر الإلكتروني وعناوين المواقع في بيئة الانترنت فإن ما أنتجته التقنية من إبداعات تدخل في نطاق ما لانهاية، وكذلك ما أفرزته أنشطة بناء قواعد المعلومات من إبداعات في حقل التكنولوجيا، وآليات استرجاعها وتبادلها أدت هذه الاختراعات إلى بدل جهود كبيرة لحماية مبدعي عصر التقنية فيما ينتجونه من برمجيات وقواعد معلومات، وفيما تنتج الشركات المصنعة من دوائر الكترونية وموصلات تحتوي أوامر التشغيل، الأمر الذي دفع بنظام الملكية الفكرية إلى التوسيع من دائرة مصنعاته، وبالتالي يجب إيجاد قواعد قانونية تضبط المصنعات الفكرية في عصر تقنية المعلومات²، وحينما نتحدث عن الملكية الفكرية فإننا نقصد براءة الاختراع وحقوق المؤلف.

أولاً: ماهية براءة الاختراع

لم يوضح المشرع المقصود بالاختراع أي أنه لم يضع تعريفاً محدداً له الأمر الذي دعا بالفقه إلى تفادي هذه الثغرة، فهناك من عرفه ب: إيجاد شيء لم يكن موجوداً من قبل أو اكتشاف شيء ما كان موجوداً ولكنه كان مجهولاً وغير ملحوظ، تم إبرازه

¹ - حسيب الياس حديد: الملكية الفكرية والتجارة الالكترونية، المجلة الالكترونية الدستور، دولية يومية سياسية عامة ومستقلة، الاثنين 13 أكتوبر 2014، على الساعة 56: 16.

² - عبد الفتاح مراد: شرح جرائم الكمبيوتر والانترنت، مرجع مذكور، ص 31-32.

في المجال الصناعي بصرف النظر عن أهميته الصناعية¹، ويرى الرأي الراجح بأن قابلية الاختراع على براءة عنه تدور وجوداً أو عدماً مع أهميته الصناعية فالاختراع الذي لا يؤدي إلى تقدم ملموس في الفن الصناعي لا يستحق براءة عنه فأساسه وفقاً لهذا الرأي هو وجود عمل أصيل يتعدى ما يمكن أن يصل إليه الخبير العادي إذا أحسن استغلال مهاراته وخبراته الفنية²، وعموماً فالاختراع هو النتيجة الجديدة على المجتمع بأسره والمتوصل لها من طرف المخترع ولأول مرة ولم يسبقها له أحد، وبالتالي فتنسب إليه وتصبح حقا من حقوقه التي اكتسبها بفضل عمله وجده واجتهاده ولهذه الأسباب خصها المشرع بعناية خاصة وأحاطها بإحاطة قانونية شاملة، و يجب أن تتوفر في عملية الاختراع كما هو معلوم عدة شروط وهي:

✓ أن يكون الاختراع جديداً وعدم علم غير بسر هذا الاختراع قبل طلب البراءة.

✓ أن يكون قابلاً للاستغلال الصناعي لأن يؤدي إلى نتيجة صناعية³.

أي يجب أن يكون للاختراع الصفة المادية يتحدث من خلالها عن أفكار وابتكار ملموس يحقق نتيجة إضافية.

ثانياً - حقوق المؤلف

يعتبر الحق الفكري أبرز الحقوق التي تعتمد على المجهود الذهني للمؤلف الذي يجب حمايته قانونياً، غير أن هذه الحماية كانت إقليمية الأمر الذي أدى إلى التفكير في وسيلة أنجع لحماية هذه الحقوق خارج الوطن الواحد، فظهرت بعض الاتفاقيات مثل اتفاقية "برن" لحماية المصنفات الأدبية والفنية والتي تعتبر أهم اتفاقية دولية في مجال حق المؤلف والحقوق المجاورة، وتستند إلى ثلاثة مبادئ أساسية وهي: مبدأ المعاملة الوطنية ومبدأ الحماية التلقائية ثم مبدأ استقلالية الحماية⁴، وقد منحت لحقوق المؤلف جل الدول أهمية خاصة نظراً لارتباط الأمر بالفكر والإبداع ومجال التواصل الإلكتروني مثل غيره من الحقول الحديثة التي عرفت تطوراً مزدهراً على مستوى الابتكار الذي يتطلب العناية والاعتراف بحقوق المخترعين.

وإلى جانب الدول الغربية اهتمت الدول العربية كذلك بهذه الحقوق، وعلى رأسها الجمهورية المصرية ومسايرة مع هذا الاتجاه أصدر المشرع المصري القانون رقم 354 لسنة 1954 الخاص بحق المؤلف حيث تنص المادة الأولى منه على ما يلي: "يتمتع بحماية هذا القانون مؤلف المصنفات المبتكرة في الآداب والفنون والعلوم أي كان نوع هذه المصنفات أو طريقة التعبير عنها وأهميتها والفنون والعلوم أي كان نوع هذه المصنفات أو طريقة التعبير عنها وأهميتها أو الغرض من تصنيفها، حيث يعتبر في حكم هذا القانون مؤلفاً الشخص الذي نشر المصنف المنسوب إليه، سواء كان ذلك بذكر اسم المصنف أم بأي طريقة أخرى، إلا إذا قام الدليل على عكس ذلك، ويسري هذا الحكم على الاسم المستعار بشرط ألا يقوم أدنى شك في حقيقة شخصية

¹ محمد سامي الشوا: ثورة المعلومات وانعكاساتها على قانون العقوبات دار النهضة العربي، 1994، ص 28، [استشهاد مأخوذ من] عفيفي كامل عفيفي: جرائم الكمبيوتر وحقوق المؤلف والمصنفات الفنية ودور الشرطة والقانون، دراسة مقارنة، مرجع مذکور، ص 658.

² عمر فاروق الحسيني، المشكلات الهامة في الجرائم المتصلة بالحاسوب الآلي وأبعادها الدولية، دراسة تحليلية ونقدية لنصوص التشريع المصري مقارنة بالتشريع الفرنسي، ط الثانية، ص 26-27.

³ مجموعة المبادئ القانونية الإدارية العليا، ع 2، قاعدة 99، ص 10، [استشهاد مأخوذ من] عفيفي كامل عفيفي: جرائم الكمبيوتر وحقوق المؤلف والمصنفات الفنية ودور الشرطة والقانون، دراسة مقارنة، مرجع مذکور، ص 66.

⁴ محمد محبوب: عرض حول الحماية الدولية لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة، كلية الحقوق السويدي، الرباط، ص 2.

المؤلف"¹، إضافة إلى ذلك خصصت المادة الثامنة من ذات القانون، للحماية القانونية الخاصة بمصنفات الحاسوب من برامج وبيانات وما يماثلها من مصنفات تحدد بقرار من وزير الثقافة كما نص عليها الدستور.

كما واكب المشرع المغربي هذا الركب وسن قانون رقم 2-00 بتاريخ 15 فبراير 2000 حول حقوق المؤلف والحقوق المجاورة ويتكون من 71 مادة، والذي وقع تغييره وتتميمه بالقانون رقم 34-05 الصادر في 14 فبراير 2006، حيث اعتبر خطوة نوعية في مجال حماية حقوق المؤلف⁽²⁾، وهو قانون حديث يتدارك النقص الحاصل في هذا المجال، واستعمل المشرع المغربي لأول مرة كلمة الحقوق المجاورة باعتباره مفهوم قانوني، وأعطاهها مضمونا محددا الشبيه بحقوق المؤلف، لكن مع ذلك فهي تختلف عنه، الأمر الذي فرض عدم وضع الحقوق المجاورة في الباب الخاص بحق المؤلف إنما بباب مستقل عنه يتضمن الحقوق المجاورة تعود لبعض الأشخاص قد تكون متشابهة بالحد الأدنى منها⁽³⁾.

وإلى جانب هذه الحقوق التي ينبي علمها هذا الحق، توجد وسائل مقررته لحمايته، وتتمثل في الحماية المدنية والجنائية، حيث وضع المشرع المغربي على غرار ما تقف عليه دوليا تحت تصرف صاحبه عدة إجراءات تحفظية تضمن الملكية الفكرية لإنتاجاته ويستدل على ذلك بالمادة 61 من قانون حماية المؤلف المغربي التي تنص على ما يلي: "يخول للمحكمة المختصة النظر القضايا المدنية طبقا لمقتضيات هذا القانون ومع مراعاة أحكام قانون المسطرة المدنية وقانون المسطرة الجنائية وفق الشروط التي تراها ملائمة.

أ- إصدار حكم يمنع أوامر بإنهاء خرق أي حق محمي بموجب هذا القانون.

ب- الأمر بحجز نسخ المصنفات أو المسجلات الصوتية التي يشتبه في كونها أنجزت أو استوردت بدون ترخيص صاحب الحق المحمي بموجب هذا القانون، في حين أن إنجاز واستيراد النسخ يقتضي الحصول على رخصة، وكذلك الأمر بالنسبة لأغلفة هذه النسخ، والأدوات يمكن أن تكون قد استعملت لإنجاز النسخ والوثائق والحسابات والأوراق الإدارية بهذه النسخ وأغلفتها" المادة 61 من قانون حماية المؤلف، وبناء على الفصل 148 من قانون المسطرة المدنية، فإن للمؤلف الحق في ضمان مصلحته المدنية، بناء على طلب رئيس المحكمة عن طريق مسطرة الأوامر المدنية على طلب والتي تخول لطالب الدعوى إمكانية استرجاع ما ضاع منه.

إضافة إلى الحماية المدنية أضفى المشرع على هذا الحق حماية جنائية من أجل جعلها أكثر أمنا، وأقرتها جل دول العالم على شكل نصوص قانونية أو اتفاقيات دولية ونخص بالذكر، تجريم جرائم الاعتداء على الملكية الأدبية والفنية، حيث اعتبر المقلد مذنباً متى طبع في ملكه كلاً أو بعضاً من الكتب أو الأسطوانات الموسيقية أو الرسوم أو الصور الفنية أو أي إنتاج آخر مطبوعاً أو منقوشاً مخالفاً بذلك القوانين والنظم المتعلقة بملكية مؤلفها، أو من أنتج أو عرض أو أذاع بأية وسيلة كانت مؤلفاً

¹- عفيفي كامل عفيفي: جرائم الكمبيوتر، مرجع مذکور، ص 72.

²- مجلة الحقوق المغربية: مساهمة أحمد أنوار ناجي يف الحماية القانونية لحق المؤلف في التشريع المغربي، مرجع مذکور، ص 61.

³- مجلة الحقوق المغربية: مساهمة أحمد أنوار ناجي يف الحماية القانونية لحق المؤلف في التشريع المغربي، نفس المرجع المذكور، ص 61.

أديبا منتهاكا بذلك حقوق المؤلف، واعتبره مرتكباً لجريمة التقليد، وحصر عقوبة هذا الفعل في غرامة مالية¹، وفي حالة العود أي إذا اعتاد الجاني على ارتكاب الأعمال المعاقب عليها، فإنه تضاف إلى عقوبة الغرامة عقوبة الحبس. ولا يمكن تطبيق ذلك إلا إذا قامت المسؤولية الجنائية في حق الجاني ولتوفر ذلك لآبد من وجود ركن مادي للجريمة والذي يتمثل في حصول الاعتداء على حق من حقوق المؤلف، والركن المعنوي وهو القصد الجنائي أي أن الجاني أتى الفعل متعمداً، ثم علاقة السببية بين الفعل والنتيجة الإجرامية، مقابل هذه الوسائل الحمائية التي وضعها المشرع رهن إشارة المؤلف فإنه سن كذلك قاعدة إثبات البراءة، فعلى الجاني أن يثبت حسن النية لكي تبرأ ذمته من الاتهام الموجه إليه، لأن مبدأ إثبات البراءة من المبادئ العامة القانونية، التي تفرض على جميع أنواع الجرائم سواء كانت تقليدية أم حديثة.

خاتمة :

وهكذا نكون قد أحطنا إحاطة بسيطة بموضوع مقالنا من حيث بعض المفاهيم ذات العلاقة أولاً، ثم بعض المواد القانونية المؤطرة، لاسيما ونحن أصبحنا نعيش تواصل وتجارة إلكترونية عالميين، حيث أنه يمكنك أن تجلس مع أسرتك في المغرب وتشترى من دكان في جمهورية الصين الشعبية وتصل لك البضاعة في زمن قياس تشحن بالطائرة، أو تواكب ما يجري ويحدث بمصر وتتلقى عشرات الأخبار والصور الخاصة ببعض الضحايا وكيف يتم التشهير بمجالهم الأسري أو بعث مضامين إعلامية تحتوي مضامين قد تشجع المراهقين على الدخول في لعبة عالمية تززع عقيدتهم الدينية، وكما سبق الذكر يعتبر برنامج "علي باي" نسبة لعلي بابا وهو أكبر وأهم موقع صيني للتجارة الإلكترونية والموقع متخصص في تداول المبيعات على شبكة الانترنت للشركات عالمياً وبمختلف اللغات، كما يعتبر موقع علي باب دوت كوم شريكاً إلى جنب خدمة التجارة الإلكترونية، يسوق البضائع بطريقة جد متطورة داخل الصين. خارجه، وهو الآخر لديه أحدث نظام دفع واستقبال سعر البضاعة عبر تقنية المسح الضوئي مثله مثل نظام "التابواو" و"الويتشات" ويقومون بعملية التواصل الاجتماعي مثل موقع "الواتساب" والعالم الأزرق الفيسبوك أيضاً، بالإضافة إلى العمل التجاري، والأمر لا يتوقف هنا بل تكنولوجيا الاتصال في تطور مستمر الأمر الذي يطرح إشكالية مواكبتها قانونياً وكيف يمكن حماية المستهلك أمام هذه الموجة الإلكترونية الهائلة. والحماية طبعاً لا تشمل الحياة الأسرية فقط بل كل الجوانب المتعددة التي نعيش في إطارها.

قائمة المراجع:

القران الكريم

1. لورنس محمد عبيدات: إثبات المحرر الإلكتروني، لبنان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، سنة 2005
2. عبد اللطيف الهميم، احترام الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية دار عماد للنشر، ط 1، سنة 2004،
3. نعيم مغيب: مخاطر المعلوماتية والانترنت، لبنان، منشورات حلي اللبنانية، بيروت، ط 2، سنة 2008،
4. المشرع المغربي: دستور 2011، الصادر بتنفيذ الظهير الشريف رقم 11.91.1 بتاريخ 29 يوليوز 2011، الفصل 24، إعداد وتقديم محمد لفروجي، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1، سنة 2011.

¹- المشرع المغربي: القانون الجنائي وقانون الرقابة من الرشوة ومكافحة غسل الأموال - إعداد وتقديم محمد لفروج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، ص 178.

5. عمر فاروق الحسيني، المشكلات الهامة في الجرائم المتصلة بالحاسوب الآلي وأبعادها الدولية، دراسة تحليلية ونقدية لنصوص التشريع المصري مقارنا بالتشريع الفرنسي
 6. ادم عبد البديع ادم حسين: الحق في حرمة الحياة الخاصة ومدى الحماية التي يكفلها له القانون الجنائي، رسالة لنيل دكتوراه في الحقوق تحت إشراف محمود نجيب حسني، جامعة القاهرة، سنة 2000.
 7. محمد عبد المحسن المقالع: حماية الحماية الخاصة للأفراد وضماناتها في مواجهة الحاسوب الآلي، سنة 1993.
 8. محمد راكان الدغمي: حماية الحق في الشريعة الإسلامية، دار السلام.
 9. فتوح الشاذلي منشورات الحلبي الحقوقية، ط 2، سنة 2007.
 10. صحيح البخاري بفتح الباري، المطبعة الكبرى، مصر.
 11. المشرع المغربي: قانون رقم 53.05 المتعلق بالتبادل الإلكتروني للمعطيات القانونية المادة الأولى موسوعة التشريعات المدنية والجنائية، جمع عبد الرحيم بعبيد وضيياء علي أحمد نعمان المطبعة الوطنية، مراكش، ط 1، سنة 2010،
 12. مفهوم الأسرة وفقا للمعايير الدولية والتشريعات الوطنية - صحيفة الرأي
- Roland du mas . le droit de information presses universitaires de France .op.560.
- Chirif bassiouny .criminal law and itsprocesses.1972.p.395.signè.par adame abd lbadia .hassan, Droit à la vie privée.

بيداغوجيا التركيب عند ادغار موران أو نحو براديجم جديد للتفكير في العالم

The pedagogy of complexity by Edgar Morin: a new paradigm of world thinking

د. محمد شرقي / المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مراكش، المغرب

Dr. MOHAMMED CHERKE / CRMEF / Marrakech

101

ملخص:

حاولنا من خلال هذا المقال تناول مفهوم التركيب عند ادغار موران وركزنا بشكل خاص على الجانب البيداغوجي في أفق التعرف على موقفه من البيداغوجيا والعمل التربوي بشكل عام. وارتأينا في هذا الإطار، ولكي نفهم بشكل أفضل مشروعه البيداغوجي الذي ينهل من فلسفته التركيبية ونظريته الشمولية للفكر وللعالم، أن نحاول موضعه ضمن تاريخ الفكر التربوي حتى يتسنى لنا الوقوف على إضافاته النوعية في هذا المجال.

كلمات مفتاحية: بيداغوجيا-تعلم-تعقيد-نسق- أهداف تعليمية-كفايات -وضعيات مشكلات .

Abstract :

Through this article, we tried to address the concept of complexity by Edgar Morin, and we focused in particular on the pedagogical aspect on the horizon to identify his position on pedagogy and educational work in general. We saw in this framework, and in order to better understand his pedagogical project that draws from his structural philosophy and his holistic view of thought and the world, that we try to place it within the history of educational thought so that we can stand on its specific additions in this context.

Keywords: Pedagogy – learning - complexity - system - educational objectifs - competencies - situations- problems.

تقديم:

يلزم الإشارة منذ البداية أنه يصعب الحديث بشكل جامع مانع كما يقول المناطقة عن فكر ادغار موران و ذلك لأن الرجل يعتبر مفكراً فريداً من نوعه تشهد أعماله الكثيفة والغزيرة والمتنوعة على فكر حديث يتموضع بجرأة في هذا العالم و مشاكله و لا يكف عن مساءلته و الغوص فيه . ويعود إليه الفضل الكبير في الدعوة الدائمة للتحرر من المقولات الجاهزة "catégories". أكثر من ذلك فهو ليس مجرد فيلسوف بل هو مبدع و مبتكر لمفاهيم جديدة، فالذي يقرأ له يستطيع أن يلاحظ الخصوصية النظرية لتصوراته الموجودة في قلب التركيب المعقد². بالرغم من النفحة التشاؤمية و اللابقيين التي أصبحت تطبع مواقفه إزاء الأوضاع التي آلت إليها الحضارة الغربية و ما يتجه إليه العالم اليوم من تهاوة و بؤس وهو ما نلمسه من خلال كتابيه: إلى أين يسير العالم؟ و هل نسير إلى الهاوية؟³ إضافة إلى منشوراته الأخيرة حول هذا الوباء الذي لا شك أنه ستكون له تبعات كثيرة على مستوى مستقبل الإنسانية⁴.

سنحاول على امتداد هذا المقال تقديم جانب من جوانب هذا الفكر المتعدد المباحث، و بشكل خاص ذلك المتعلق بالمجال البيداغوجي و رؤية موران للعمل التربوي بشكل عام، ذلك انه من خلال هذا الجانب فقط يمكن، حسب اعتقاده، أن نشكل عقولاً تكون قادرة على فهم هذا العالم المركب و المعقد بطبيعته . ولإدراك قيمة هذا البرادغيم الجديد لا بد من موضعه ضمن تاريخ البيداغوجيا و الفكر التربوي بشكل عام: كيف كانت تشتغل البيداغوجيا التقليدية؟ ما هي خصائصها؟ وكيف تم الانتقال إلى بيداغوجيا لاحقة ستوسم بالحدثة؟ كيف تكونت هذه البيداغوجيا؟ و كيف تطورت؟ ما هي خصائصها؟ وما هي تمظهراتها؟ لنخلص في الأخير إلى التساؤل عن جديد بيداغوجيا التركيب وما هي إضافاتها النوعية لتاريخ التربية؟ وإلى أي حد يمكن تبنيها و إجرائها داخل مناهجنا التعليمية؟. هذه الأسئلة وغيرها هي ما سيشكل خريطة هذا المقال.

محطات أساسية في تاريخ الفكر التربوي:

يمكن أن نبدأ في التاريخ لهذا الفكر و نحدد أصوله منذ بداية تشكل الفكر الفلسفي في اليونان و متابعة أهم ملامحه، سواء من خلال بعض الأفكار التي نجدها على شكل شذرات أو أقوال متفرقة هنا وهناك، أو عبر تأمل بعض الممارسات التربوية خلال تلك الفترة، خصوصاً مع التيار السوفسطائي مع أبرز ممثليه في تلك المرحلة، بروتاغوراس Protagoras و جورجياس Gorgias، اللذين استغلا الفراغ الفكري في العصر اليوناني، و كذا الحاجة الملحة لدى "الطبقة" الارستقراطية و تعطشها للحكم في ظل النظام الديموقراطي الصاعد آنذاك، و قدما نفسيهما باعتبارهما مالكين للمعرفة و يمكن أن يعلمها لكل من أراد ذلك، هم المالكون وحدهم لفن القول و الخطابة و المنطق (ولو كان مغالطياً) و الآخر المتعلم عليه أن يتعلم فقط و يجيد الإنصات .

¹ - ادغار موران، جون بودريار، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دارالحوار، سوريا، ط.1، 2005، ص 67.

² - ادغار موران، نفس المرجع، ص 68.

³ - علاء طاهر، نهايات الفضاء الفلسفي، الفلسفة الغربية بين اللحظة الآتية و المستقبل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط.1، 2005، ص 24.

⁴ - هنا إشارة إلى الحوار الذي أجراه مع جريدة لوموند الفرنسية، عدد 23414، الأحد 19-اللاثنين 20 أبريل 2020.

هذا التصور سيجد امتدادا له كذلك مع أفلاطون Platon ، رغم التعارضات البينة بينهما، خلافا لسقراط Socrate صاحب المايوتيك أو فن التوليد la maïeutique ، والذي انتبه مبكرا إلى مدى قدرة الإنسان على معرفة نفسه بنفسه من خلال امتلاكه للعقل (الذي هو "أعدل قسمة بين الناس" كما يذكر ديكارت و الذي وضمن سياق إبستيمولوجي آخر وضمن تاريخ آخر: القرن السابع عشر سيعول عليه وحده في إثبات الذات والعالم الخارجي ومعرفة كل الأشياء بشكل يقيني، شريطة أن تسن له قواعد تحدد له طريقة اشتغاله حتى لا يزيغ عن سكة الصواب) و أنه يكفي استفزاز و إثارة هذا العقل عن طريق السخرية و التهكم لإنتاج المعرفة مشها تلك العملية بمهنة أمه حيث يقول: "إذا كانت أمي تولد الأجسام فاني أولد العقول".

إن فن التوليد هذا أو المايوتيك سيمثل أول اشراق في تاريخ الفكر البيداغوجي والذي سيتم إعادة اكتشافه مع بداية القرن العشرين، حيث اكتمال تبلور بيداغوجيا حديثة تراهن على بناء القدرات والكفايات، وحيث المعرفة تمثل مدخلا فقط وان كان ضروريا لبناء مثل تلك القدرات.

مع أفلاطون وتماشيا مع نسقه الفلسفي العام و تصوراته حول العدالة الاجتماعية و بنية المجتمع اليوناني بفئاته الثلاث: فئة العمال، فئة الجنود وفئة الفلاسفة، المؤهلين وحدهم لقيادة المدينة، ستعطى المشروع الكاملة لبيداغوجيا الإلقاء و لهذه الهيمنة و هذا التحكم من لدن فئة اجتماعية واحدة تمتلك الحكمة على حساب الفئات الأخرى و التي ينحصر دورها فقط في تربي كل الظروف المناسبة لمزاولة التفكير من قبل فئة هي المؤهلة لذلك: فئة الفلاسفة.

هكذا فالبدائيات الأولى للفكر التربوي لعلوم التربية، كما يعتقد البعض، تعود إلى هذه المرحلة (النصف الثاني من القرن الخامس ق.م) للإجابة عن حاجيات و رغبات النظام السياسي الديمقراطي للمدينة la cité . إن الأمر يتعلق أساسا بتكوين مواطنين قادرين على تدبير الأشغال العمومية . ومن أجل تحقيق ذلك، تحقيق هذا الغرض النفعي utilitaire سيظهر تصوران متعارضان: التصور السفسطائي المحترف الذي عرضنا له فوق مثال بروتاغوراس (411-485 ق.م) والذي يتمثل "الهدف من التعليم بالنسبة إليه ليس في الوصول إلى الحقيقة ولكن في معرفة كيف نصبح أكثر نفعا بأفعالنا وخطابنا" أي اكتساب فن الإقناع عن طريق الخطابة ذلك أن "الإنسان هو مقياس كل الأشياء"، وتصور آخر لأفلاطون الأرسطراطي و الذي بعد تجارب سياسية مؤلمة سيفتح في أثننا حوالي 387 ق.م و في حديقة أكاديميته مدرسة من نوع خاص داخلها سيولد كتاب الجمهورية والذي يقدم فيه عرضا متميزا لنظام بيداغوجي يراه صالحا لجمهوريته.

عكس السفسطائيين يعتقد أفلاطون (347-427) في وجود الحقيقة كواقع متعال و مجرد و هي توجد في العالم العلوي عالم الأفكار. ومن ثم فوظيفة التربية تتمثل في الكشف عنها و هي لا تختلف أو لا يمكن أن نفصلها عن الخير والجمال. كما أن التعليم الفكري لا يمكن فصله عن الأخلاق والاستيتيقا. إن الأمر يتعلق بحسه بتكوين أفراد فضلاء vertueux يفكرون بشكل جيد والذين سيصبحون حكاما- فلاسفة للمدينة الفاضلة/الجمهورية.

يتعلق الأمر إذن بنظام تربوي أكثر نخبوية يهتم فقط العقول المتميزة. إن النظام المقصود هنا هو أصلاً نظام أرستقراطي يديره ويسيره "حراس" خضعوا لتكوين مكثف وطويل¹

أما التجربة السقراطية فتحتل مكانة خاصة و متميزة في تاريخ التربية، أولاً لأنه يؤكد أنه لا يعرف أي شيء وهذا الإنكار، و إن كان يمثل مفارقة بالنسبة للبيداغوجي لأن البيداغوجي من المفترض بل من اللازم أنه يعرف، له دلالة خاصة. "انك أنت أكثر الناس علماً لأنك تعرف أنك لا تعرف" هكذا خاطبه الكاهن في معبد دلفيس Delphes. ليس لديه إذن أي شيء يمكن أن ينقله أو يمرره للآخرين، فبالنسبة إليه كل فرد يمتلك داخله معرفة (كامنة) شأنه في ذلك شأن المرأة الحامل التي تحمل جنينها في بطنها ووظيفة البيداغوجي مماثلة لوظيفة المرأة القابلة (تلك كانت وظيفة أمه Phénarète) توليد الأفكار وإخراج الحقائق التي يملكها كل واحد منا في ذاته. انه المايوتيك أو فن التوليد. وهذا ما نقرأه في محاوره تييتيت Théétète لأفلاطون "إن فيني في التوليد له كل الخاصيات التي توجد لدى النساء القابلات. إن الذين يقصدونني يقدمون الانطباع أنهم جهلاء وهم لا يتلقون مني أية معرفة لكن من داخلهم ومن عمقهم نصل إلى اكتشافات جميلة و إلى حقائق جديدة وذلك بفضل مجهودهم الخاص".²

إن فن التوليد لدى سقراط يتمثل في فعل الحوار dialoguer وطرح أسئلة توجه المتعلم و تقوده و تأخذ بيده حتى يصل إلى اكتشاف الحقيقة. غير أنه وإذا احتفظنا بنفس الاستعمال المجازي السابق (البيداغوجي-المولدة) فأن العملية قد تنجم عنها ولادة غير صحيحة fausse couche وذلك لأن الأسئلة المطروحة في الأصل من قبل سقراط تقوم على السخرية والاستهزاء و تخلق الفراغ في ذهن محاوريه الذين سرعان ما يدركون أن ما كانوا يؤمنون به و يعتقدونه (يحبون به) ليس سوى أوهام .

يتمثل الهدف الوحيد من التعليم السقراطي في النهاية في مساعدة الذات على معرفة نفسها بنفسها تماشياً مع القاعدة التي يستعيرها من كاهن معبد دلف " اعرف نفسك بنفسك " connais- toi toi même " وهو بهذا يمثل نموذجاً لكل بيداغوجيا مستقبلية تريد أن تكون منتجة وفعالة.

هكذا فتاريخ التربية و منذ المرحلة الإغريقية لا يخلو من أسماء وازنة ساهمت، بهذا القدر أو ذاك، في بلورة فكر بيداغوجي متقدم يراهن على بناء فرد متحرر يبني تعلماته بذاته ويتحرر من التلقي السلبي للمعارف .

مع عصر الأنوار سنجد أنفسنا أمام مرحلة مفصلية في هذا الشأن حيث سيبدأ في التبلور ، و لأول مرة، خطاب جديد و متقدم حول التربية . خطاب يظهر فيه موضوع التربية كموضوع مستقل . وهكذا فإذا كان الحديث عن التربية و البيداغوجيا يتم دائماً في إطار أنساق فلسفية و يظل مرهوناً بها ، مقيداً و مسيجاً بأطروحة هذا الفيلسوف أو ذاك، فإننا مع جان جاك روسو سنجد أنفسنا أمام مؤلف موضوعه التربية، انه كتاب "أيميل أو التربية" Emile ou de l'éducation الصادر سنة 1762 و الذي سيكون موضوعه " فن تكوين الناس " l'art de former les hommes " .

¹ -Georges Minois, Platon-Premier..., op.cité, p.6

Georges Minois, Platon-Premier..., op.cité, p.7²

يفصح روسو في هذا المؤلف عن مبدئه الثابت والذي مفاده "أن الطفل يولد خيرا بطبعه و المجتمع هو الذي يفسده"، و يصف، مرحلة بعد مرحلة، التربية المثالية للطفل الصغير منذ ولادته حتى بلوغه سن الرشد مؤكداً عل أنه من الضروري أن تكون لدى هذا الطفل رغبة في التعلم و أن يعرف حرفة يدوية و هي مسألة كانت نادرة عند نبلاء تلك الفترة. كما يرفض روسو كل تربية تتأسس على مبدأ السلطة و التي تضع إرادة الطفل تحت رحمة سيده المعلم يفعل به ما يريد. عكس ذلك يؤكد روسو على ضرورة ترك الطفل ينمو و يكون ذاته بذاته من خلال مواجهته للطبيعة والآخرين و المجتمع. إن المرابي، من منظور "التربية الطبيعية" أو "التربية السلبية" كما يسميها البعض، يتخذ دور المرافق و المصاحب للطفل الذي يعمل على مساعدته مع احترام كلي لإرادته الحرة. تلك هي مهنة المرابي الحقيقية حسب روسو "فأن يحيا الطفل، تلك هي المهنة التي أريد أن أعلمه "1" vivre est le métier que je veux lui apprendre"

وهكذا يقدم هذا البرنامج البيداغوجي المثالي نظرة متقدمة للطفولة كمجال للخلق والإبداع و التفتح الذاتي. وهو تصور ستكون له امتدادات في المستقبل، خصوصاً مع ظهور النظرية التطورية التي ستعطي أهمية كبرى للمجهود الذي يمكن أن يقوم به الفرد في أفق تكيفه مع الطبيعة وحيث إن الكائن العضوي حسبها لا يكفيه فقط امتلاك صفات فطرية لكي يعيش، بل يتعين عليه أن يطورها باستمرار لكي يستطيع مواجهة مستجدات العالم الخارجي و من ثم المحافظة على ذاته وضمناً استمراريته.

وهنا تكمن أهمية التربية حيث إنها، كما يقول سبنسر Spencer، ملزمة بتسليح الفرد ومدته بكل الأسلحة الضرورية و الأدوات الممكنة التي يستطيع بواسطتها أن يواجه العالم الخارجي و يضمن من ثم استمراره في الحياة و يكتسب طباعاً و خاصيات محددة دون أن ننسى، كما يقول، اللاتكافؤ الطبيعي بين الأفراد².

هذا الفكر الجديد و المتنور، ستكون له امتدادات في سويسرا كذلك، خصوصاً مع بيستالتوتزي Johan Heinrich Pestalozzi (1746-1827) الذي تأثر كثيراً بروسو و الذي أسس مدرسة ارتأت مساعدة الطفل في الحياة الواقعية مع العمل على تنويع تلك الحياة حسب الطبقات الاجتماعية. وبالنسبة إليه تمثل الأسرة أرقى و أهم وسط تربوي.

خلال القرن العشرين ستتغير موضوعة البيداغوجيا la notion de pédagogie و ستتحول إلى ممارسة أي مجموعة من الطرق التعليمية، و من ثم سيجهد البيداغوجيون أنفسهم لاستعمال و توظيف بعض المبادئ السيكلوجية و هنا ستظهر حركة التربية الجديدة l'éducation nouvelle والتي تنظر إلى التربية باعتبارها فعلاً شمولياً لتكوين الشخص و ليس فقط مجرد إعادة نقل للمعارف.

في أوروبا الغربية سيتم التركيز على الطفل كفرد أما في الجناح الاشتراكي، أوروبا الشرقية و الاتحاد السوفياتي، فسيتم التركيز على البعد الاجتماعي.

¹ Michel Soetard, Rousseau, les rêveries d'un pédagogue imaginaire, les grands dossiers des sciences humaines, op.cité, p.21

² -Spencer, De l'éducation intellectuelle, morale et physique, 1861, p.26

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فستخذ البيداغوجيا معنى براغماتيا وتجريبيا وحيث سيمثل جون ديوي John Dewey، إلى جانب شارل ساندر بيرس Charles Sander Peirce، منعشا و مطورا للتربية الجديدة l'éducation nouvelle ورائدا مهما من روادها ومدافعا عن طرق اشتغالها التي يعتبرها ضرورية للديمقراطية. إن المعرفة و الفهم، في اعتقاده يولدان و يتأسسان عند المتعلم من خلال العلاقة التي يبنها مع العالم الخارجي. وهي عملية تلعب فيها التجربة دورا مركزيا و تقوم مقام المعلم. إن المعرفة لا تتم عبر الولوج المباشر للأفكار والمعارف. إنها قبل كل شيء تمثل جوابا أو حلا لمسألة، وهو حل يتم بناؤه بشكل تدريجي وخطوة خطوة بواسطة مناهج ومن خلال عملية بحث و تقصي. وهذا هو المسار الذي يتحتم على المدرسة أن تنهجه وأن تتيح اكتسابه للأطفال¹.

ضمن نفس التوجه، فهم المتعلم وتوفير كل الفرص له لكي يتعلم بنفسه و التأكيد على مبدأ القابلية للتعليم l'éducabilité، تمثل ماريا مونتيسوري Maria Montessori أحد الأوجه البارزة لهذا التيار الحديث (تيار التربية الجديدة). لقد ابتدأت مونتيسوري تجربتها التربوية كطبيبة تكلفت بأطفال كان يتم نعتهم بالمتخلفين أو الأغبياء. وإيماناً منها أن هؤلاء الأطفال يمكنهم تطوير قدراتهم، إن أتيحت لهم الظروف الملائمة لذلك، ستشرع في تطوير مجموعة من الأدوات لكي تساعد على تعلم الكتابة والقراءة. هكذا وابتداء من 1907 ستقدم طريقها البيداغوجية، وهي طريقة سيتم تبنيها من قبل كثير من الدول، طريقة تؤكد في المقام الأول على احترام قدرات المتعلم وإمكاناته: فإذا "أردنا للإنسانية أن تتقدم، فانه يلزم أن نعرف الطفل أكثر و أن نساعده". و بشكل خاص، أن نحترم ما تسميه بمداه الحيوي son élan vital أي الجانب النفسي الدينامي لديه sa psychique dynamique و الذي يدفعه للاكتشاف و الغوص في محيطه ومن ثم اكتساب معارف جديدة² هكذا ينبغي أن ندرك التربية باعتبارها مساعدة للطفل من أجل الحياة « une aide à la vie ».

أما في فرنسا ومنذ 1918 سيؤسس أدولف فيريير Adolphe Ferrière، سيلستان فريني Celestin Freinet و أوفيد ديكرولي Ovide Decroly ببلجيك التربية الجديدة متأثرين في ذلك بجون ديوي رائد هذه المدرسة و التي تنظر الى الطفل باعتباره نشيطا و اجتماعيا actif et social.

وعلى هذا النهج ستسير البيداغوجيا الحديثة: احترام رغبات الطفل وحرية. انه ليس مجالا للقبولية و التطبيع بل أنه مجال للتفتح والاكتشاف. ومع ظهور العلوم الإنسانية و سلسلة النجاحات التي حققتها خصوصا في مجال علم النفس والتقدم في اكتشاف الإنسان و معرفته، خصوصا مع المدرسة السلوكية ثم البنائية والتحليل النفسي... الخ ستظهر مقاربات بيداغوجية جديدة تبرز أهمية معرفة الطفل والاستماع إليه و احترام إيقاعاته واستراتيجياته التعليمية بل وتوظيف حتى تعثراته و"أخطائه" في أفق بناء معارف ثابتة لديه³.

¹ -Catherine Hapern, John Dewey, Eduquer par l'expérience, revue des sciences humaines, op.cité, p.28

² -MarieLaure Viaud, Montessori, Freinet, Steiner...une école différente pour mon enfant?, le guide des pédagogues et des établissements, de la maternelle au lycée, Nathan,2015

³ -للتوسع أكثر في هذه النقطة يمكن الرجوع إلى كتابنا: البيداغوجيا، مفهوم تاريخ و مقاربات، منشورات فضاء آدم، بمراكش، 2017

لقد كان من نتائج هذا التطور العلمي خصوصا في مجال العلوم الإنسانية، بالإضافة إلى الأسئلة الجديدة التي فرضها واقع الحال، وبداية ظهور أزمات النظام الرأسمالي الصاعد آنذاك، ظهور بيداغوجية جديدة ستتوج المحاولات التجديدية السابقة التي عرضنا لها من قبل. بيداغوجيا ستشتغل وفق براديفغم جديد راهن على تنمية المهارات لدى المتعلم و التمرکز حوله، موجهة جل انتقاداتها للبيداغوجيا التقليدية باعتبارها بيداغوجية كانت تركز بالدرجة الأولى على الإلقاء، إلى حد نعتها بنظرية الإلقاء la théorie de la transmission.

إن السؤال المركزي والموجه للعملية التعليمية في ظل هذه البيداغوجية ظل دوما مرتبطا بموضوع المعرفة أي ماذا نعلم؟ إن التفكير في هذه الحالة يكون منصبا بشكل خاص على المادة المعرفية و على المحتويات، و حيث نجد أن المناهج والمقررات الدراسية تعرض على شكل مواد معرفية، و تتخذ شكل عناوين لدروس مثل الهواء، الماء ... الخ وحيث تصبح هذه المحتويات غايات في ذاتها و ليست فقط وسائل أو مناسبات لبناء مفاهيم و تنمية مهارات التفكير لدى المتعلم. كما أن جل التعلمات كانت تقدم خارج وضعيات، معزولة عن سياقها. ومن ثم كانت تبقى مجردة و دون معنى بالنسبة للمتعلم.

على المستوى البيداغوجي كذلك نجد أن العلاقة بين الفاعلين التربويين في ظل هذه المقاربة كانت علاقة عمودية: هناك مرسل هو المعلم الذي يمتلك كل السلط الممكنة باعتباره مالكا للمعرفة و مصدرها الأوحد في غياب مصادر أخرى، وبالمقابل هناك مرسل إليه، متعلم تلخص مهمته الأساسية في التلقي والاستقبال و الحفظ، وهو محكوم عليه أن يبقى سلبيا و غير مبادر. إن المخاطب في هذه الحالة و الذي يعول عليه في الاحتفاظ بالمعارف وإعادة إنتاجها هو الذاكرة، ذاكرة المتعلم في غياب المكونات العقلية الأخرى، و حيث إن عملية التقويم تستهدف في العادة مدى القدرة على الاحتفاظ واستحضار المعارف و المكتسبات السابقة التي تلقاها المتعلم و راكمها دون زيادة أو نقصان.

إن هذا التركيز المبالغ فيه على الحفظ و اكتساب المعرفة من لدن هذه المقاربة البيداغوجية، هو الذي جعل جل المهتمين بالفكر التربوي يسمونها بالتقليد و المحافظة، بالرغم من أن هناك من لا ينكر بعض إيجابياتها، و بشكل خاص السرعة في انجاز البرامج و المقررات، خصوصا عندما يتعلق الأمر بنقل بعض المعارف الأساسية و التي تمثل مواد خام لبناء تعلمات لاحقة لدى المتعلم، لأن المعرفة ستبقى، و حتى في البيداغوجيات اللاحقة الراضية للبيداغوجيا التقليدية و المنتقدة لها على هذا المستوى، منبعا بل و أساسا لبناء كفايات لدى المتعلم. وحيث وكما يذكر فيليب برنو Philippe Perrenoud "لا يمكننا أن نتصور كفايات دون موارد معرفية، فالطبيب لكي يكون طبيبا، والمهندس لكي يكون مهندسا، لأبد لكل منهما من معارف في مجال تخصصهما: الطب والهندسة." هكذا و لتجاوز ما عتبر سلبيا داخل هذه البيداغوجيا التقليدية ستظهر بيداغوجيا جديدة والتي ستتخذ مجموعة من التسميات مثل البيداغوجيا الفعالة أو البيداغوجيا النشيطة أو الحديثة. إنها بيداغوجيا حديثة من حيث طريقة اشتغالها، و ليس منظورا إليها من الزاوية التاريخية، ذلك أنه، وكما أشرنا في موضع سابق عند حديثنا عن تطور البيداغوجيا و مسارات الفكر التربوي، يمكن أن نتحدث عن توجه مشابه منذ المرحلة الإغريقية خاصة مع التجربة السقراطية تجربة المايوتيك أو فن التوليد.

إن أهم ما يميز هذه البيداغوجيا هو تمركزها حول المتعلم والإصرار على بناء التعلّمات بمعيتها و الاشتغال على تنمية مهارات التفكير، ثم في مرحلة متأخرة مع بيداغوجيا الكفايات، جعل المتعلم يعطي دلالة للتعلّمات والقدرة على استثمارها لمواجهة الوضعيات- المشكلات التي يمكن أن تعترضه سواء في حياته العامة أو في حياته المهنية .

يتعلق الأمر في هذا الإطار ببيداغوجيا ظهرت مع مطلع القرن العشرين هي بيداغوجيا الأهداف ثم بعد ذلك بيداغوجيا الكفايات التي ستمثل الجيل الثاني لهذه البيداغوجيا والتي ستحاول احتواءها وتجاوزها في أفق جعل التلميذ قادرا على استثمار ما يدرسه داخل المدرسة و نقله خارجها ومن ثم إعطاء معنى لتعلّماته.

أولا: بيداغوجيا الأهداف أو بداية عقلنة عملية التعليم والتعلم :

ارتبط ظهور بيداغوجيا الأهداف بثلاثة عوامل أساسية ساهمت، بهذه الدرجة أو تلك ، في تبلور هذا التوجه البيداغوجي الجديد و هي كالتالي:

أ- التطور الذي عرفه المجتمع الصناعي الأمريكي والمشاكل التي بدأت تظهر فيه : فقد عرف المجتمع الأمريكي ، على مستوى اقتصادي، أزمتين متتاليتين الأزمة الدورية لسنة 1921 ثم الأزمة الاقتصادية الكبرى لسنة 1929 التي انتشرت وعمت مجموعة من المجتمعات خاصة تلك التي كانت تدور في فلك النظام الرأسمالي . لقد كان من أهم دروس هذه الأزمة خصوصا على مستوى الفكر الاقتصادي ضرورة الاهتمام بالتخطيط والتنظيم والبرمجة وحساب التناسب بين العرض والطلب و حسن التدبير . على المستوى الاجتماعي كذلك لا ننس أن التركيبة الاجتماعية للمجتمع الأمريكي لم تكن متجانسة : هناك، من جهة، بقايا ساكنة أصلية وهناك، من جهة ثانية، أقليات متعددة قدمت من أوروبا ، أفريقيا، آسيا وأمريكا اللاتينية... وبالتالي، ولتوحيد هذه الأقليات، لابد من غايات متفق عليها من طرف الجميع يتم تدوينها على شكل مناهج تعليمية curriculum وأجرائها من خلال مقررات دراسية. إن دور المدرسة هنا ليس دورا معزولا عن فلسفة المجتمع، انتظاراته و غاياته.

ب- أما العامل الثاني فقد ارتبط بتوجه فكري ميز الفكر الأمريكي و أعطاه صبغة خاصة و قد تمثل في الفلسفة البراغماتية مع جون ديوي و آخرين، فلسفة لا تؤمن إلا بالنتائج الملموسة والمخرجات الواقعية . فإذا كنا على المستوى الاقتصادي قد شرعنا لتقسيم العمل و أعطينا مشروعية للعمل المتسلسل وما توفره تلك الطريقة لتنظيم الشغل من سرعة في الإنتاج و ربح للوقت و مهارة في الأداء ، فإننا كذلك على مستوى التربية و التعليم ينبغي أن ننهج نفس المنحى، ولا مجال بل و لا جدوى من اكتساب معارف نظرية قد لا يستفيد منها المتعلم، لا في حياته العامة ولا في حياته المهنية، إلا الشيء القليل .

ج-العامل الأخير ارتبط بالنظام السياسي المهيمن داخل المجتمعات الغربية. انه النظام الرأسمالي الذي لا يؤمن إلا بالربح والمردودية و الذي ساهم في تعزيز مثل هذه التوجهات في التربية . وهذا ما لاحظته بشكل ذكي دولاندشهير Delandscheere عندما ربط بين ظهور التدريس بواسطة الأهداف و الواقع السياسي للمجتمعات الغربية، حيث إن تقدم و ازدهار الممارسة الديمقراطية في هذه المجتمعات، وإعادة النظر في العلاقات بين الطبقات المشكلة للمجتمع. كان لابد أن يواكب ذلك تحول مماثل على مستوى النظام التربوي برمته، والسبب في ذلك تجنب مجتمع يقوم على التعايش و الإجماع من التفكك، وبالتالي

ضرورة الاتفاق حول غايات وأهداف للتربية تكون محددة بدقة ومتفق عليها من طرف الجميع . كل ذلك في سبيل تأمين الوحدة، الإجماع ، الديمقراطية ، وبالتالي تجاوز كل الانحرافات الممكنة¹ .

1- معنى الأهداف التربوية ومستوياتها:

ان الهدف مطلب ضروري في مجال التربية و التكوين بل هو فعل متضمن و كامن في كل أفعالنا والتي لا يمكن أن تكون دون قصدية محددة بهذا القدر أو ذاك. وهذا ما نستشفه من خلال أحد أبرز ممثلي هذا التوجه دولاندشهير الذي يكتب: "أن نربي يعني أن تقود . أي أن توجه نحو مرمى معين، لكن أن تقود وبدون اتجاه شينان لا يمكن أن يلتقيا، وأن تقود إلى اتجاه ما، غير كاف وحده لأن مصير التربية في جوهره إيجابي، فنحن نربي نحو الحق و الخير و الجمال وليس نحو الخطأ و الشر و القبح"² . و بناء على ذلك فالأهداف التربوية هي تعبير عن السلوك المرغوب فيه لدى التلميذ و وصف لانجازاته المرتقبة و لنتائج صيرورة التعليم والتعلم المخطط لها، و التي تتمثل في جملة الآثار المنشودة من العملية التعليمية – التعليمية سواء على المستوى البعيد ، المتوسط أو القصير ، والتي تكون عبارة عن مواقف ، قدرات أو مهارات تنمو بشكل متكامل و متدرج عبر مختلف الأسلاك التعليمية لتنتهي بنا في الأخير إلى إنتاج الإنسان/المثال الذي تسعى المنظومة التربوية إلى تكوينه انطلاقا من فلسفة المجتمع و رهاناته المتوافق حولها.

في نفس الإطار ، وعلى مستوى عام عندما نتأمل جملة من التعاريف العامة للتربية والتي أعطيت لها عبر التاريخ، نجد أن القاسم المشترك بينها هو الإفصاح عن غاية متوخاة من العمل التربوي . وهذا ما يؤكد القول بأن الفعل التربوي لم يكن قط دون قصدية أو دون غايات. هكذا فغاية التربية تتمثل حسب أفلاطون في "إعطاء الجسم و الروح ما يمكن من جمال ومن كمال" أما بالنسبة لأرسطو فالغاية من التربية تتحدد في "إعداد العقل لاكتساب العلم كما تعد الأرض للنبات و الزرع". و يذكر ابن خلدون في نفس الإطار أن الغاية من التربية تكمن في "حصول المتعلم على ملكة التحكم في الصناعات". ويحددها دوركهايم في "اكتساب النضج اللازم للحياة الاجتماعية". من جهته، يرمز التدريس بالأهداف، حسب التعريف السابق للهدف، إلى كل ممارسة تعليمية تنطلق من السؤال عما الذي نريده من هذه المادة التعليمية أو تلك، من هذا الدرس أو ذاك، من هذه الحصة أو تلك . أي ما الهدف أو الأهداف التي نروم تحقيقها من التعلم؟، لتستتب ذلك السؤال المركزي أسئلة أخرى تهتم الكيف، أي كيفية تحقيق ذلك الهدف (بأية طريقة؟)، ثم العدة البيداغوجية اللازمة التي قد تيسر ذلك (بأية وسيلة؟)، وصولا إلى آليات التقويم التي اعتمدا عليها يتم تبين نقط القوة و الضعف وكذلك اختبار مدى نجاعة المسار المتبع، وكذا الوسائل المستخدمة ، ومدى وضوح المنطلقات أي الأهداف التي تشكل دوما نقطة الانطلاق في العملية التعليمية الهادفة (هل تحقق الهدف؟). وهذا ما يسمى بلغة تربوية ب"رجع المرود" أو "التغذية الراجعة" Feed-back والذي يتلخص معناها "فيما يقوم به الشخص، سواء كان مدرسا أم لا، حينما يرسل معلوماته . فهو يتتبع إرساليته بحيث يحاول تحديد تأثيرها على الشخص المستقبل وذلك بفضل الفيدباك . وهو مصطلح استعمل في مجال السيبرنيطيقا و في هندسة الالكترونات، قبل أن ينتقل إلى مجال التربية و علم النفس

¹ -V.etG.Delandscheere,Définir les objectifs pédagogiques, PUF,3éme éd.,Paris,1982,p.10

² -V.etG.Delandscheere, op.cité, p.5.

. ومعناه كما يحدده - طلعت منصور- " العملية التي تعود بفضلها المعلومات المتعلقة بإنجاز نظام ما (آلة أو كائن حي) إلى النظام نفسه لتغذيته من جديد حتى يتم تصحيح الأداء و ضبطه ليصبح ملائماً " ¹.

وتشمل الأهداف التربوية سلسلة تنازلية من المستويات تنطلق مما هو عام ومؤطر للعمل التربوي ككل إلى ما هو خاص و إجرائي مع ما يفترضه مثل هذا الانتقال وما يتطلبه من اشتقاق و تخصيص . وهي كلها عمليات تقتضي تمثل المدرس ووعيه بتكاملها و تداخلها و ارتباطها العضوي و الوظيفي . وبقدر ما تتدرج الأهداف التربوية من أعلى المستويات، أي من القيم و المبادئ و التوجهات الكبرى، إلى التي تلها في التدرج و الترتيب، بقدر ما تتطلب الضبط و التحديد، سواء تعلق الأمر بمادتها المعرفية، بطريقة صياغتها أو بالجهات الموكل إليها عملية تنفيذها . وعلى الرغم من التباين الحاصل في وصف و تقدير هذا الانتقال أو هذا المسار من العام إلى الخاص أو من الكل إلى الجزء أو من المجرد إلى المتعين القابل للملاحظة والقياس، فإن التصنيف التالي يكاد يغطي جميع الاستعمالات اللفظية التي عادة ما نصادفها في مجال تصنيف هذه الأهداف و تحديد مستوياتها :

***الغايات les finalités**: تعبر عن فلسفة المجتمع و توجهاته العامة و مقاصده البعيدة في مجال التربية. كما تعكس جملة المبادئ و القيم التي ينبغي طبع الناشئة بها داخل نظام تعليمي معين و العمل على إعادة إنتاجها بما يعنيه ذلك من إعادة إنتاج للمجتمع بكامله ، و من ثم ضمان استمراريته . إنها تمثل الاختيارات العامة للبلاد و التي تعكس منظورها الثقافي العام . و عادة ما تصاغ هذه الغايات بشكل عام و مجرد، و من ثم فهي لا تصلح لأن تكون موجهاً للممارسة التربوية اليومية لما يفترضه ذلك من دقة و وضوح .

***المرامي أو الأغراض les buts**: تشتق المرامي من الغايات وترتب مباشرة بعدها وهي تقدم السياسة التعليمية للدولة في خطوطها العامة مبينة الأسس التي يرتكز عليها النظام التعليمي و الأغراض المتوخى منه تحقيقها و توجهاته البعيدة المدى سواء بالنسبة للبرامج و المقررات، أسلاك التعليم و أنواعه أو شعبه، تخصصاته و نظام أو آليات تقويمه.

***الأهداف العامة les objectifs généraux**: يتوجه هذا الصنف من الأهداف إلى الاهتمام بشخص المتعلم و من ثم العمل على حصر مختلف الأنشطة التعليمية لاستخلاص كل القدرات التي يتعين بلورتها و تطويرها لدى المتعلمين في أفق تكوينهم تكويناً متكاملاً يطال مختلف جوانب شخصيتهم المعرفية، الحس-حركية و الوجدانية.

***الأهداف الخاصة les objectifs spécifiques**: يسميها البعض كذلك بالأهداف السلوكية وهي نتاج عملية تفكيك لهدف أو أهداف عامة . والهدف الخاص يرتبط دائماً بموضوع معين أو مواضيع تهم وحدة دراسية، كما يرتبط كذلك بجانب أو جوانب سلوكية محددة تكون مستهدفة في الأنشطة التعليمية الممارسة .

¹ - محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية التعلمية، منشورات مجلة الدراسات النفسية و التربوية، الرباط، 1983، صص.17-18

*الأهداف الإجرائية les objectifs opérationnels: ارتباط الهدف الخاص بموضوع محدد يكون قيد الدرس أدى ببعض الدارسين إلى اقتراح تفكيك الهدف الخاص إلى أهداف صغرى يختص كل واحد منها بنشاط واضح يحدد إنجازها بشكل إجرائي و دقيق . وخلافا لهذا التصور هناك من يرى أن الهدف الإجرائي ما هو إلا هدف خاص تمت صياغته بطريقة إجرائية .

2- بيداغوجيا الأهداف: الايجابيات والحدود:

لقد مثلت بيداغوجيا الأهداف هذه، و حسب كثير من الدارسين، قفزة نوعية في مجال التدريس. فهي على الأقل أخرجته من الفوضى والارتجال، وجعلت الدرس مخططا له و مفكرا فيه قبلها حيث انه لم يعد هناك مجال للنوايا والأهداف المضمرة بل كل شيء ينبغي أن يفصح عنه والعمل على أجرأته وفق الخطط التي نعتقد أنها مناسبة. وقد مثلت من هذه الناحية جوابا متقدما جدا على إشكالية التقويم، المطروحة منذ القديم، و الذي سيحقق معها نوعا من الموضوعية والحيادية وحيث يسهل قياسه لأن المعايير و المهارات المستهدفة تكون محددة من قبل و معروفة من الطرفين المدرس و المتعلم .

غير أن تركيزها المبالغ فيه على المقاربة الإجرائية، و ما تفترضه من تفتيت للأهداف العامة، الشيء الذي يعقد مهمة المتعلم الذي يعجز عن تركيب ولم شتات ما تم تجزيؤه، ثم افتراضها طرق و تقنيات محددة يلزم الأستاذ التقيد بها، أدى بها كل ذلك إلى السقوط في التقنية الشيء الذي أفقد الدرس جاذبيته، حيويته و غناه و أدخله في روتينية قاتلة ماتت معها بشكل تدريجي إبداعية الأستاذ و مهاراته.

وحتى إذا ما استطاع المتعلم أن يتحكم في مهارات فانه يظل عاجزا عن استثمارها و توظيفها عندما تواجهه مشكلات حياتية. إن كل ما حصله يظل دون معنى و دون فائدة.

كان لابد إذن إيجاد بديل بيداغوجي يحتفظ بايجابيات هذا المنتج ويتجاوزه. والإجابة ستكون مع بيداغوجيا صاعدة آنذاك . إنها بيداغوجيا الكفايات و التي ستمثل مدخلا مناسباً للتعلم و تحقيق مستلزمات نمو شخصيته و ما يتطلبه ذلك من قدرات و أداءات عقلية و عملية ضرورية .

إن العمل بواسطة الكفايات سيمثل محاولة لتجاوز نقائص و ثغرات المقاربة السلوكية (الغلو في التركيز على الأهداف الإجرائية) و اعتماد نظرة جديدة للفعل التعليمي الممارس داخل الفصل الدراسي باعتباره نشاطا تفاعليا مفتوحا على الدوام على المبادرة والفعالية و تجاوز عملية تقنين هذا النشاط و تقييده بضوابط، قد تقلص من فرص الإبداع والخلق والتعامل المرن مع مختلف المواقف التي لم تبرمج مسبقا أو لم يؤخذ لها حسابها أثناء التخطيط للدرس و بنائه كما كان الأمر مع البيداغوجيا السابقة بيداغوجيا الأهداف..

خلافاً لما سبق نجد الكفاية أكثر دينامية و انفتاحا على غيرها وهي بذلك تتوفر على قدرة هائلة على التحويل والاستعمال الواسع مما يسمح بتحقيق تعلمات من مستوى عال جدا . كما أن الكفاية لا ترتبط بمضمون تعليمي محدد بل إنها مجال تتفاعل داخله معارف وخبرات ومهارات ومواقف ... بغض النظر عن انتمائها إلى هذه المادة التعليمية أو تلك . أضف إلى ذلك وظيفتها الإدماجية للفرد داخل المجتمع و إمكانية استفادته مما يتعلمه داخل الفصل الدراسي واستثماره لحل المشاكل التي قد تعترضه في حياته العملية . وهذا تتقلص نسبيا الهوة بين المعارف المدرسية و متطلبات الحياة اليومية .

ثانيا : بيداغوجيا الكفايات أو ضرورة الربط بين التعلم وسياقه:

ظهرت هذه البيداغوجيا لتجاوز سلبيات بيداغوجيا الأهداف و لمواجهة المشاكل التي اعترضت تطور المدرسة الغربية، و الأمريكية بشكل خاص، و الرهانات التي فشلت في تحقيقها . ولعل من أهم مظاهر ذلك الفشل أنها تخلت عن دورها الدمجي للفرد المتعلم داخل المجتمع، لأن ما تقدمه له لم يعد يجيب و يتجاوب و اكرهات أو متطلبات الحياة المتعددة . فما الذي استفيده المدرسة و فيم تنفع كل هذه الساعات من الدرس و التحصيل ، التي قضاها المتعلم بين حيطان المدرسة، إذا كان التلميذ لا يحتفظ منها إلا ببعض البقايا أو العلامات traces والتي لا تنفعه عند مواجهة مشكل حقيقي عندما يخرج إلى "الحياة الحقيقية" "la vraie vie" (بيرنو) أو الحياة النشيطة "la vie active" (عبد الرحيم هروشي) ؟ ففي الحدود التي يفصل فيها الشكل المدرسي تعلم الممارسات الاجتماعية و التي من المفترض أنه يعد الفرد و يحضره لها، يصبح من المشروع، كما يذكر بيرنو ، التساؤل إلى أي حد يعتبر ذلك الإعداد إعدادا فعليا- وناجحا – وبمعنى آخر هل المدرسة تعد و تحضر للحياة أم أنها تشتغل في مدار مغلق ؟¹

إذا كانت مسألة تحويل المعارف le transfert des savoirs لم تفقد بعد طابعها الآني ، فذلك لأنها لم تجد حلا، ذلك لأن عددا كبيرا من التلاميذ الذين يتعلمون لا يستطيعون تحريك و استثمار معارفهم في سياقات جديدة . إنهم يتوفرون، بتعبير بيرنو، على "رسم نائمة" capitaux dormants لا يستطيعون الاستفادة منها و استثمارها من جديد . مقابل ذلك نجد المدرسة، كما يذكر بيرنو دائما ، لا تترك أي مكان و لا تعترف بالكفايات التي يكون التلميذ قد كونوها خارج أسوارها باستثناء تلك التي تستجيب، وبشكل مباشر، للمقرر الدراسي. "لا يهم إذن إن كان تلميذ قد قضى أربع ساعات و آخر أربع سنوات في دراسة البيولوجيا إذا كان كل منهما قد وقع فريسة لداء الایدز ؟ وبالمثل فيم تفيد مراكمة ثقافة جغرافية أو تاريخية موسعة إذا كان ذلك لا يبيح الفهم و التحكم بشكل جيد في العالم و في تطوره" ؟²

إن هذا التصور ينهل من فلسفة مهيمنة داخل المدرسة الرأسمالية الغربية، وهي التي ظلت توجه الفعل التربوي لمدة عقود كثيرة من الزمن ، وترسم له كيف ينبغي أن يكون . إنها الفلسفة البراغمية التي تقوم على مفهوم المنفعة و تضعه فوق كل اعتبار ، والتي تماهي بين مجال المقابلة و مجال المدرسة، مجال الشغل و مجال الحياة و تدمج الكل ضمن منطق واحد، منطق الرأسمال الذي لا يؤمن إلا بحقيقة واحدة : حقيقة أكبر قدر من الربح و بأدنى التكاليف ، ومن ثم "فالحقيقي هو المفيد و النافع" بتعبير جون ديوي ، أبرز منظري هذا التيار الذي يحمل معناه في تسميته . لا عجب إذن أن يخرج مفهوم الكفاية ذاته من مجال الشغل والاقتصاد كما خرج مفهوم الهدف و كما خرج مفهوم المشروع...إنها تركة ذات نسب واحد وتوجهات مماثلة مهما تغيرت الأسماء، السياقات والمبررات .

¹-Philippe Perrenoud, Le rôle de l'école première dans la construction des compétences, revue Préscolaire(Québec), vol.38, n°2, avril 2000, pp.6-11

²-Philippe Perrenoud, op.cité,p.7

1- الأسس والمرتكزات النظرية لبيداغوجيا الكفايات:

* الفلسفة البراغمية: لقد مثلت هذه الفلسفة إطارا نظريا ألهم الكثير من البيداغوجيين وبالتالي ظهور مجموعة من المقاربات البيداغوجية والتي ستأسس عليه. وبالرغم من جل الانتقادات التي وجهت له خصوصا في بداية ظهوره من طرف منظرين تغذوا بالفكر الماركسي الذي مثل خلال القرن الماضي خزانة للأسلحة النقدية ضد كل ما هو رأسمالي أو ينحو منحاه، فإن المسار العام الذي اتخذه تطور الإنسانية ونظمها الاقتصادية والاجتماعية بالخصوص، قد أعطى فرصا جديدة لظهور هذا التيار من جديد، وبالتالي سيشكل مجالا ستأسس عليه مجموعة من الاجتهادات البيداغوجية بما فيها تلك ذات المنحى النقدي التشكيكي لما تنتجه المدرسة باعتبارها في نهاية المطاف لا تعدو أن تكون سوى مؤسسة من مؤسسات الدولة الأخرى. هكذا ستظهر في البداية بيداغوجيا الأهداف وحيث سيظهر التماهي الكامل بين عالم المنفعة (الشغل) ومجاله (المقاولة) وعالم المعرفة ومجاله المدرسة بل ومجال الحرب والمناورة.

وبالتالي فيبيداغوجيا الأهداف ستمثل ترجمة لهذا التوجه داخل مجال التربية الذي سيصبح منذ ذلك الحين مخترقا و مجالا لاستقبال كل المفاهيم المهاجرة أو المترحلة nomades و حيث ستصبح المقاولة وطريقة اشتغالها هي المرجع و المعيار، منها ننقل التجارب و عليها نقيس.

وهكذا و عوض أن تظهر بيداغوجيا من داخل الحقل التربوي تجيب عن أسئلته الذاتية و عن مشاغله، تطلعاته و اكراهاته، و بالتالي الحديث عن بيداغوجيا علمية بالمعنى الدقيق للكلمة، أي بيداغوجيا تمتلك مفاهيمها، نجد أن المجال التربوي ظل يشتغل بمفاهيم إجرائية ليست وليدة تاريخه الخاص، أزماته و عوائقه الذاتية، بقدر ما هي مفاهيم ظهرت ضمن مجالات و إشكالات أخرى. كان لابد إذن، والحالة هذه، أن تفشل بيداغوجيا الأهداف و التي تحولت مع مرور الزمن إلى مجرد تكنولوجيا لم يستطع تبنيها تجاوز مرحلة إنتاج القدرات. وأية قدرات؟ إنها القدرات المعرفية والتي لا تتعدى اكتساب المعارف، تخزينها و نسيانها بسهولة. لقد أصبح الدرس بمقتضى هذا التوجه البيداغوجي درسا عقيما، تطبيقيا، جافا و صميا يقتل كل مبادرة سواء كان مصدرها المعلم أو التلميذ. وحتى على مستوى التقويم الذي كانت اشكاليته - كما مر بنا- من بين الأسباب العميقة التي أدت إلى ولادة هذه البيداغوجيا، فقد ظل على حاله، فما يتم تقويمه في غالب الحالات هو المكتسب المعرفي لدى التلميذ ليس إلا.

لقد مثل هذا الواقع من جهته مناسبة لمراجعة هذا التوجه في التربية و التعليم وبالتالي ظهور بيداغوجيا الكفايات لكن دون تحقيق قطيعة مع الفلسفة البراغمية التي شكلت جذعا مشتركا بينهما.

*التصور البنائي للمعرفة: إن المعرفة حسب هذا التصور هي نتيجة لعملية بناء مستمر لا يعرف التوقف. عملية يتداخل فيها المحسوس بالمجرد ويتبادلان التأثير خارج منطق هيمنة أحدهما على الآخر. "إن اعتماد الانطلاق من الحسي إلى المجرد، أو القول بالنزول من المجرد إلى المحسوس، يعتبر كل منهما عملية المعرفة كسيرورة خطية ذات اتجاه أحادي تعطى فيها الأولوية إما للمنطق (العقل) أو للنشاط الحسي، ولا سبيل لتقاطعهما.

إن تجاوز هذه السمة الخطية لكلا المنهجين هو ما يميز المنهج البنائي/ الديقالكتيكي الذي يقدم عملية المعرفة كعملية بناء واكتشاف لا سبيل فيها لتفضيل العقل على الملاحظة الحسية ولا لتفضيل هذه الأخيرة على العقل. إن الذات (الباحث أو المتعلم) لا تمارس النشاط المعرفي لمجرد أنها تسير وفق خطة مقننة، بل لأنها تبني المعرفة كجواب على مشكلة محددة أو وضعية- مشكلة تستدعي حلا معيناً، وليست هناك سيروية منهجية نمطية توصل إلى بناء هذا الجواب، بل لابد أن تمر عملية البناء من سيروية دينامية أساسها الشعور و الوعي بمشكلة ما (نظرية أو واقعية) وفحواها القيام بنشاط يعمل فيه العقل بنماذج و بنياته المختلفة، إلى جانب الفعل الحسي و الحركي، للتأثير على الأشياء والموضوعات والوصول بالتالي إلى تجريد ما حدث من تغيرات عليها في صورة معارف محددة". هكذا "فإن يكتسب المتعلم معارف و أفكار ومهارات عملية من خلال سيروية بنائية، معناه أن تنظم الوضعية التعليمية- التعليمية بشكل يسمح لهذا المتعلم بممارسة التفكير كفعالية نظرية و عملية في نفس الوقت، وتجعله على اتصال مستمر بالأشياء والموضوعات المختلفة، وتبني له إمكانية التفكير فيها واستخلاص المعارف والقوانين و القواعد المتحكممة فيها، وفق سيروية منهجية تعكس إبداعيته وعطاءه الشخصي"¹.

إن هذا التصور ينهل من الاستيمولوجيا التكوينية لجان بياجى وتصوره للمعرفة و التي لا تتكون ، كما كان يعتقد السلوكيون، طبقاً للقانون مثير – استجابة، بل تتكون انطلاقاً من التفاعل الدائم بين مكونات الفرد الداخلية ومحيطه الإدراكي وذلك عبر أولويتي الاستيعاب والتلاؤم أو المواءمة وما يصاحب ذلك من توتر وسعي دؤوب لإعادة التوازن. هكذا وحسب جان بياجى دائماً "إن الذات في مواجهتها للموضوعات الخارجية تقوم باستيعاب خصائص هذه الموضوعات لتكون بذلك ما يسمى بالخطاطات الذهنية les schèmes mentaux لكن الموضوعات الخارجية ليست بمثابة معطيات ثابتة أو جامدة بل هي دائمة الحركة و التغير و التجديد، لذلك نجد أن هذه العناصر الخارجية تفرض خصائصها على الذات لترغمها على ملاءمة الخطاطات الذهنية المكونة سابقاً، حتى تجعلها تتحدد وفقاً للتغيرات الجديدة التي حدثت على عناصر الوسط. إن هذه السيروية le processus الدائمة بين عمليتي الاستيعاب و التلاؤم هي التي تخلق توازناً بين الذات و الموضوع وتؤدي بالتالي إلى تحقيق التكيف adaptation² ، وهو تكيف، على خلاف التكيف البيولوجي، تكيف مرحلي لحظي لأن البنيات المعرفية كما يذكر بياجى هي بنيات دينامية لا تتوقف عن النمو و التطور بل تستمر في نموها بالموازاة مع تطور الفرد وارتقاء نموه من مرحلة عمرية إلى أخرى، حيث خلال كل مرحلة، تتأسس بنيات جديدة تحتوي و تتجاوز البنيات السابقة لها وهكذا دواليك. هكذا فالتعلم و المعرفة لا يمثلان أنشطة عبثية بل إنهما عمليتان تستهدفان بلوغ حالة توازن فقدت عند الفرد من جراء أحد أمرين: إما تغيرات ظهرت في محيط الفرد و أنشأت لديه حاجة إلى المعرفة أو إلى التعلم أو تغيرات طرأت على مستوى تفكيره استوجبت أو استدعت الفهم و التفسير. وبحصول الفرد على مخرج أو بحدوث الفهم يتم التوازن الذي لا يكون، كما مر بنا ، سوى توازن مرحلي لابد أن يعقبه خلل أو حادث ما يستدعي بدوره نشاطاً جديداً قصد تجاوزه.

¹ - عبد الكريم غريب وآخرون، في طرق و تقنيات التعليم، من أسس المعرفة إلى أساليب تدريسها، سلسلة علوم التربية، العدد السابع، الشركة المغربية للطباعة و النشر، الرباط، 1992، ص.171

² - خالد المير وإدريس القاسمي، سلسلة التكوين التربوي، العدد الرابع، ص.117

لقد كان لمثل هذه التصورات الثورية في عهدها و التي انبنت على نتائج العلم البيولوجي من جهة و الملاحظات الامبريقية المتأنية لبياجي نفسه في متابعته لعملية النمو كما عاينها لدى بنتيه، أثر كبير في مجال التربية و تبين كيفية حدوث التعلم و هو تأثير سوف لن نتخلص منه كل البيداغوجيات الفعالة الصاعدة آنذاك و التي بدأت تتخلص شيئا فشيئا من ارث السيكلولوجيات الترابطية و كذا السلوكية و اللتين اختزلتا فعل المعرفة في منظورات بسيطة إما برده إلى ترابطات آلية كما نجد لدى الترابطيين أو تفسيره طبقا لقانون المثير و الاستجابة و مراوحة الذات المتعلمة بين الخطأ و الصواب كما نجد عند السلوكيين . وبيداغوجيا الكفايات باعتبارها تفترض اعتماد مختلف هذه البيداغوجيات الحديثة أو الفعالة تتأسس على مثل هذا التصور الابيستيمولوجي البنيوي للمعرفة و العلم .

إلى جانب هذين المكونين النظريين اللذان أثرا، بطريقة أو بأخرى، على بيداغوجيا الكفايات، نجد المدرسة السلوكية في علم النفس كما فهمها البيداغوجيون خصوصا منظورا الأهداف البيداغوجية . فهؤلاء بقدر ما ساهموا في عقلنة العملية التعليمية- التعلمية و إخراجها من العشوائية و الحدس و تحديد ضوابطها و ذلك بجعل الدرس مفكرا فيه قلبيا و من كل جوانبه (المضامين و العدة البيداغوجية اللازمة)، وبالرغم من صياغتهم على شكل صنافات لمختلف مجالات أو جوانب الشخصية الإنسانية و طرق التدخل فيها : معرفيا من خلال صنافة بلوم ، حسيا - حركيا صنافة سمبسون ، ووجدانيا صنافة كراتهول . بالرغم من ذلك كله سنلاحظ هيمنة الجانب الأول المعرفي وإهمال شبه تام للجانبين الآخرين الحسي الحركي و الوجداني مما سيشكل إفقارا للذات الإنسانية و اختزالا لها في مجال واحد هو مجال المعرفة على حساب المهارات العقلية، خصوصا تلك المرتبطة بالقيم الأخلاقية و الجمالية . وحتي على المستوى الأول ستؤدي ظاهرة التفتت و الاشتقاق و الانتقال من أهداف عامة إلى أهداف إجرائية إلى قطع الصلة بين الهدف الأصل و الأجزاء التي يتم تقويمها . وهكذا سيصبح الدرس المرتقب في إطار بيداغوجيا الأهداف درسا غارقا في التطبيق و التقنية مما سيؤثر، لا شك في ذلك، على فكر المتعلم الذي سيصبح محصورا و محدودا، وكذلك أداء المدرس الذي سيكتفي بالتطبيق و اختزال عمله في تقنيات محددة سلفا مما يحول دون التصرف الحر و أخذ المبادرة و الخلق و الإبداع و ما يتولد عن ذلك من تربية للجمود و التكرار و حصر الوظيفة التعليمية في مجرد نقل سلبى للمعلومات دون الاستفادة منها و استثمارها في حياة الشخص و معيشه اليومي .

كان لابد إذن و لتجاوز هذه النقائص و هذا الهدر للطاقات من ظهور بيداغوجيا جديدة تركز على الكفاية أكثر من تركيزها على المهارة، بيداغوجيا تركز على مستقبل الشخص أكثر من تركيزها على حاضره و تركز على نجاحه الدائم و في وضعيات مختلفة و ليس في وضعية واحدة ، وضعية الامتحان ، و تهتم بمجال أوسع، أرحب و أعقد، ، مجال الحياة و ليس فقط مجال المدرسة، النجاح الاجتماعي و ليس فقط النجاح المدرسي. "إن الأمر يتعلق و باختصار، كما يذكر بيرنو، بالسعي، ليس مكان، ولكن فيما وراء اكتساب المعارف، نحو بناء كفايات مستعرضة و قابلة للتحويل transversales بقدر ما هي نظامية disciplinaires" (أي مرتبطة بمواد دراسية مقررّة) ¹

¹ -Philippe Perrenoud, Le rôle de l'école première, op.cité, p9.

على هذين الأساسين إذن، الأساس الفلسفي ممثلاً في الفلسفة البراغماتية والأساس النفسي ممثلاً في السلوكية من جهة وسيكولوجية جان بياجى من جهة أخرى، سينهض توجه الكفايات في التربية والتعليم .

وينضاف إلى ذلك ، بطبيعة الحال ، ما يسميه الأبيستيمولوجيون بالمحيط الإيديولوجي العام الذي ضمنه سيتأسس هذا التصور الجديد لوظيفة المدرسة في علاقتها ليس فقط مع عالم المعرفة أو عالم الاقتصاد والشغل – هذا التصور الذي ظل مهيمناً حتى عهد قريب – بل في علاقتها مع الحياة بوجه عام وكيفية إعداد الفرد للاندماج الفعلي و الإيجابي في هذا العالم الذي بدأ في التخلي عن كثير من قيمه ومبادئه، قيم بها كانت تتحدد ماهية الإنسان كذات واعية، خالقة و منتجة للمعنى .

وهكذا فهذه الاستراتيجية في التدريس ستعمل على تحقيق قطيعة مع الطريقة التقليدية التي كانت تركز على المعرفة أكثر من غيرها، والتي لا تتصور المتعلم إلا ككائن سلبي مهمته الاستقبال والحفظ . كما أن مجال تقويمها للتعلّمات لم يعد منحصرًا داخل مجال المدرسة بل يتوسع ليشمل المجتمع ككل ومدى قابلية التعلّمات المدرسية للإجابة على مختلف الأسئلة التي تطرحها الحياة. ومن ثم كان لا بد لها أن تعتمد مقاربات بيداغوجية جديدة أهم ما يوحد بينها هو أنها من جهة، بيداغوجيات تركز بالدرجة الأولى على تعلم القدرات، ومن ثم تحقيق الكفايات . ومن جهة أخرى تركزها حول المتعلم والذي معه، به ومن خلاله، يبني الدرس ويتم تثبيت التعلّمات ومن ثم تجاوز الهدر المدرسي بمختلف أشكاله، وإرجاع المكانة الخاصة للمدرسة كمؤسسة لإدماج الأفراد، تكوينهم وتأهيلهم للحياة المستقبلية وتمكينهم من تجاوز كل المشاكل التي قد تواجههم اعتماداً على الكفايات المتنوعة التي تلقوها داخل رحاب المدرسة . ومن بين هذه المقاربات التي تصب في نفس الاتجاه يمكن أن نذكر:بيداغوجيا المعرفة، البيداغوجيا الفارقية، بيداغوجيا المشروع ثم بيداغوجيا التمثلات وبيداغوجيا الخطأ...الخ

إن العمل إذن ، وفق هذه الاستراتيجية واعتماد المقاربات أو المداخل البيداغوجية المتنوعة السابقة وحسب ما يفترضه الحال ، وما تستلزمه الوضعيات التعليمية والتي من طبعها التنوع والاختلاف، سيغني، لا شك في ذلك، الممارسة التربوية و يعطيها كل دلالاتها .

إن منطلق العملية التعليمية – التعلّمية و محركها في هذه الحالة، سوف لن يكون هذا الهدف أو ذاك، هاته المهارة أو تلك، بل حتى الكفاية نفسها لن تكون مطلباً مجرداً بل ترجمة لانتظارات و رغبات اجتماعية . ثمة داخل المجتمع ممارسات اجتماعية سليمة سيتم تحويلها إلى كفايات مرغوب فيها. وبعد تحديدها و التوافق حولها يتم البحث لها عن الموارد resources الضرورية . وهي موارد قد تكون عبارة عن معارف (أهداف معرفية)، قدرات (أهداف حس حركية) أو مواقف (أهداف وجدانية) . ولتقويم هذه الكفايات و ملاحظة مدى تحققها لدى المتعلم يفترض التدريس بالكفايات مجموعة من الوضعيات المشكلات يوضع المتعلم في مواجهتها لنلاحظ إلى أي حد يستطيع استثمارها و اختيار المناسب منها لمواجهة ما اعترضه من مشكلات مركبة .

إن ما يحصله المتعلم منذ اليوم لن يبق مجرداً أو دون دلالة، بل إن كل ما يتلقاه وراءه غاية و قصد، مرتبط بمعيشه اليومي وله دلالاته . بهذه الطريقة يكتشف المتعلم أهمية التعلّم الذي يصبح ذا دلالة و معنى . تلك هي فلسفة الكفايات والتي في إطارها يستبدل المدرس السؤالين التقليديين : ماذا أعلم؟ (سؤال البيداغوجيا التقليدية) وكيف أعلم؟ (سؤال البيداغوجيا

الأهداف) بسؤال جديد و ثوري في حينه : لماذا أعلم؟ والجواب في مجال المجتمع الرأسمالي لن يخرج عن الجوابين التاليين : الإعداد لممارسة مهنة ما داخل المجتمع، ثم الإعداد لحياة مجتمعية سليمة يكون فيها الفرد منسجما مع ذاته و مع الآخرين . تلك هي وظيفة المدرسة الحديثة ومدخل الكفايات مدخل مناسب لتحقيقها. الى حد نجحت المدرسة الحديثة في تحقيق هذه الانتظارات هل الامر يتعلق فقط في الأداء البيداغوجي انه مرتبط باستمرار تصورات ومعيقات أخرى لعل أهمها تلك التي تنظر إلى الفكر نظرة تقوم على الاختزال و التبسيط؟ إلى أي حد كذلك يمكن للبيداغوجيا التركيبية أن تتوفق في إيجاد مخرج من هذا النفق المسدود الذي يأسر المعرفة والتعلم داخل أسوار المدرسة و يظل عاجزا على مواجهة التحديات التي يواجهها خارج اسوارها؟

نخلص من هذا العرض التركيبي لمسارات الفكر التربوي الى ما يلي :

1-إن التفكير في طرق التواصل والتدريس، والطريقة التي ينبغي أن تحكم العلاقة بين الراشد والطفل، أو المعلم والمتعلم، تفكير قديم لازم الفكر الإنساني منذ الأزل وأن الأعراف البيداغوجية متجذرة في التاريخ.

2-إن التجاذب بين فكر بيداغوجي منغلق(بيداغوجيا تقليدية) وآخر منفتح (بيداغوجيا حديثة) لازم الفكر الإنساني منذ القديم وبالتالي لا ينبغي أن نربط بين ظهور البيداغوجيا الحديثة بمقارباتها المتعددة وظهور الفكر الحديث، حيث أننا لانعدم مصادفة ملامح اشراقات بيداغوجية متنورة على امتداد التاريخ الإنساني.

3-هذه البيداغوجيات كذلك، بصنفها التقليدي و الحديث، نجدها تحتفظ بنفس الخصائص التي راكمتها عبر التاريخ. هناك ثوابت تميز البيداغوجيا التقليدية منذ القديم إلى اليوم، ونفس الشيء يمكن أن نقوله بخصوص البيداغوجيا الحديثة، فمثلا نفس الخصائص و التصورات التي قد نصادفها حول العلاقة التربوية والنظرة للمتعلم في ثنايا الفكر السقراطي و ممارساته للتربية هي نفسها التي قد نعثر عليها مع براديغم paradigme الكفايات في العصر الحالي.

4- أن العلاقة بين هذه البيداغوجيات، القديم منها والحديث، لم تظهر أبدا على شكل قطيعة بمعناها الاستيمولوجي بل هناك اغناء و تجاوز في ظل الاستمرارية. هكذا فإذا كانت البيداغوجيا التقليدية قد ظلت أسيرة لأسلوب الإلقاء والاهتمام المبالغ فيه بالمعارف، فإن البيداغوجيات اللاحقة، بدءا من بيداغوجيا الأهداف ستحتفظ و ستقر بأهمية المعرفة وأهمية تعويد المتعلم على تخزينها والتمرن على التذكر، لكنها أضافت إلى ذلك أهمية المهارات خصوصا مهارات التفكير لكي يتم اعتبار الكل مع بيداغوجيا الكفايات فقط مدخلا، وان كان ضروريا لبناء كفايات لا بد لها من موارد و أهم تلك الموارد المعارف والقدرات ثم المواقف والاتجاهات، والتمرن على استثمار الكل لتجاوز وضعيات مشكلات مركبة وإيجاد الحلول المناسبة لذلك وفي الوقت المناسب .

ثالثا: ادغار موران وبديل الفكر المركب:

يعتبر ادغار موران من المؤسسين للبيداغوجيا المركبة و للفكر المركب la pensée complexe. وهي بيداغوجيا، ضدا على البيداغوجيا السابقة أو الكلاسيكية من منظوره دائما، ترفض كل فكر يقوم على وهم البساطة والتجزئ والاختزال ومحاربة التعقيد. إن كل معرفة، حسب، لا تتخذ معناها الصحيح و دلالاتها الحقيقية إلا داخل سياق، داخل كل . وبالتالي، فعوض

الفصل بين المواد التعليمية و تدريسها منعزلة بعضها عن بعض ، أو على الأقل هكذا يدركها المتعلمون، يتعين إيجاد و نسج الروابط الضرورية بين هذه المواد و الحقول المعرفية التي تحيل إليها لجعل المتعلم قادرا في المستقبل على مواجهة الواقع المعقد و المركب بطبيعته. واقع تستوجب مواجهته و الحياة فيه التسلح بكل المعارف الممكنة بعيدا عن كل منطق تخصصي يقتل الذات و بأسرها داخل عالم محدود و مغلق:عالم التخصص.

هذه الطريقة في النظر ليست غريبة عن الفكر الفلسفي، على الأقل ، منذ بزوغه على شكل نسقي مع أفلاطون حيث عرفت الفلسفة باعتبارها تفكيرا شموليا و نسقيا و حيث إن الفيلسوف لا يركن إلى معرفة محددة، بل ينهل من كل المعارف في أفق إيجاد أو بناء تصور شمولي للعالم و للوجود. وهو نفس التفكير الذي سيدعو له فلاسفة العلوم و الابدستيمولوجيون في مرحلة لاحقة .

تلك هي، حسب تقديرنا، أهم ملامح هذا البرادغم النظري الذي يقدمه ادغار موران والذي يتضمن جملة تصورات، ورؤاه حول العمل الفكري وحول العالم و مستقبله . و من أجل مقارنة دقيقة و موسعة لهذا المشروع الفكري ، يجدر بنا أن نطرح التساؤلات التالية : ما المعنى الذي يتخذه التركيب عند ادغار موران؟ ما الفرق بين التركيب *complexité* و التعقيد *complication*؟ و ما الذي يميز الفكر التركيبي عن غيره؟ ما الذي يميز المنطق التركيبي عن المنطق "التقليدي" الذي ما فتئ ينعته بالاختزالي، الأحادي البعد و التبسيطي، ثم ما هي الإضافات النوعية لهذا الفكر – التركيبي- بالنسبة للبيداغوجيا و الممارسة التربوية في عالم اليوم؟.

على المستوى الاشتقاقي ترجع كلمة "المعقد" أو "المركب" *complexe* عند ادغار موران إلى الكلمة اللاتينية *complexus*، وهي تحيل إلى "كل ما هو منسوج مع بعضه البعض"¹. إن المركب هو عبارة عن نسق يتواجد بدوره في نسق أكبر، و في ذلك دلالة على وجود نوع من الترابط و التماسك في شكل نسيج مشترك². يقول ادغار موران في هذا الإطار: "عندما أتحدث عن التركيب فأنا أعود إلى المعنى اللاتيني البدائي لكلمة تعقيد *complexus*، أي المنسوج مع بعضه بعضا...انه ذلك النسيج من المكونات المتنافرة المجمعمة بشكل يتعذر معه التفريق بينها. انه ذاك الذي يطرح مفارقة الواحد و المتعدد³. كما يعرفه أيضا باعتباره "نسيجا من الأحداث و الأفعال و التفاعلات و الارتدادات و التحديدات و المصادفات التي تشكل عالمنا الظاهراتي"⁴. و يخلص موران من خلال هذا التحديد إلى أنه لا يمكننا تلخيص أو حصر المركب في كلمة تعقيد⁵ لأننا آنذاك سنسقط في خطأ المناهج التقليدية التي تعاملت مع الظواهر المعقدة من خلال إخضاعها لفعل التبسيط و الاختزال، و التي كان همها الرئيسي

¹ - ادغار موران، أزمة المعرفة عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، تعريب جاد مقدسي، مجلة الاستغراب، 2015، ص52

² - ادغار موران، نفس المرجع، ص52

³ -- صورية لقاط زيتوني، ابدستيمولوجيا التركيب و فلسفة التربية عند ادغار موران، دار الأيام للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2015، ص39

⁴ - ادغار موران، الفكر و المستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصور و منير الحجوجي، دار توبقال للنشر، المغرب، 2004، ص19

⁵ - في هذا الإطار يكتب جزن ماري لوغاي، المركب هو " تلك الموضوعات التي إن فككتها أو قسمناها إلى أجزاء طلبا للبساطة تتغير طبيعتها" أما بالنسبة للمعقد فهو ذلك " المكون من عناصر عديدة و إذا ما عوضنا عنصرا أو غيرناه فهذا لا يحدث أي أثر في طبيعته". انظر جون ماري لوغاي، التجربة و المنهج، مقال في المنهج، ترجمة سفيان عبد الله، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2009، ص11

هو التوصل إلى النظام وإزاحة اللإيقين وهو عمل زاد في تعقيد الواقع وأدى إلى ما بسميه موران نفسه بـ "العبي العقلي"، ذلك الذي كانت تمارسه نظرية المعرفة الكلاسيكية لتجاوز كل أشكال الغموض من أجل الوصول إلى الوضوح والتميز والتصنيف لكل المعارف. يكتب في هذا الإطار: "مازلنا عميانا فيما يخص مسألة التعقيد، فالخلافات المعرفية بين كارل بوبر Popper، طوماس كون Kuhn، نلاكاتوس Lakatos، فيرابند Feyerabend... الخ تجاهلها ومرت عليها في صمت. وهذا العبي يشكل جزءاً من بربريتنا. انه يشعرون أننا مازلنا ننتمي إلى عصر الأفكار البربرية، مازلنا في عصور ما قبل تاريخ الفكر البشري. وحده الفكر المركب يمكنه أن يسمح لنا بإضفاء طابع التحضر على معرفتنا"¹

خلافاً لذلك سيعمل موران، وعلى امتداد مختلف كتاباته أن يبين أن البساطة وهم وأن التبسيط هو مجرد حيلة من حيل العقل التقليدي اللاهت وراء النظام، وأن العالم الذي نسكنه عالم محكم التركيب تتعايش في داخله كل الأضداد الممكنة: التعقيد والبساطة. فالحياة ليست جوهرًا ثابتًا كما نعتقد بل هي ظاهرة مركبة للغاية. إنها حصيلة التنظيم الذاتي الذي نقوم به في علاقاتنا مع المحيط². أكثر من ذلك فالتعقيد لم يعد يتحكم في معارفنا فحسب بل تغلغل وسط ذواتنا، واقعنا و كل مجالات حياتنا و حيث لم نعد نجد أثراً للمجتمع العادل البسيط القائم على الأيديولوجيا العلمية وأطروحة الإنسان الجديد. لقد انهار كل شيء تحت وطأة تعقيد متعدد الأبعاد³. ولم يقف التعقيد عند هذا الحد بل عاد إلينا من داخل العلوم عبر نفس الطريق الذي سبق لهذه العلوم أن طردته عنها⁴، فالإنسان اليوم يقف ضائعاً أمام معارف متعددة وهائلة ولكنها مفتتة لا يربط بينها رابط ومن ثم يخلص موران إلى انه من اللازم علينا عندما نفكر في التركيب أن نتخلص من وهمين أساسيين:

- ليس من الضروري أن يقودنا التعقيد إلى القضاء على البساطة، بل انه يدمج داخله كل ما يصنع الاستقرار الوضوح والتميز والدقة في المعرفة، كما انه يرفض كل أشكال الاختزال والتوحيد والتبسيط.
- يرفض كل شكل من أشكال الفكر الفاصل والتجزئي، وهو الفكر الذي يعزل ما يقوم بتفريقه ويحجب كل ما يصل ويتفاعل ويتداخل فيما بينه⁵.

و لا ينفك موران يذكرنا بان المركب هو ما تم نسجه ككل، انه عبارة عن حلقة وصل بين كل العناصر المكونة لكل مثل ذلك الكل الذي نجده في الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي والوجداني والأسطوري، مع مراعاة كل أشكال الترابط والتفاعل والارتداد بين مواضيع المعرفة وسياقاتها، أي بين الجزء والكل وبين الكل والجزء وبين الأجزاء فيما بينها⁶. وهو نفس التصور الذي قد نعثر عليه لدى باسكال والقائل إن جميع الأشياء مسببة ومسببة، مساعدة ومساعدة، وغير مباشرة

¹-Edgar Morin, Introduction à la pensée complexe, Paris, Ed. du seuil, 2005, p.24

² - ادغار موران، نفس المرجع، ص 8

³ -صائب سويد، العبر مناهجية ومشكلة الحضارة، رسالة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، قسم الفلسفة، بدون تاريخ، ص 8

⁴ - ادغار موران، نفس المرجع، ص 17

⁵ ادغار موران، نفس المرجع، ص 10

⁶ - ادغار موران، تربية المستقبل، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرقي ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ط 1، 2002

و مباشرة، و أنها تربط الأشياء الأكثر تباعدا و الأكثر اختلافا، لأنه يستحيل معرفة الكل إذا كنا نجهل الأجزاء بدقة، لهذا فمن غير الممكن معرفة الأجزاء إذا لم نعرف مجمل هذه الأجزاء.¹

نخلص مما سبق إلى أن الفكر المركب أو التركيبي هو فكر يطمح إلى إعادة نسج العلاقات بين كل المعارف في أفق الوصول إلى معرفة شمولية، معرفة متعددة الأبعاد، لأن من مسلمات التعقيد استحالة وجود علم مكتف بذاته. ومثل هذا التصور يجد امتداداته في تاريخ الفكر الإنساني ككل. لقد كان، حسب ما نعتقد، نتيجة قراءة متأنية و فاحصة لتاريخ الفكر الغربي ونتيجة لما عرفه هذا العلم من تقدم و تطور في شتى المجالات، و اطلاعه على مفاهيم و تصورات مثلت لحظة فارقة في تاريخ الفكر الغربي بشكل خاص. ومن بين هذه المفاهيم مفهوم التنظيم الذاتي الذي حملته معها نظرية المعلومات و السيبرنطيقا و نظرية الأنساق.² و موران يصرح في هذا الإطار أنه ليس هو الوحيد الذي فكر التعقيد أو التركيب بطريقة واضحة. و يذكر في هذا الإطار مفكرين آخرين لم يغيب عن أذهانهم المعنى المنتظر من التركيب. "لقد سبق لفيلسوف العلوم غاستون باشلار أن اكتشف أن البسيط لا وجود له و انه لا يوجد إلا المبسط le simplifié أو الذي تم إدراكه كذلك."³

هكذا يخلص موران إلى أن بناء معرفة على فكر تحليلي تبسيطي يجعل منها معرفة عمياء، لأن "الأذهان المجزأة و المفتتة و المبقرطة تعنى على التفاعلات و المفعولات الراجعة، و تعنى عن السببية الحقيقية، و لا نزال نراها كثيرا ما تنظر إلى الظواهر من حيث سببيتها الخطية، فهي تدرك الوقائع الحية و الاجتماعية وفق تصور آلي/حتمي لا يصلح لغير الآلات الاصطناعية"⁴

إن "المنهج" الذي يقترحه ادغار موران للتفكير في تعقيد هذا العالم الذي نعيش فيه، يفترض التفكير كذلك في الممارسات التربوية و البيداغوجية و اعتماد البراديفم النظري الذي يقترحه، و الذي يتأسس على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الطابع البين- تخصصي للمعرفة transdisciplinaire، و كذلك ضرورة ربط الموضوعات المدرسة بالمتعلم و بمحيطه. فعلى امتداد كتابه "المنهج" يحاول أن يتصور الارتباط بين ما كان مفككا حتى الآن ضمن مقاربة حوارية تسمح بمعرفة كل العوالم العامة و الخاصة.

وفي مجال التدريس يفترض التركيب أن إصلاح الفكر و إصلاح التعليم يشكلان وجهان لعملة واحدة و من ثم ينبغي كما يذكر موران "إصلاح الفكر أجل إصلاح التعليم و إصلاح التعليم من أجل إصلاح الفكر"⁵

غير أن "إصلاح المدرسة في نظره لا يمكن القيام به دون الأخذ بعين الاعتبار الرغبة في التعلم و الاهتمام وتنمية الإيجابية لدى المتعلم"⁶.

¹- بن يوب هناء، ابستيمولوجيا التركيب عند ادغار موران. بحث لنيل شهادة الماستر في فلسفة التربية، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945، الجمهورية الجزائرية، السنة التكوينية 2016/2017، ص 28

²- ادغار موران، الفكر و المستقبل، مرجع سابق، ص 10

³ Nathanael Laurent, Qu'est ce que la complexité, Revue des questions scientifiques, 2011, n°182n, p253

⁴ - ادغار موران، هل نسير إلى الهاوية؟ ترجمة عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2012، ص 54

⁵ -- Edgar Morin, La tête bien faite. Repenser la reforme, reformer la pensée, Paris, Ed. du Seuil, 1999

⁶ -Edgar Morin, Enseigner à vivre. Manifeste pour changer l'éducation, Actes Sud, 2014

مثل هذا التصورات نجد لها صدى لدى كثير من البيداغوجيين منذ بداية القرن العشرين و الذين سعوا إلى بناء مدرسة تتيح للمتعلمين تفتح مواهبهم و تكون مضيافة، منفتحة على محيطها و مرتبطة بالحياة. مدرسة تعد مواطنين للمستقبل لا يكفي أن تكون عقولهم نيرة و لكن يمثلون كائنات إنسانية قادرة على التكيف مع مجتمع الغد¹.

وقد كانت له امتدادات في مرحلة لاحقة مع بداعوجيا الكفايات التي حاولت تجاوز البيداغوجيا التقليدية، كما سبق أن رأينا، التي اختزلت عملية التعليم في نقل و اكتساب المعارف، ثم كذلك بيداغوجيا الأهداف التي، و إن كانت من جهتها قد حققت نقلة نوعية بالمقارنة مع البيداغوجيا التقليدية من خلال تنظيمها وعقلنتها للعملية التعليمية و جعلها متمركزة حول المتعلم والسلوكات المرغوب إحداثها أو تعديلها لديه، إلا أن كلا منهما كانت تقدم معارف أو مهارات ولكن خارج سياق، خارج وضعيات، ومن ثم وبتعبير فيليب بيرنو فان المتعلم كان يراكم مجموعة من الرساميل المعرفية ولكنها كانت تظل نائمة لا يتم استثمارها و يتم نسيانها بسرعة.

أمام هذا الوضع و هذا الهدر للمعارف وهذا التفكك بين المواد المدرسة سيبين منظروا الكفايات، واعتمادا على خلفية نظرية بنائية، أن ما يتعين بناؤه عند المتعلم ينبغي أن يكون على شكل كفايات أي مجموعة من المعارف والقدرات و المواقف التي يتحصل عليها المتعلم داخل المدرسة مع إكسابه القدرة على تحريكها بشكل مدمج لمواجهة عائلة من الوضعيات المشكلات، ومن ثم ربط العلاقة بين ما تنتجه المدرسة و ما يصطدم به المتعلم خارج أسوارها، ومن ثم الحديث كما نعرف عن نوعين من الكفايات: كفايات نوعية أو خاصة مرتبطة بمادة دراسية معينة، وكفايات مستعرضة منفتحة على كل المواد الدراسية، وجاءت بيداغوجيا الإدماج مع كزافيي روجرز لتدقق العملية أكثر من خلال التمييز بين وضعيات ديداكتيكية ترسي فيها الموارد (معارف، قدرات و مواقف) و وضعيات إدماجية يتم فيها التمرين على استعمال تلك الموارد و بعد ذلك تقويمها للتأكد من مدى النجاح في بناءها بشكل جيد لدى المتعلم. إن الأمر يتعلق بالتركيز على ما يجب أن يتحكم فيه المتعلم في نهاية التعلم، أكثر من الاهتمام بما ينبغي للمدرس أن يدرسه.

إن وظيفة هذا الأخير تنحصر فقط في تنظيم التعليمات بأحسن طريقة ممكنة لتحقيق النتائج المنتظرة و المسطرة من قبل، وكذلك بإعطاء معنى للتعليمات، وأن نجعل التلميذ يتبين قيمة ما يدرسه داخل المدرسة وإعطاء دلالة لتعليماته.

من أجل ذلك يتعين عليه أن يتجاوز لوائح محتويات المواد الدراسية، أي المعارف التي يحفظها عن ظهر قلب، وكذلك المهارات الفارغة من المعنى، والتي في غالب الحالات، تقلق وتشوش على التلميذ ولا تفتح له شبهة التعلم. خلافا لذلك تعلمه المقاربة الإدماجية كيف يوضع، وبشكل مستمر ودائم، تعليماته في علاقتها مع وضعيات لها معنى بالنسبة إليه و استخدام كل موارده في مواجهة المشاكل التي قد تعترضه². وذلك ما يطمح إليه موران، ذلك أن ما يهيم بالنسبة إليه هو هذا الربط بين المعارف وبين الأفراد والمجتمع ذلك انه فقط بفضل التربية عندما تصبح مهمتها نسج مختلف العناصر التي تكون كلا، يمكننا

¹ - محمد شرقي، مقدمات عامة حول مسارات الفكر التربوي، مجلة علوم التربية، عدد 70، يناير 2018، صص 54-61.

² - Philippe Perrenoud, Le rôle de l'école² première dans la construction de compétences, revue préscolaire, vol.38, avril, 2000, p11

أن ندرك البعد الشمولي للمعرفة والتي تصبح ذات معنى. انه بفضل هذه التربية فقط يمكننا أن نتعلم الاعتراف بالخطأ و الوهم و إدماج اللايقين إلى غير ذلك من المفاهيم المعقدة اللازمة للفهم، منذ سن مبكرة لكسب التقدم بنجاح في المسار التعليمي.

ينبغي أن نتعلم بفضل التربية المبكرة أن الحقيقة لا توجد منفصلة على شكل مواد دراسية متفرقة، و أن فكرنا هو الذي خلق هذا الفصل و هذا التقسيم. يتعين علينا إذن كمرتين إعادة الوصل بين المعارف فيما بينها و " نسجها " مجتمعة. تلك هي غاية التربية من منظور موران و هي الأطروحة التي ظل يدافع عنها في كل المناسبات. و هي غاية، كما يذكر، لا يمكن لها إن تتحقق إلا من خلال استيعاب مجموعة من الدروس يحددها موران في سبعة معارف أساسية :

- 1- العى المعرفي(الأخطاء، التوحيد، و غير المتوقع، اللايقين...)
- 2- مبادئ المعرفة الملائمة (السياق، الشمولية، المتعدد الأبعاد، المعقد...)
- 3- تدريس الوضع البشري(التأصيل، اقتلاع الجذور، الضفائر: دماغ/فكر/ثقافة...)
- 4- تدريس الهوية التراثية (ارث القرن العشرين، الأخطار الجديدة، الوعي التراثي...)
- 5- مواجهة اللايقين (الشكوك التاريخية، لايقين المعرفة، لايقين الواقع .. الضفائر: مخاطر/احتياطات...)
- 6- تدريس الفهم (عوائق الفهم، الروح الاختزالية، الوعي بالتعقيد الإنساني...)
- 7- أخلاقيات الجنس البشري، الديموقراطية و التعقيد، المواطنة الدنيوية، الإنسانية كقدر كوكبي...¹

هذا التصور لتربية المستقبل يبقى تصورا واعداء لبناء ذات مفكرة تستطع التكيف مع مجال من أهم سماته التعقيد. وقد سجلنا كيف أن هذا التصور يتماهى مع الكثير من المقاربات البيداغوجية الحديثة خصوصا الكفايات التي تم ترسيمها في مجموعة من الأنظمة التربوية، لكن شتان بين الخطاب و الممارسة، شتان بين هذه التنظيرات المتعددة لفعل التربية والتعليم والممارسات الميدانية دون أن نتحدث عن شروط إنتاج المعرفة وإرساء التعلمات، و هي شروط تفرض على المدرس ومهما كانت درجة وعيه بأهمية بناء ذوات حرة، ومهما كانت يقظته أن يسقط في الإلقاء ومن ثم إعادة إنتاج نفس الأوضاع ونفس الأنماط السلوكية. وخاتمة القول انه بإمكاننا إنتاج خطابات بيداغوجية و بلورة تصورات لبناء إنسان جديد و نظام تربوي جديد ولكن ثمة دائما و في نهاية المطاف السياسي الذي يقرر في تبني هذا النهج أو ذاك.

قائمة المراجع:

- 1- ادغارموران، جون بودريار، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دارالحوار، سوريا، ط.1، 2005
- 2- ادغار موران، أزمة المعرفة عندما يفتقر الغرب إلى فن العيش، تعريب جاد مقدسي، مجلة الاستغراب، 2015

¹- هامش للتوسع أكثر يمكن الرجوع إلى كتاب ادغار موران: Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur, Ed. du Seuil, 2000

- 3- ادغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل الى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصور و منير الحجوجي، دار توبقال للنشر، المغرب، 2004
- 4- ادغار موران، تربية المستقبل، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق و منير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ط1، 2002
- 5- ادغار موران، هل نسير إلى الهاوية؟ ترجمة عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2012
- 6- بن يوب هناء، ابستيمولوجيا التركيب عند ادغار موران، بحث لنيل شهادة الماستر في فلسفة التربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 8 ماي 1945، الجمهورية الجزائرية، السنة التكوينية 2016/2017
- 7- جون ماري لوغاي، التجربة و المنهج، مقال في المنهج، ترجمة سفيان عبد الله، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2009
- 8- صائب سويد، العبر مناهجية و مشكلة الحضارة، رسالة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة دمشق، قسم الفلسفة، بدون تاريخ
- 9- صورية لقاط زيتوني، ابستيمولوجيا التركيب و فلسفة التربية عند ادغار موران، دار الأيام للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2015
- 10- عبد الكريم غريب وآخرون، في طرق و تقنيات التعليم، من أسس المعرفة إلى أساليب تدريسها، سلسلة علوم التربية، العدد السابع، الشركة المغربية للطباعة و النشر، الرباط، 1992
- 11- علاء طاهر، نهايات الفضاء الفلسفي، الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية و المستقبل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2005
- 12- محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية التعلمية، منشورات مجلة الدراسات النفسية و التربوية، الرباط، 1983
- 13- محمد شرقي، البيداغوجيا، مفهوم تاريخ و مقاربات، منشورات فضاء آدم بمراكش، 2017
- 14- محمد شرقي، مقدمات عامة حول مسارات الفكر التربوي، مجلة علوم التربية، عدد 70، يناير 2018
- 15-Catherine Hapern, John Dewey, Eduquer par l'experience, revue des sciences humaines n°45, 2016
- 16- Edgar Morin, Enseigner à vivre. Manifeste pour changer l'éducation, Actes Sud, 2014
- 17- Edgar Morin, Introduction à la pensée complexe, Paris, Ed. du seuil, 2005
- 18- Edgar Morin, La tête bien faite. Repenser la reforme, reformer la pensée, Paris, Ed. du Seuil, 1999
- 19- Edgar Morin, Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur, Ed. du Seuil, 2000

20-Georges Minois, Platon-Premier théoricien de l'éducation, Les grands dossiers des sciences humaines, n°45, décembre 2016

21-MarieLaure Viaud, Montessori, Freinet, Steiner...une école différente pour mon enfant? le guide des pédagogues et des établissements, de la maternelle au lycée, Nathan,2015

22-Michel Soetard, Rousseau, les rêveries d'un pédagogue imaginaire, les grands dossiers des sciences humaines, op. cité 23-Nathanael Laurent, Qu'est ce que la complexité, Revue des questions scientifiques, n°182,2011 23-Philippe Perrenoud, Le rôle de l'école première dans la construction des compétences, revue Préscolaire(Québec), vol.38, n°2, avril2000

24- Spencer, De l'éducation intellectuelle, morale et physique,1861

25- V.et G. Delandscheere, Définir les objectifs pédagogiques, PUF,3ème éd.,Paris,1982

نساء الفراولة، أنامل جنية : الوجه الخفي للهجرة النسائية المغربية إلى إسبانيا

Strawberry ladies, fairy fingers. The invisibles of the Moroccan seasonal migration in Spain

ط.د. الحسن فركاكوم/جامعة ابن زهر أكادير، المغرب

lahsen Ferkakoum: PhD student / Ibn Zohr University, Agadir - Morocco

ملخص:

يتناول الكتاب الذي يقع في مقدمة وخمسة فصول، قضايا الهجرة النسائية المغربية إلى إسبانيا، باعتبارها أحد أهم تحولات النظام الهجري الوطني في القرن 21. تثير هجرة النساء المطلقات والأرامل والمتزوجات ذوات أبناء قاصرين إلى جنوب إسبانيا بداية كل موسم فلاحى لجني الفراولة منذ سنة 2002، إشكالات وتساؤلات معقدة فتحت الباب لنقاش مجتمعي انخرط فيه بقوة الباحثون الأكاديميون والحقوقيون والسياسيون والصحفيون وهيئات المجتمع المدني... لمسألة الشروط التمييزية التي يفرضها المشغلون الإسبان، وتقييم ظروف العمل وأوضاع حقوق العاملات الزراعيات في بلد المهجر؛ والتداعيات النفسية والسيكولوجية لـ "هجرة منتقاة" على النساء وأسرهن، بالإضافة إلى مساءلة تأثيرات هذه الهجرة على التنمية البشرية الموعودة في المناطق الأصلية، التي تنص عليها اتفاقية القوى العاملة بين المغرب وإسبانيا الموقعة وفق منطق رايح-رايح.

الكلمات المفتاحية: هجرة نسائية- نساء الفراولة- هجرة سرية – التنمية - الهشاشة الاجتماعية.

Abstract:

The book, which consists of an introduction and five chapters, deals with issues of Moroccan female immigration to Spain; which is one of the most important transformations of the national immigration system in the 21st century. The emigration of divorced, widowed and married women with minor children to southern Spain, in the beginning of each agricultural season for strawberry harvest since 2002, has created complex problems and questions that have opened the door to a societal debate in which academic, human rights, political, journalist and civil society organizations have been actively involved... to question the discriminatory conditions imposed by Spanish operators, evaluate the working conditions and conditions of the rights of female agricultural workers in the country of emigration, and the psychological implications of "selected migration" on women and their families; in addition to questioning the effects of this migration on the promised human development in the original areas stipulated in the manpower agreement between Morocco and Spain, signed according to the logic of win-win.

Key words: female migration - strawberry women - secret migration - development - social fragility.

مقدمة :

استهلت الباحثة شادية عرب¹ مقدمة الكتاب² لإثارة أهم القضايا الاقتصادية والاجتماعية التي تدفع النساء للهجرة الدولية نحو حقول الفراولة الإسبانية، وهي شبيهة بعوامل الهجرة الداخلية نحو ضيعات يملكها مستثمرون أجانب بالمغرب. في سنة 2007، أصبحت الفرصة مواتية للعاملات الراغبات في الهجرة نحو اسبانيا، وبدأت معها معاناة النساء مع الوكالة الوطنية لإنعاش الشغل وتنمية الكفاءات (ANAPEC) المكلفة بتنظيم الهجرة على التراب الوطني لفائدة المشغلين الإسبان. وهناك في اسبانيا تبدأ فصول معاناة أخرى يأتي في مقدمتها مظاهر الإذلال والاحتقار والتمييز على أساس الجنس.

عقدت الباحثة مقارنة سريعة بين العاملات المهاجرات المغربيات في الحقول الإسبانية والقادمات من رومانيا وبولونيا، وتأكدت على لسان مهاجرة أن المغربيات يشتغلن في صمت ويخضعن لأوامر المشغلين وعادة لا ينخرطن في أي شكل من أشكال الاحتجاج، وهو ما يجعلهن مطلوبات بقوة لدى المشغلين الإسبان.

ليس كل المهاجرات يشتغلن في الضيعات الفلاحية، بل منهن من قادهن الظروف للاشتغال كخدمات في بيوت الإسبان مقابل أجور هزيلة (500 يورو/شهر - لعمل مستمر من 8 صباحا إلى 8 مساء)، وبدورهن لم يسلمن من الإذلال والاستغلال و"الحكرة" والمعاناة النفسية والاعتراب والتسويق والمماطلة في تسوية الوضعية رغم توفرهن على وثائق الإقامة وعقود العمل.

تعود الكاتبة مجددا لعقد مقارنة بين ظروف تشغيل النساء في الضيعات الإسبانية لجني الفراولة "الذهب الأحمر" وظروف تشغيل العمال المغاربة سنوات 1950 - 1960 في مناجم الفحم "الذهب الأسود" في فرنسا Nord pas de galais. وقد توصلت إلى أنها ظروف مماثلة بالنظر إلى أن الهدف كان هو البحث عن يد عاملة رخيصة خاضعة قادرة على العمل، تستجيب لمعايير التمييز في العمر والسن والعرق والجنس والبنية الاجتماعية... دون أن تستحضر الباحثة - في اعتقادنا - الظروف التاريخية لأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وأوضاعها الاقتصادية في بداية القرن 21، والتي قد تجعل المقارنة في ضوء ضوابط المنهج المقارن في الدراسات الإنسانية في موضع انتقاد. لقد ظل المغرب بحكم موقعه الجغرافي "محافظة أوروبية" لتزويد الدول بحاجاتها من القوى العاملة، والتي تصل إلى دول المهجر في إطار اتفاقيات مع الحكومة المغربية، يحكمها ظاهريا منطبق رابع - رابع، لكن الخاسر الأكبر فيها هن النساء العاملات.

تكمن إشكالية البحث في الهجرة النسائية الدولية ودواعي الاهتمام بالموضوع والانشغال بمقاربة النوع في الهجرة حسب الكاتبة في ضرورة إعادة الاعتبار لدور المرأة المغربية في التحولات المجتمعية وفي مسارات الهجرة الدولية وكسر الصور النمطية الشائعة حول النساء المهاجرات، وإخراج المرأة من زاوية الضحية في مسلسل الهجرة إلى وضعية المرأة الراغبة القادرة المالكة لإرادة التحكم واتخاذ قرار الهجرة منفردة ورسم معالم حياة جديدة خارج الوطن. هذه الوضعية تحجبها عادة النظرة الاختزالية

¹ أستاذة الجغرافيا الاجتماعية وجغرافيا الهجرات، بجامعة Angers بفرنسا، وباحثة في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS. تهتم بقضايا النوع في الهجرات الدولية المغربية نحو فرنسا إيطاليا إسبانيا ودول الخليج العربي (الإمارات العربية المتحدة).

² صدر للباحثة الكتاب الذي نحن بصدد مراجعته و تحليله بعنوان:

en toutes lettres النشر عن دار البيضاء - المغرب. Dames de fraises, doigts de fée. Les invisibles de la migration saisonnière marocaine en Espagne. سنة 2018، الدار البيضاء - المغرب.

لوضع المرأة كتابع للرجل، ولتستقبل هجرتها في بلد الإقامة كاستمرار لمعاناتها في البلد الأصل، لاسيما وأن معظم النساء يشتغلن في قطاعات اقتصادية غير مربحة باعتبارهن أقل كفاءة من الرجال كما يقر بذلك التقسيم الدولي للعمل على أساس الجنس. إن الهجرة في نهاية المطاف لا تهم فقط النساء في وضعية الهشاشة الاجتماعية (المطلقات- الأرامل- الأمهات العازبات...) بل تهم كذلك نساء لهن كفاءات وشهادات جامعية عالية¹، عاطلات ويرغبن في الهجرة لتغيير أوضاعهن الاجتماعية، ويساهمن مع أخريات باجتيازهن حدود الوطن في خلخلة البناء الاجتماعي والثورة على التقاليد الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع ويؤسسن لعلاقات اجتماعية جديدة بين الرجال والنساء.

تقتضي مقارنة موضوع الهجرة النسائية بين المغرب واسبانيا إعداد استمارة ميدانية وتقصي مسار الهجرة يشمل بلد الأصل وبلد الإقامة، على غرار أبحاث عبد المالك صياد² في تجربة الهجرة الجزائرية. وبناء عليه فإنه من غير المجدي البحث في الهجرة دون استحضار مسار المهاجرات وواقع حياتهن الاجتماعية في بلداتهن بأقاليم أزيلال الحاجب وبني ملال والقصر الكبير بالمغرب ثم ظروف إقامتهن بإقليم (HUELVA) في الجنوب الغربي لاسبانيا. لقد نهجت الكاتبة منهج الصياد، والتقت بنساء الفراولة في المغرب ثم في جنوب اسبانيا كما التقت بالمسؤولين المغاربة و الإسبان المكلفين ببرنامج استقطاب المهاجرات، لتسهيل ولوجها إلى عالم نساء الفراولة في الضيعات قصد إعداد التحريات الميدانية وفق تقنية الملاحظة التشاركية وتتبع مسارات تطور الهجرة النسائية بين المغرب واسبانيا ما بين 2009-2017 وجمع المعطيات الضرورية لانجاز البحث في الهجرة النسائية إلى حقول HUELVA الاسبانية.

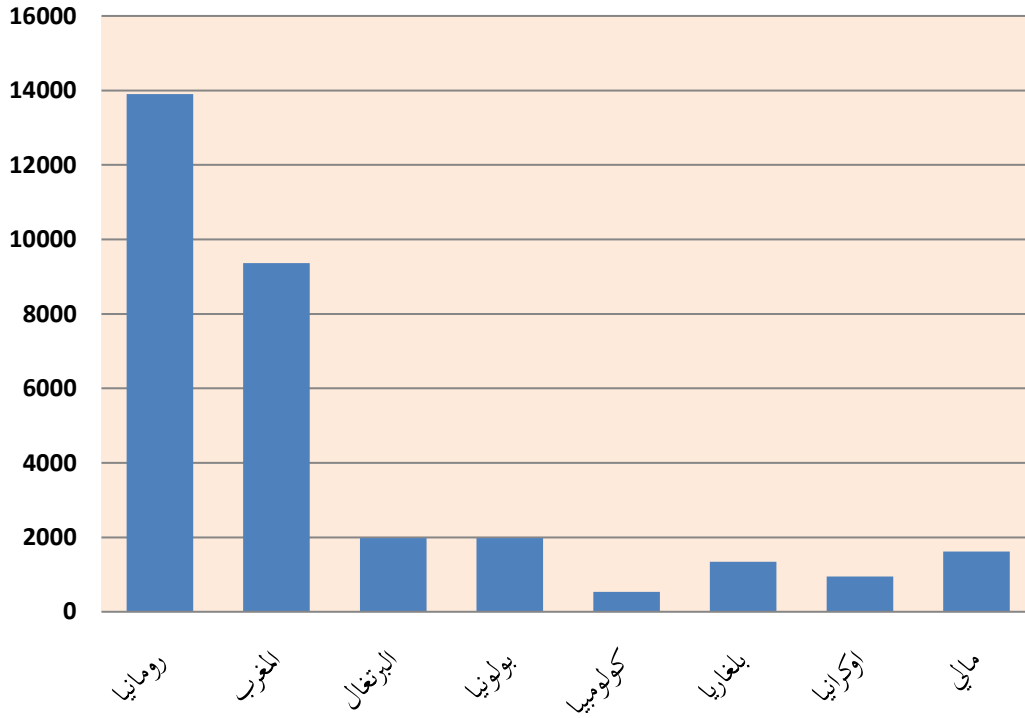
1- من Huelva إلى "الويل والبلاء": مسار هجرة نسائية موسمية

يعتبر بعض المغاربة منطقة Huelva مكان " ويل وبلاء " لأن بعض نساء الفراولة يتحررن من القيود وتقاليد المجتمع لممارسة البغاء، وهذا الاتهام المجانب للصواب تنعت به كل النساء الوحيدات اللواتي تقودهن الظروف للاشتغال خارج الأسر.

¹ تعتبر الكاتبة " أفضل المهاجرين" واستعرضت سيرة بعضهن، وقد كن في الأصل "أسوء المهاجرين" استطعن تسوية وضعيتهن القانونية في أوروبا، ووضعت هذين المفهومين بين مزدوجتين "--" في إشارة للحذر المنهجي في الاستخدام المجازي.

² Abdelmalek sayad, La double absence des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré, éditions du Seuil, 1999.

الشكل رقم 1: جنسيات المهاجرين الى اقليم جنوب اسبانيا سنة 2017



مصدر المعطيات : شادية عرب، نساء الفراولة ايادي جنية، الوجه الخفي للهجرة النسائية المغربية الى اسبانيا . ص 30.
الانجاز: تخطيط شخصي.

تستقطب Huelva آلاف المهاجرين من بلدان مختلفة (الشكل 1) في مقدمتها رومانيا والمغرب، للعمل في حقول الفراولة ما بين شهري فبراير ويونيو، ويبدو أن المهاجرات المغربيات يحضين بالأولوية في التشغيل لدى المزارعين الإسبان. ويعود الفضل في ذلك لدهاء المشغلين الذين ابتكروا مقاربة جديدة في التشغيل، أقل كلفة وأكثر مردودية، تدعى العقدة في "البلد الأصل" à le contrat l'origine لاسيما بعد حصول العاملات من بلدان أوروبا الشرقية على امتياز المطالبة بالحقوق والتنقل بكامل الحرية بعد انضمام بلدانهم إلى الاتحاد الأوروبي (بولونيا 2004- بلغاريا 2007).

لم يكن دور الهجرة الدولية وعائدها المادية يكمن فقط في تغيير نظرة المجتمع إلى المرأة المطلقة-والأم العازبة، من امرأة مرفوضة مجتمعيًا إلى سيدة مقبولة محترمة لها سمعتها ومكانتها في البلدة بفضل حصولها على المال والإسهام في تغيير أوضاع الأسر المادية والاجتماعية، بل مكنت أيضا كثيرا من النساء في وضعية الهشاشة الاجتماعية من التحرر وتغيير الأوضاع والتحكم أكثر في مسار حياتهن وإعالة أسرهن كدفع تكاليف علاج الآباء ومصاريف تدرس الأبناء. هذه الهجرة هي أمل بعض الأسر للخروج من وضعية الفقر والضغط الاجتماعي، كما أنها مبتغى أخريات للبقاء في اسبانيا في إطار الهجرة السرية مؤقتا

والسعي للحصول على تسوية الوضعية. لكن الأمل سرعان ما يتحطم أمام صعوبة ظروف العيش وتشديد الدول الخناق على المهاجرين المقيمين فوق التراب الأوروبي بطريقة غير قانونية.

قد تلجأ بعض المهاجرات أمام انسداد آفاق البقاء في أوروبا إلى الزواج المختلط من أجنبي. ورغم ما يطرحه من مشاكل، فإن بعضهن يفضل الزواج من إفريقي "أسود" مقيم بطريقة قانونية في أوروبا لتسوية وضعيتهن القانونية، بدل البقاء عرضة لمتاعب الوضع الاجتماعي المزري في بلداتهن الأصلية. لقد غيرت الهجرة الدولية كثيرا من التمثلات وأصبح المجتمع المغربي يقبل الزواج المختلط من أوروبيين أو أفارقة أو حتى بزواج مغربيات من مواطنين ذوي البشرة السوداء...

2- برنامج تديير الهجرة الموسمية.

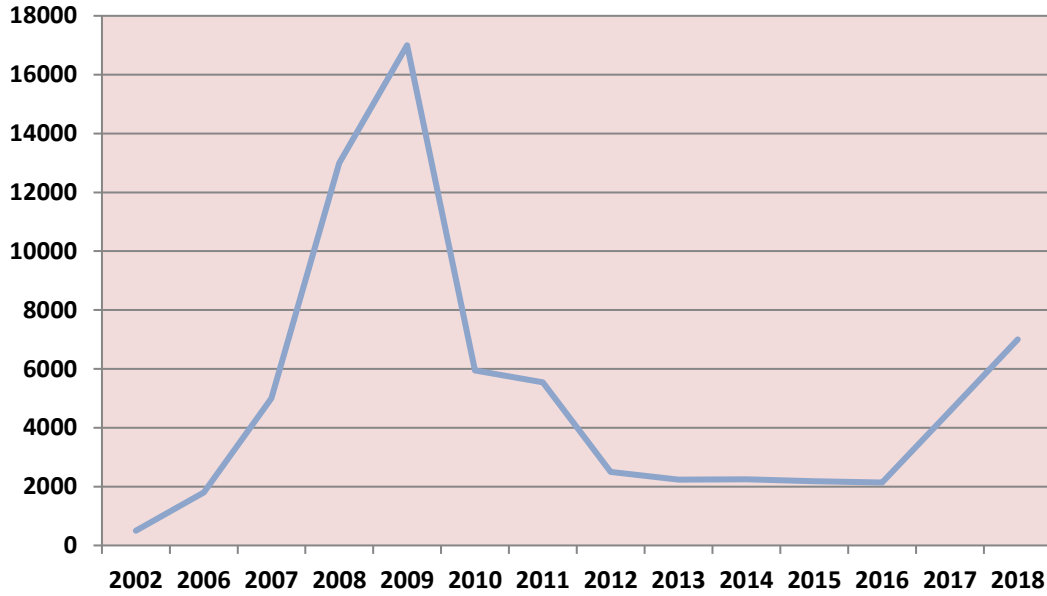
أطلق الاتحاد الأوروبي سنة 2004 برنامج الدعم التقني والمالي للدول النامية في مجال الهجرة واللجوء - AENEAS - بلغت تكلفته المالية حوالي 1,5 مليار اورو EURO بهدف إلى رصد تدفقات الهجرة السرية وضمان عودة المهاجرين إلى بلدانهم فور انتهاء موسم الشغل. وفي هذا السياق تندرج عقدة العمل في البلد الأصل le contrat en origine والاتفاقية الإطار بين عمدة مدينة CARTAYA بإقليم HUELVA الأسباني و ANAPEC:

تتولى ANAPEC توفير العاملات وفق المواصفات المحددة من المشغلين وأساسا الكفاءة في العمل وضمان العودة إلى المغرب بعد نهاية الموسم الفلاحي، في حين تتولى عمدة CARTAYA عبر FUTEH (مؤسسة العمال الأجانب في HUELVA) توفير الشغل وضمان الاستقبال وإيواء العاملات في ظروف جيدة.

في سنة 2000 عقد المشغلون الإسبان العزم على توظيف البولونيات والبلغاريات بتصاريح عمل مباشرة، لكن التجربة اعترتها العديد من النقائص وكثير من الهجرة غير القانونية إلى دول الاتحاد الأوروبي. وفي سنة 2002 بدأ المشغلون الإسبان لبحث عن اليد العاملة المغربية في إطار عقود عمل مباشرة مع حوالي 500 عاملة شابة، خاصة في إقليم القنيطرة ومولاي بوسلهام، وبدون الاستعانة بخدمات ANAPEC، وتبين أن معظمهن فضل البقاء في إسبانيا بعد نهاية عقد الشغل.

وبمجيء سنة 2004 أطلق برنامج AENEAS وانطلقت معه تجربة جلب القوى العاملة من المغرب وفق معايير الصرامة لتقليص تيارات الهجرة غير النظامية في إطار "عقدة العمل في البلد الأصل". يقوم البرنامج بتديير القوى العاملة النسائية منذ هجرتها وتتبع عملها وظروف اشتغالها بإسبانيا إلى حين عودتها إلى المغرب، بنظام معلوماتي متطور. مكن هذا البرنامج الذي كان موضوع اتفاقية بين المغرب وإسبانيا من جلب أعداد كبيرة من العاملات لجني الفراولة في الحقول الإسبانية بلغت أقصاها سنة 2009 بحوالي 17000 عاملة. (أنظر الشكل البياني رقم 2..).

الشكل رقم 2: تطور عدد العاملات المهاجرات الى حقول الفراولة الاسبانية ما بين 2002 - 2018



مصدر المعطيات : شادية عرب، نساء الفراولة أيادي جنينة، الوجه الخفي للهجرة النسائية المغربية الى اسبانيا . ص 56.
الانجاز : تخطيط شخصي.

صحيح أن الأعداد تراجعت بعد الأزمة الاقتصادية لسنة 2010 في الدول الأوروبية المتوسطة (اسبانيا - ايطاليا - اليونان)، لكن نسبة العاملات المغربيات ضمن القوى العاملة المشتغلة في اسبانيا ظلت مرتفعة مقارنة بباقي الجنسيات، كما تراجعت حصة المهاجرات اللواتي يخترن البقاء في اسبانيا بطريقة غير قانونية من 90% سنة 2002 إلى 4,5% سنة 2008. ويعد هذا الأمر مؤشرا على نجاعة نظام التشغيل بالعقدة في البلد الأصل ولاسيما مع العاملات المغربيات اللواتي يفضلن على باقي الجنسيات مثل السنغاليات والرومانيات والبولونيات الأقل كفاءة وتجربة والأكثر تفضيلا لخيار البقاء في اسبانيا على العودة إلى موطنهن الأصلي.

3-الهجرة المراقبة

تخضع عملية هجرة العاملات المغربيات لنظام مراقبة جد صارم تدقق فيه الشروط التي يجب أن تتوفر في المهاجرات: أن تكون امرأة يتراوح عمرها ما بين 25-40 سنة، ذات تجربة في العمل الفلاحي، وتنتمي لمنطقة قروية، وأن يكون لها على الأقل طفل يدنو عمره عن 18 سنة، مطلقة أو أرملة أو امرأة متزوجة يرخص لها زوجها بالهجرة.

وتحت ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية ومشاكل البطالة تستجيب وزارة التشغيل المغربية عبر وكيلها ANAPEC لهذه الشروط رغم أنها تخدم الطرف الاسباني، وتلحق كثيرا من الضرر النفسي بالمهاجرات اللواتي يتم اختيار أغلبهن من الأقاليم الأكثر فقرا وهشاشة بالبلاد.

لم تبتد الكاتبة أي اعتراض على هذه الشروط، ولم تنتقد الغلو في فرضها من جانب المشغلين الذين يركزون على تحقيق هدف البرنامج الممول من الاتحاد الأوروبي المتمثل في ضمان حراسة حدود أوروبا وعودة المهاجرات بعد نهاية الموسم الفلاحي. لقد كان بإمكانها بسط وجهة نظرها في موضوع الشروط لاسيما وأنها انتقلت إلى اسبانيا وزارت أكثر من تعاونية فلاحية ووقفت عن قرب على معاناة العاملات النفسية والسيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية¹؛ كما أن وزارة التشغيل تستطيع فرض شروط العمل التي تحفظ كرامة المهاجرات على المشغل الإسباني الذي لا يملك خيارات أخرى في مراكمة الأرباح من إنتاج الفراولة غير "أنامل الجنيات" المغربيات بالنظر إلى كفاءتهن وتجربتهن وانصياعهن وعدم انخراطهن في أي شكل من أشكال المطالبة بالحقوق، عكس البولونيات والرومانيات اللواتي يتمتعن بكامل الحقوق بعد انضمام بلدانهن إلى الاتحاد الأوروبي، والسنغاليات من إفريقيا جنوب الصحراء عديمات الخبرة في العمل الفلاحي.

يذكر أن ANAPEC، تتوفر على نظام معلوماتي متكامل وقاعدة بيانات لحوالي 30000 عاملة مهاجرة، لكنها توقفت منذ سنة 2011 عن تسجيل طلبات جديدة، بسبب الظرفية الاقتصادية المتأزمة في اسبانيا (انظر الشكل رقم 2)، وتفضيل المشغلين للمهاجرات المغربيات السابقات بحكم اشتغالهن وفق أجندات المزارعين الإسبان فيما يخص الساعات الإضافية والعمل خلال عطل نهاية الأسبوع واستجابتهن طوعا لشرط العودة إلى بلدهن. غير أن ما يعاب على هذه المؤسسة حسب الكاتبة، هو عجزها الدفاع عن حقوق العاملات على التراب الإسباني، لكنها الكاتبة- اكتفت بطرح تساؤلات دون تقديم أجوبة تهم خضوع ANAPEC للمؤسسات الإسبانية وتهربها من تحمل المسؤولية بينما تستطيع أن تفاوض الإسبان في مواضيع تشغل بال المهاجرات كتسوية الوضعية القانونية والحصول على التأشيرة وتوسيع مدة التشغيل وتمكينهن من الانتقال إلى مناطق أخرى للاشتغال في مهام زراعية غير الفراولة. كل ذلك في ضوء مأسسة نظام الهجرة بين المغرب واسبانيا بعد توقيع اتفاقية تشغيل القوى العاملة سنة 2001 والتي دخلت حيز التنفيذ سنة 2003.

يمر برنامج الهجرة الموسمية عبر أربع مراحل أساسية تعد مرحلة العودة الحاسمة منها، وهي إما عودة مرغوبة طوعية للعاملات بعد موسم جني الفراولة، وإما عودة مفروضة بسبب مشاكل طارئة يستغلها بعض المشغلين للتخلص من المهاجرات، لأن « عقدة العمل في البلد الأصل لا تشمل تاريخ انتهاء الصلاحية² وهو ما اعتبره الاتحاد الدولي لحقوق الإنسان FIDH (Fédération Internationale pour les Droits Humains) خرقا واضحا لحقوق العاملات يتحمل مسؤوليته الإسبان والحكومة المغربية. لقد التقت الكاتبة بالعديد من النساء اللواتي فرض عليهن الترحيل، بعضهن اعتبرتهن إهانة وطردهن من العمل دون احترام لأدنى شروط الحماية القانونية من جانب المشغلين، الشيء الذي يثير العديد من التساؤلات بشأن نجاعة نظام الهجرة الموسمية إلى جنوب اسبانيا.

4- نظام هجري معتل

في سنة 2017 اعتلت آليات تفعيل النظام الهجري المصاحب للهجرة الموسمية. فقد توقف عمل FUTEH ولم يعد المشغلون يعتمدون الوسطاء المغاربة وتراجع نظام التتبع ودعم المهاجرات، وعلمين الاعتماد على أنفسهن في تديير مسار الهجرة على التراب الإسباني ومواجهة شجع المشغلين وتعسفاتهم وتملصهم من المسؤولية في أسوأ الحالات مثل الطرد بعد حوادث الشغل

¹ ناقشتُ الدكتورة شادية عرب في ندوة علمية برحاب جامعة ابن زهر- أكادير، بخصوص موضوع حقوق النساء العاملات في مزارع الفراولة باسبانيا في غياب تنظيم نقابي يؤطرهن، لأنهن غير قادرات على الدفاع عن أنفسهن وحقوقهن أمام جشع المشغلين.

² Nadia Dref, travailleuses marocaines en Espagne, conditions discriminatoires dans les plantations de fraises, in:

<https://www.ccme.org.ma/fr/medias-et-migration/10720>, Consulté le 2-01-2020.

المتكررة دون تمثييعهم بحقوقهم خاصة بعد تفاقم الوضع الاقتصادي بعد سنة 2010. تتحمل الحكومة الاسبانية و ANAPEC المسؤولية فيما آلت إليه أوضاع العاملات في حقول الفراولة خاصة بعد توقف برنامج AENEAS 2009. تستطيع ANAPEC القيام بدور التفاوض والضغط على الحكومة الاسبانية لانتزاع مطالب العاملات المهاجرات في التأمين على حوادث الشغل وتسوية الوضعية وتحسين ظروف العمل والإقامة فوق التراب الاسباني، لكنها تملصت من المهمة فأصبحت النساء المهاجرات بذلك "منسيات ANAPEC".

تآكل نظام الهجرة بين ضفتي المتوسط هذا منذ 2012 تاريخ توقف عمل FUTEH وتخلي المشغلين عن خدمات الوسيط، فانهى التأطير الشبه نقابي والدعم المباشر المقدم للمهاجرات، وفتح الباب أمام الهجرة غير القانونية وظهور مختلف أشكال استغلال المهاجرات. ورغم محاولات تعديل النظام الهجري بتوصيات أشغال اللجنة الدائمة المختلطة المغربية الاسبانية إلا أن النظام ظل معتلا إلى حدود 2017.

5- عاملات قرويات فقيرات في وضعية الهشاشة الاجتماعية

اشتغلت الكاتبة علي عينة من النساء المهاجرات تتوفر فيهن الشروط المفروضة من المشغلين وأبرزها، أن يكن متحدرات من المناطق الريفية أميات غير متعلقات يعشن في أسر ممتدة ويكون الهدف من هجرتهم هو الحصول على المال لإعالة أسرهن ولا يفكرن في الهجرة السرية... وقد تبين للكاتبة أن هذه المواصفات تتوفر في المهاجرات لكون أغلبن قدم من الأقاليم القروية الفقيرة الأكثر هشاشة، وسبق لهن الاشتغال بأجر يومي يقل عن الحد الأدنى للأجور بالمغرب (SMIG) وهو 2500 درهم (250 EURO) سنة 2017. كما أن بعضهن اكتسب تجربة العمل في جني الفراولة في حقول المستثمرين الإسبان بالمغرب التي تتمركز في إقليم القنيطرة ومولاي بوسلهم.

بعض النساء يخضن تجربة الهجرة لأول مرة، ويشغلن في قطاع الزراعة عكس أقرانهن اللواتي هاجرن سنوات 1990 "المتحدرات من مناطق حضرية خاصة الدار البيضاء والرباط وطنجة المشتغلان في قطاع الخدمات"، حسب الباحثة الاسبانية المهتمة بشؤون الهجرة LAURA OSO¹. تفاوض كل النساء فعل الهجرة مع الآباء الأمهات الأزواج والإخوة، وأحيانا مع هذه الأطراف مجتمعة، وتتفق كلهن على الهدف الأساس: ربح المال لتحسين الوضع المعيشي للأسرة. و يعد هذا المكسب المادي حسب بعض الدراسات مكسبا اقتصاديا يغطي تكاليف الهجرة ويعوض جزئيا وربما جوهريا المعاناة النفسية للمهاجرات.

وبخصوص المشاكل التي تعترض المهاجرات، لم تصرح أي منهن بتعسفات المشغلين والوسيط ولا بمشاكل الاستغلال الجنسي وإهانة كرامة النساء²، لكنهن ركزن على إكراهات وضغوطات العمل ومشاكل الإقامة والتغطية الصحية. وتعتقد كثير من العاملات أن الهجرة أتاحت لهن فرصة تغيير أوضاعهن وتحسين ظروف عيش أسرهن في المغرب.

¹ LAURA OSO CASAS, les femmes et le droit des migrations, le cas de l'Espagne, in <https://www.cairn.info/revue-l-annee-sociologique-2003-1-page-123.htm>, consulté le 10-01-2020.

² يذكر أن الصحافة المغربية تناولت موضوع الاستغلال الجنسي للمهاجرات باسبانيا، غير أن التناول الصحفي لا يخضع دائما لمنطق البحث العلمي الموضوعي، وهو ما أكدته شادية عرب من خلال هذا العمل القيم.

6- من المغرب إلى اسبانيا: ما الذي تغير؟

أسهمت الهجرة دون شك في تحقيق درجة عالية من الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي للمرأة ومنحتها فرصة خلخلة الأدوار الاجتماعية وإعادة بنائها. وعلى غرار باقي الحقائق الاجتماعية، يبني فعل الهجرة تحت تأثير النوع الاجتماعي الذي يحدد من يهاجر؟ ولماذا؟ وكيف يتخذ قرار الهجرة؟

خضعت هجرة العاملات إلى اسبانيا حسب الكاتبة، لتمييز وقهر اجتماعي ثلاثي الأبعاد يختزل في، الجنسية (عاملات مغربيات ومشغولون إسبان) والجنس (نساء مغربيات ورجال إسبان) والطبقة الاجتماعية (كادحات زراعيات وأثرياء القطاع الفلاحي). هذا التراكم أملت شروط الهجرة وجشع المجتمعات الرأسمالية المهيمنة الذي يسأل استقلالية المرأة وحريتها، بغض النظر عن جنسها وجنسيتها وطبقتها الاجتماعية.

عززت الهجرة كذلك الدينامية الاقتصادية بقرى وبلدات النساء المهاجرات، فقد مكنت من دعم الأسر ماديا، لكنها أيضا عززت الثقة بالنفس والقدرات الشخصية للنساء واستقلاليتهن الاقتصادية وقدرتهن على التحكم أكثر في مسار حياتهن وتحمل المسؤولية بعيدا عن الهيمنة الذكورية و« التخلص من الضغوطات العائلية والرقابة الاجتماعية وحتى الأمل في خوض تجربة شخصية تجعل النساء في دور عناصر فاعلة » حسب برنامج EUROMED¹. لقد ولدت الاستقلالية المالية أشكالا أخرى من الاستقلالية الشخصية والتحرر وتغير العلاقات بين الرجال والنساء، وتبقى إحدى أكثر مآسي الهجرة النسائية هي، الاجتثاث والاعتراب عن الأسر واتساع الشرخ السيكولوجي والنفسي لاسيما وأن أغلبهن ترك في الضفة الجنوبية للمتوسط أبناء في ريعان الشباب بحاجة إلى دفء أسري لا تزيد من حرارته إلا الأمهات المهاجرات. لكن لهذه الهجرة المفروضة²، فوائد لعل أثمرها استقلالية النساء عبر مدخل العمل المأجور، كما تبرز ذلك أدبيات البنك الدولي وبرنامج الأمم للتنمية PNUD. وإذا كانت اسبانيا فضاء للحرية والاستقلالية الذاتية بالنسبة لبعض النساء المتزوجات، فإن الحصول على العمل وحده لا يفضي بالضرورة إلى إحداث تغييرات على مستوى علاقات الهيمنة والسلطة بين الرجال والنساء.

كانت الهجرة بالنسبة لكثير من نساء الفراولة أداة لإعادة النظر في العلاقة الزوجية (بعضهن طلب الطلاق مباشرة بعد الحصول على فرصة العمل) ومساءلة الأدوار التقليدية للمرأة القائمة على الأمومة والإنجاب، كما غيرت النساء عادات اللباس³ إذ تحرر بعضهن من "الجلباب" وأصبحن يرتدين "الجيترز" بفضل هامش الحرية المتاح لهن في بلد المقصد. إنها هوية جديدة قيد التشكل بالنسبة للمهاجرات بين ضفتي المتوسط.

تنعت نساء الفراولة بكثير من النعوت تختزل تمثلات الآخر بخصوص المهاجرات، منها: "الميمات" أي الأمهات المشتغلات خارج بلدن لتأمين لقمة العيش لأبنائهن واللواتي يعشن في ذهن الآخر "حضورا مزدوجا" على غرار الاعتراب المزدوج للسوسيولوجي عبد المالك صياد، فهن من جهة، "سيدات سينات" السمعة لأهن تخلين على واجبات الرعاية الأسرية وانخرطن

¹ الهجرة النسائية بين دول البحر المتوسط والاتحاد الأوروبي، وثيقة منشورة من قبل مشروع يوروميد2 (2008-2011) بدعم من الاتحاد الأوروبي، بدون تاريخ، ص 31.

² تستجيب معايير اختيار المهاجرات (جنس- طبقة اجتماعية - أرامل - مطلقات..). لمظاهر التمييز في حق النساء، لكنه تمييز ايجابي يفضي إلى تعزيز الاستقلالية المادية للنساء، لأن معظمهن قدم من مناطق المغرب العميق الفقيرة المحرومة من البنيات الأساسية.

³ تأثرت الكاتبة في فهم تغيرات لباس المهاجرات المغربيات بأبحاث CHRISTINE BARD التي كتبت في تاريخ اللباس و رمزية ارتداء التنورة في المجتمعات الأوروبية..

طواعية أو مرغمتا في أفعال مرفوضة اجتماعيا، ومن جهة "سيدات صالحات" يدعمن أسرهن ويسهرن على تحسين ظروف عيش أبنائهن.

أما أكثر النعوت إثارة للجدل فهي "العاهرات" لأنها وصمة عار على هؤلاء النسوة المتمردات على الأوضاع في مجتمعهن، لكنهن يرفضن هذه الاتهامات المجانية للصواب، كما ندد بها مسؤولو ANAPEC و FUTEH داعين إلى عدم تعميم هذا الاتهام على كل نساء الفراولة التي تؤكد دراسات أمهن أكثر احتراما لوقت العمل وانخراطا في الساعات الإضافية، بل الأكثر وعيا بأن حضورهن إلى اسبانيا كان وسيظل لأغراض الشغل بدافع جمع المال وانتظار العودة لملاقاة الأسرة في المغرب.

7- الهجرة الموسمية للحقول الاسبانية "خطوة" نحو الهجرة السرية

يشدد نظام الهجرة الموسمية على العودة إلى البلد الأصل، ولا يتيح فرصة البقاء والاندماج في بلد المقصد. ومقابل هذا التشدد طورت "نساء الفراولة" طرقا لتدبير الهجرة كمشروع شخصي لبقاء بدون وثائق على التراب الاسباني في إطار الهجرة السرية. إنها هجرة تخرق كل القوانين، لكنها تساءل نظام الهجرة الموسمية الذي يركز على البعد الاقتصادي ومنطق "رابح - رابح" في اتفاقية العمل مع المغرب ويتناسى البعد الاجتماعي والإنساني، حيث لا يجيب على سؤال مصير نساء الفراولة بعد نهاية الموسم الفلاحي أو مصيرهن بعد انتشار الأزمات الاقتصادية على غرار أزمة سنة 2010 والسنوات التي تلتها.

وفي تقييم لهجرة نساء الفراولة، انصب اهتمام الجمعية المغربية لحقوق الإنسان على ظروف اشتغالهن والتشتت الأسري الناتج عن استهداف الأراذل والمطلقات وقصور نظام الهجرة عن المواكبة لانجاز مشاريع مدرة للدخل ببلدهن الأصلي، كما شجبت الاعتداءات الجنسية على النساء. هذه الأخيرة نفتها بشدة كل تصريحات العاملات في اسبانيا، وإن حدثت فهي لا تغدو أن تكون حالات نادرة تضخمها الدعاية الإعلامية عبر الصحافة المغربية والاسبانية.

وإذا كانت الهجرة الموسمية في صالح الإسبان الذين يستفيدون من قوة عمل ناعمة وفيرة مؤهلة ذات "أيادي جنية" مريحة ومؤقتة تغادر البلاد فور نهاية عقد العمل وتعفي المشغلين من الأعباء الاجتماعية الناتجة عن البقاء في اسبانيا كدفع تكاليف تعويض العطالة والتقاعد والتغطية الصحية... فإنه بالمقابل حفزت النساء على "الحريك" لأنها نظام "هجرة منتقاة" يخدم مصالح طرف واحد. وفي هذا الصدد، ارتفعت وتيرة الهجرة السرية في صفوف النساء منذ 2010، لدرجة أن سوق العمل توفر قوى عاملة نسائية "بدون وثائق" على التراب الاسباني تضاعفت أعدادها بفضل وجود وسطاء لتسوية الوضعية القانونية مقابل مبالغ مادية. لقد ولدت الهجرة الموسمية هجرة سرية وأصبح "الحريك" وسيلة لتسوية الوضعية والبقاء في اسبانيا والتنقل بكامل الحرية بين المغرب وأوروبا بالنسبة للعديد من نساء الفراولة.

تواجه النساء اللواتي يخترن "الحريك" متاعب شتى، ويلجأ بعضهن إلى الحصول على "تصريح العمل" من وسطاء وأحيانا يتعرضن للنصب والاحتيال ويصبحن ضحايا وثائق مزورة، وقد تدفع الظروف ببعض الأخر إلى "معاشرة" رجال مغاربة أو إسبان ليتمكن من الاشتغال لإعالة أفراد الأسرة بما في ذلك الرجال بالمغرب. نجحت الهجرة النسائية في قلب الأدوار الأسرية التقليدية رأسا على عقب باسم ضمان عيش الأسرة عندما أصبح بعض الرجال يتحملون مسؤولية أعباء البيت ورعاية الأبناء وانتظار عائدات المالية المرسلة من الزوجات في بلد المهجر. لكن المرأة المهاجرة هي الخاسر الأكبر في هذه "المعاشرة" التي تريدها حماية لنفسها من مخاطر الهجرة السرية، وخاصة عندما ينتج عنها حمل وإنجاب لأطفال على التراب الاسباني، حينها تتعرض المرأة لظلم مزدوج: ظلم السلطات الاسبانية والمغربية التي لا تعترف بالأطفال بسبب تعقد مساطر تسجيل الولادات خارج مؤسسة الزواج، وظلم اجتماعي مرتبط برفض الأسر ونظرة المجتمع لأطفال الأمهات العازبات.

8- هجرة موسمية في متناول الإسبان.

لم يكن نظام الهجرة الموسمية سوى نتاج اتفاقية بين المغرب واسبانيا، لكنه بالنسبة للنساء هي هجرة من "أجل البقاء" وتأمين لقمة العيش ولو لفترة مؤقتة، لأن العديد منهن فقد الشغل في مزارع اسبانيا خلال وبعد الأزمة الاقتصادية لسنة 2010 حيث تراجع عدد العاملات المهاجرات من 17000 سنة 2009 إلى 2500 بعد تأزم الوضع الاقتصادي في بلد المهجر.

لكن من يتحمل مسؤولية توقف الشغل بالنسبة للعاملات اللواتي اعتدن على العمل المأجور بداية كل موسم فلاحي؟ هل هي ANAPEC أم الوسطاء أم النقابات والجمعيات أم المشغلون؟ أم هي مسؤولية العاملات اللواتي كنا ساذجات وتحملن الخوف والصمت والتوتر ووقع انتظار تحسن الأوضاع في حقول الفراولة؟ أم ترى هي مسؤولية الاتحاد الأوروبي وسياسته الأمنية تجاه المهاجرات؟

إنها مسؤولية مشتركة معقدة ومتشابكة، لكن الأكيد هو أن عيوب نظام الهجرة الموسمية أصبحت جلية للعيان. لقد خدم هذا النظام مصلحة اسبانيا والاتحاد الأوروبي دون أن يحقق هدف التنمية البشرية الموعودة في المناطق الأصلية للمهاجرات عبر مواكبتهم لخلق فرص عمل مدرة للدخل. لقد كانت النسوة ضحية نظام هجري يخضع لأزمات الاقتصاد المعولم والتقلبات السياسية والاقتصادية للاتحاد الأوروبي الذي يستقطب نساء الفراولة ويحقق على حساب بؤسهن الاجتماعي أرباحا عبر تصدير "الذهب الأحمر" الإسباني إلى الأسواق الأوروبية، دون أن يكثرث لحقوق ومحن العاملات من قبيل «العيش بعيدا عن أطفالهن الصغار وظروف العمل القاسية بأجر يقل عن أجور الاسبانيات ...¹». وبالنسبة لنساء الفراولة يظل العمل في مزارع اسبانيا هجرة من "أجل البقاء" بالرغم من شروطها الصارمة التي لن ترضى بها النساء الاسبانيات. فهل ستقبل الاسبانيات شروط المشغلين لجني الفراولة؟ هل سيقبلن الابتعاد عن أبنائهن لفترات تتراوح بين 3 و6 أشهر؟ أكيد لا. لقد فكر الإسبان للذهاب غير بعيد إلى المغرب لاستقدام نسوة اخترن ضمن أكثر الفئات المعطوبة اجتماعيا لضمان مردودية الشغل وشرط عدم الاحتفاظ ب"غير المرغوب فيهن" أوروبا على التراب الإسباني.

أنهت الكاتبة هذا البحث القيم بعقد مقارنة بين الهجرة الانتقائية للرجال لسنوات 1960 و1970 للعمل في مناجم الفحم "الذهب الأسود" بفرنسا، وهجرة نساء الفراولة إلى مزارع "الذهب الأحمر" جنوب اسبانيا، وتوصلت إلى أن النظامين الهجريين يختلفان في الزمان ويتشابهان في الانعكاسات على الوضع الاجتماعي، فالأول حرم نساء المغرب العميق من أزواجهن، والثاني حرم أطفاله من أمهاتهم، دون أن يحققا التنمية الموعودة عبر العائدات المالية المرسلة من بلد المهجر إلى الوطن الأم.

قائمة المراجع:

1. الهجرة النسائية بين دول البحر المتوسط والاتحاد الأوروبي، وثيقة منشورة من قبل مشروع يوروميد 2 (2008-2011) بدعم من الاتحاد الأوروبي، بدون تاريخ .
2. بول كولبير، الهجرة كيف تؤثر في عالمنا؟، ترجمة مصطفى ناصر، عالم المعرفة العدد 439، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 2016).
3. Abdelmalek Sayad, *La double absence des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré*, éditions du Seuil, 1999.

¹ الهجرة النسائية بين دول البحر المتوسط والاتحاد الأوروبي، مرجع سابق، ص 187.

4. -LAURA OSO CASAS, **les femmes et le droit des migrations, le cas de l'Espagne**; in <https://www.cairn.info/revue-l-annee-sociologique-2003-1-page-123.htm>.

5. -Nadia Dref, **travailleuses marocaines en Espagne, Conditions discriminatoires dans les plantations de fraises**, in <https://www.ccme.org.ma/fr/medias-et-migration/10720>.

صورة مجتمع أولاد نائل في القرن التاسع عشر ميلادي من خلال رحلة "صيف في الصحراء" للرحالة أوجين فرومنتان

A picture of the Family of The Children of Nael in the 19th century AD through a journey "Summer in the Desert" by the traveler Eugene Fromontan

د. رفاف شهرزاد ♦ د. سياب خيرة / جامعة طاهري محمد، بشار، الجزائر

Dr. Reffaf chahrazad - Dr. Siab Khaira / Taheri Mohammed University – Bachar

Abstract:

The subject of The French journeys to the Algerian desert from the 19th century is one of the topics rich in historical information, and a detailed field for Algerian researchers because it has not yet been attended by an Algerian level study, most of what was written on the subject was with European pens that served most of the time French colonialism and facilitated it to penetrate into the Algerian desert in particular and African in general during the nineteenth century.

This century saw colonial competition for Africa, and after 1830 Algeria became the leader of pioneers, travellers and explorers, and among the literary and artist Eugene Frumentan Fromentin Eugène (1820-1876), who left timeless paintings with the theme of the Algerian desert, along with writings in the art of the journey, foremost of which is his summer trip in the desert, which will be the subject of the study, especially those related to the children of Nile.

The main problem of research is the analysis of the historical scientific benefits of this journey.

And the impact of this historical legacy on the historical scene and scientific studies on the Algerian Sahara?

-Unveiling the heritage of the region's material, a rich heritage that still exists today.

Keywords: Eugene Frumentan, Summer in the Desert, The Algerian Sahara, Ouled Nael, French Orientalism.

ملخص:

يعتبر موضوع الرحلات الفرنسية للصحراء الجزائرية من القرن 19م من المواضيع الثرية بالمعلومات التاريخية، وحقلا مفضلا للباحثين الجزائريين كونه لم يحض بعد بدراسة مستوفية جزائرية فأغلب ما كتب حول الموضوع كان بأقلام أوروبية خدمت في معظم الوقت الاستعمار الفرنسي وسهلت عليه التوغل في الصحراء الجزائرية خاصة والإفريقية عامة خلال القرن التاسع عشر.

هذا القرن الذي شهد تنافسا استعماريًا على إفريقيا، وأصبحت الجزائر بعد 1830 قبلة الرواد والرحالة والمستكشفين، ومن بين الوافدين الأديب والفنان أوجين فرومنتان (1820-1876)، الذي ترك لوحات فنية خالدة كان موضوعها الصحراء الجزائرية إلى جانب كتابات في فن الرحلة في مقدمتها رحلته صيف في الصحراء التي ستكون موضوع الدراسة خاصة ما تعلق منها بأولاد نايل.

وتتمحور الإشكالية الرئيسية للبحث في تحليل الفوائد العلمية التاريخية لهذه الرحلة، واثر هذا الموروث التاريخي على الساحة التاريخية والدراسات العلمية حول الصحراء الجزائرية؟

-كشف النقاب على التراث للامادي للمنطقة وهو تراث غني مازال موجود إلى يومنا الحالي.

الكلمات المفتاحية: أوجين فرومنتان، صيف في الصحراء، الصحراء الجزائرية، أولاد نايل، الاستشراق الفرنسي.

مقدمة:

تزخر كتب الرحلة الفرنسية في القرنين التاسع عشر والعشرين بأدبيات تصوير الصحراء الجزائرية بالرغم مما تحويه من أفكار ساهمت في تسهيل الحركة الاستعمارية¹، ولم تقتصر الكتابات حول الصحراء على المؤرخين المسلمين الذين زاروها، بل تعدت هذه الكتابات إلى الغربيين وعلى رأسهم الفرنسيين الذين كتبوا عن جماليات الصحراء الكبرى، وقد أسهم هؤلاء بكتاباتهم مساهمة لا يمكن تجاهلها أو الانتقاص من قيمتها العلمية، خاصة فيما يتعلق بالتعريف بخبايا الصحراء الكبرى التي تترىع الجزائر على مساحات شاسعة منها.

¹ من أشهر الرحلات المؤلفة حول الجزائر وصحرائها الممتدة والشاسعة، نجد كتاب "ذكريات عن الجزائر" للحقوقي ج. بول المنشور عام 1839، ومؤلف جورج روبرت "رحلة عبر الجزائر" الصادر عام 1891، وكتاب ليون فان أيرشودت في المغرب "انطباعات عن الجزائر" الصادر عام 1910، ينظر: أنساعد سميرة، الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الفرنسيين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين تسجيل فونوغرافي أم تصوير تخيلي، مجلة دراسات، العدد الثاني، ديسمبر 2012، ص-ص 19-36.

وصارت الجزائر، منذ استعمارها سنة 1830 م، الوجهة المفضلة للأدباء والفنانين المستشرقين، وقد عبر ثيوفيل غوتيه Gautier Théophile أحد أعمدة الاستشراق الفرنسي- عن مكانة الجزائر بالنسبة للرسامين المستشرقين بقوله: "إن السفر إلى الجزائر يضاهي، في أهميته، ضرورة الحج إلى إيطاليا"

ويرجع اهتمام المستشرقين الفرنسيين عموماً بالشرق والجزائر إلى ما قبل سنة 1830 بعقود، ولكن الحملة الفرنسية هي التي فتحت لهم أبواب الشرق على مصرعيه²، وأنشأت "فيلا عبد اللطيف"³ التي أصبحت أول القرن العشرين مدرسة يتكون فيها الفنانون الفرنسيون الموهوبون، وخصصت لهم المنح والجوائز⁴.

ومن روادها الأوائل نجد الفنان "ماكسيم نواره M.Noiré" الملقب بالفنان الجزائري في لوحاته "ولادة في الصحراء" و"أغنية الناي" و"ياسمين الساحل"، والفنان "ليون كوفيا Cavy"، الذي أصبح التصوير الجزائري على يديه أكثر نسقا وأكثر منهجية، والفنان "ليون كاري carré"، الذي اكتشف الأناقة والدقة في الطبيعة الجزائرية⁵.

وغالبا ما مثلت أعمال بعض الفنانين الفرنسيين إيديولوجية المستعمر الغالب مثل لوحة "العرب يحملون موتاهم" للفنان "شاصيريو"⁶ سنة 1856 م، ومن أبرز الأعمال نجد المرأة والجمال والطبيعة والبادية وأكثر اللوحات براعة كانت حول الصحراء الجزائرية.

ولعل من الفرنسيين الذين كتبوا عن صحراء الجزائر وجغرافيتها وسكانها- على سبيل الذكر لا الحصر- "جوزيف أوجين دوماس (1803-1871 م)"⁷، وضع هذا الأخير نظاما جماعيا لجمع معلومات دقيقة عن الأهالي الجزائريين مما سمح له بتطوير كتاباته التي جاءت بطريقة تحليلية، فقد عرف المجتمع الجزائري عن قرب بمختلف فئاته واحتك بحياته الاجتماعية والدينية، ومن أهم مؤلفاته حول الصحراء كتاب "الصحراء الكبرى 1848 م، الذي يعتبر من المصادر المهمة في التعريف بالصحراء

¹ -Théophile Gautier, Voyage pittoresque en Algérie (1845), édité par Madeleine Cottin, Genève-Paris, Librairie Droz, introduction de l'éditeur, p.92. books.google.dz/books?isbn=260003529x((consulté le:10/09/2019).

ينظر: جمال مفرج، جميلات الجزائر في اللوحة البصرية الاستشراقية، مجلة جماليات، العدد1، شتاء 2014، تصدر عن مختبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، ص08، ص-ص8-22.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج، 1830-1954 م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ط1، ص374.

³-تقع هذه الفيلا خلف المتحف الوطني للفنون الجميلة، ولقد كانت قصرا عربيا في القرن الثامن عشر، ثم مقرا لوزير الداوي، إلى أن أصبحت منذ عام 1908 مؤسسة فنية تستقبل كل عام ولمدة سنتين اثنين من المصورين والنحاتين أو المعماريين يسمون بعد مسابقة تجري في باريس، ولقد لعبت هذه الفيلا أو المركز دوراً هاماً في تقوية الارتباط بين الجمالية الإسلامية والفنانين الفرنسيين الشباب، ينظر:عفيف الهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، دار الكتاب العربي، القاهرة، و دار الوليد، دمشق، ط1998، ص1، ص129-130.

⁴ -ابو القاسم سعد الله، مرجع سابق، نفسه

⁵ - عفيف الهنسي، نفسه.

⁶-الرسام الفرنسي المستشرق تيودور شاصيريو، من أشهر رسامي المدرسة الرومانسية زار عدة مرات الجزائر التي استوحى منها معظم لوحاته عن الشرق.

⁷ - الجنرال أوجين دوماس (1803-1871)، وهو جندي فرنسي اشترك في غزو بلده للجزائر.

الجزائرية ، وأحوال قاطنهما وجغرافيتها ومسالكها بشيء من التفصيل، والعادات والأفكار والديانات وحياة الأهالي بمختلف وجوهها¹.

وكتاب "خيول الصحراء 1858م" وهو دراسة عن الخيول في شمال إفريقيا مصحوبة بتعليقات إثنوغرافية استندت إلى إقامة المؤلف في الجزائر. ويتناول النصف الأول من المجلد خيل الصحراء وكيفية اختلافها عن الخيول العربية وتفصيل عنها وعن استخداماتها وطرق رعايتها وتربيتها.

ويناقش المؤلف بشكل مطوّل فضائل خيل الصحراء من الناحية العسكرية، ويرجع ذلك إلى أنه كان أولاً وقبل كل شيء ضابطاً في سلاح الفرسان، أما النصف الثاني من المجلد فهو مخصص لسلوكيات وعادات سكان شمال إفريقيا، أي البربر أو "شعب الخيمة" كما يطلق عليهم دوماس.

وبناءً على ما سبق تهدف المداخلة إلى تتبع رحلة استكشافية للصحراء الجزائرية عامة و ربوع أولاد نايل خاصة التي قام بها الفنان والطبيب الفرنسي أوجين فرومنتان Eugène Fromentin ، وتعتبر هذه الرحلة الثالثة له للجزائر ، قضى فرومنتان حوالي عشرين شهرا يتنقل بين مدن الجنوب ويرسم الكثير من المشاهد عبر لوحاته الخالدة، ولأن الرسم لا يعبر دائما عن كل ما يريده المرء أو كما قال فرومنتان نفسه "إن صعوبة التعبير بالريشة جعلتني أجرب التعبير بالقلم"، فقد اتجه للكتابة وتسجيل مشاهداته أثناء جولاته عبر أنحاء الجزائر.

وترك فرومنتان كتابات رائعة حول الجزائر صور البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلالها مشاهد حية عن الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مثال ذلك: عام في الساحل (1859)، الجزائر، مقتطفات من دفتر رحلة الجزائر، صيف في الصحراء ، هذه الأخيرة كتبها سنة 1857م وهي موضوع هذه المحاضرة.

عملنا سوف يركز على ترجمة الجزء المتعلق بمنطقة أولاد نايل من هذه الرحلة أولاً، ثم نركز العمل على المعلومات التاريخية والطبوغرافية والأنثروبولوجية التي حملتها هذه الرحلة حول منطقة أولاد نايل.

سنحاول الاطلاع عن أهم النصوص التاريخية التي حملتها الرحلة فقد اهتم فرومنتان بالمسالك والطرق الصحراوية والعادات والتقاليد واللهجات ومنايع الثروة في الصحراء الجزائرية.

العرض:

قبل عرض الموضوعات والأفكار التي حوتها رحلة صيف في الصحراء لعله من الأنسب التعريف بصاحب الرحلة أوجين فرومنتان:

¹ - هرياش زاجية، الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين "دوماس أنموذجا"، مجلة عصور الجديدة، العدد 06، عدد خاص بخمسينية الاستقلال، ربيع 1433هـ/2012م، ص30.

ولد فرومنتان بمدينة "لا روشيل" La Rochelle بفرنسا في 24 أكتوبر 1820 م، من أب يمارس مهنة الطب، نشأ في عائلة برجوازية تعني بالثقافة مما أتاح له صقل موهبته الفنية ومعرفة أعمال كبار الفنانين والأدباء الفرنسيين، هويته الرسم، وكانت أسرته تقضي أيام فصل الصيف من كل سنة في منزل جبلي، يوجد بمدخل قرية "سان موريس بلده الأصلي".¹

تحصل سنة 1839 على شهادة البكالوريا ليدخل الجامعة، درس القانون دون رغبة منه²، ليتخرج منها بشهادة الليسانس سنة 1843. يقرر فرومنتان سنة 1844 تكريس وقته لدراسة الفنون التشكيلية والرسم، متأثراً بالفنانين المستشرقين، رغم معارضة أسرته لذلك.

كان فرومنتان رجلاً أنيقاً ويحمل أفكاراً راقية، محبوباً بين الناس، يتمتع بسمعة جيدة³، توفي يوم 27 أوت 1876، تاركاً لوحات ورسومات وأثار إبداعية ثرية في قمة الروعة.

*رحلاته إلى الجزائر:



قام أوجين فرومنتان بثلاث رحلات إلى الجزائر، الرحلة الأولى كانت في ربيع 1846، وهو في الخامسة والعشرين، حيث انطلق من باريس في الثالث من شهر مارس، برفقة صديقيه، الرسامين آرنو دي مارسيل Mesnil du Armand، وشارل لابي Charles Labbé، حيث وصل الجزائر في 12 مارس ويستقر بمدينة البليدة في الثالث عشر، ومكث بالجزائر إلى غاية العاشر من أبريل، حيث أقام مدة تسعة عشر يوماً، ليعود إلى فرنسا⁴.

أما الرحلة الثانية، فقد كانت أطول من الأولى، حيث غادر باريس في الرابع والعشرين سبتمبر من سنة 1847، ولم يبحر إلى مرسيليا حتى الثالث والعشرين من شهر ماي، وهكذا كانت له الفرصة لزيارة الكثير من المدن الجزائرية، البليدة، قسنطينة، بسكرة، إضافة إلى الخرجات والنزهات التي قادته إلى معرفة الصحراء، والاقتراب من البدو، ونمط حياتهم. وخلال رحلته هذه، تمت تنحية لويس فيليب بفرنسا وإقامة الجمهورية الثانية، بقيادة نابليون الثالث⁵.

أما الرحلة الثالثة، والتي قام بها فرومنتان في تلك الظروف السياسية الجديدة التي كانت تمر بها فرنسا، وهكذا استقل فرومنتان الباخرة من مرسيليا، في الخامس نوفمبر 1852، عند وصوله إلى الجزائر، استقر بمدينة البليدة، ومنها انتقل في رحلة

¹ - عيسى عطاشي، أوجان فرومنتان، ومنهجه في كتابة رحلاته، مجلة الباحث، جامعة الأغواط، ص95، صص-95-104.

² - أبو القاسم سعد الله، نفسه.

³ - M. Gonse Louis, Eugène Fromentin peintre et écrivain, Paris, 1881, p23.

⁴ - أحسن دواس، صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين-مقاربة سوسيو ثقافية- مذكرة ماجستير، إشراف الأخضر عيكوس، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب واللغات، 2007-2008، ص201، ينظر: موقع على الشبكة <https://www.registre-des-arts.com>، 19.00، 2020/09/01.

⁵ - المرجع نفسه.

باتجاه الجنوب وبالضبط، إلى مدينة الأغواط، تاركا زوجته بالبيدة، ولم يعد إلى فرنسا، إلا بعد سنة تقريبا، في الخامس من أكتوبر 1853¹.

كان فرومونتان مهووسا إلى درجة الإفراط في ذكر طبيعة الجزائر وامتزاجه معها، تكريسا لثنائية الأنا والطبيعة خدمة للفن الذي ينشده ورغبة منه إلى ترشيد مجتمعه إلى القيم الجمالية الموجودة هنا والتي تفتقر إليها بلاده².

2- أوجين فرومونتان أديبا وفنانا:

*فرومونتان أديبا:

برز نجمه في الأعمال الأدبية النقدية أولا ومن ثم إبداعه كفنان، وعرف في فرنسا كناقد وأديب من خلال كتابيه الشهيرين "صيف في الصحراء" و"سنة في الساحل"، وقد لجأ إلى الكلمة والصورة معا ليعكس عالم الشرق وقوانينه الأخلاقية والجمالية³.

نشر أوجين فرومونتان كتابيه على التوالي في عامي 1857-1859م عقب ثلاث رحلات طويلة قام بها إلى الجزائر، وفور صدورها احتل المؤلف مكانة مرموقة كأحد أساتذة النثر الفرنسي، وقد كتب عنهما الناقد الفرنسي "لويس جونس" في كتابه: (أوجين فرومونتان مصورا وأديبا) قائلا: "إن كتاب الصحراء هو الصيف الإفريقي بعينه، بكل ما فيه من أضواء وألوان صاخبة عنيفة، وهدوء قاتل وخشونة وشاعرية غريبة، أما كتاب الساحل، فهو الجزائر بذاتها.. الجزائر الضاحكة المخضرة بسمائها المتغيرة، وسحبها وألوانها المختلفة، وانعكاسات الأضواء والجبال الشاهقة، و أفاق بلا نهاية"⁴.

وله رواية "دومينيك"، نشرت في كتاب عام 1963م، ورغم أنها الرواية الوحيدة التي كتبها إلا أنها تحتل مكانة خاصة في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، وتعتبر من معالم الرواية الرومانسية⁵.

على الرغم من كتابات فرومونتان العديدة، إلا أن كتابه (أساتذة الزمن الماضي)، يُعد أشهر هذه الكتابات وأهمها في مجال النقد الفني، لأنه آخر كتاب صدر له، وكان صدوره في عام وفاته سنة 1876م. وهذا الكتاب دراسة في علم الاجتماع الفني - إن صح التعبير - لأنه تحليل لشخصيات فنية بناءً على تحليل لوحاتهم الشهيرة، لا سيما لوحات روبنس ورامبرانت. حيث قام فرومونتان برصد الأعمال الفنية التي رآها، ومن ثم تابع مسيرة حياة أصحابها، من خلال نظرته الفنية⁶.

لقد أودع فرومونتان كل مشاعر التلقائية وملاحظاته اللامحة الثاقبة بأسلوب يتميز بذلك الصفاء الذي حاول التعبير عنه في لوحاته الزيتية.

1- نفسه.

2- علي بريغيث، صورة الجزائر عند الرسام والكاتب الفرنسي أوجين فرومونتان "في كتابه سنة في السهل"، مجلة التراث، 2014، ع 14، ص 110.

3- زينبات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 303.

4- زينب عبد العزيز، أوجين فرومونتان بين الكلمة واللون، مجلة الدوحة، العدد 09، بتاريخ: 1 سبتمبر 1976، قطر، ص 91.

5- نفس المرجع، ص 93.

6- نفسه.

-أوجين فرومنتان فنانياً:

لعب فرومنتان دوراً مميزاً في الفن والنقد الفني وفي حركة الاستشراق الفني تحديداً، ينتهي فرومنتان إلى كوكبة الفنانين الذين ظهروا في المرحلة الانتقالية ما بين الرومانسية والواقعية.

ويظهر أن فرومنتان انبهر بالموتيف الجزائري من خلال زيارته الجزائر في المرة الأولى التي جاءت تلبية لدعوة الفنان " شارل لابي" سنة 1846 م، فقد منحته زخماً إبداعياً هائلاً عبر عنه في رسالة لوالده يقول "...لا أدري وقد أكون مخطئاً، غير أن رحلتي هذه، وتوجه أفكاره الجديد، وذلك الدرس الرائع الذي تعلمته في بلاد الضوء الساطع والألوان الصاخبة والأشكال الهائلة، يعتبر تقدماً في عملي سيغدو ملحوظاً يوماً عن يوم كل هذه المعطيات تمنحني زخماً جديداً، وتكسبني حماساً وقوة جديدين..."¹.

وابتداء من سنة 1847 م بدأ فرومنتان يرسل إلى صالون الفن الذي كان في متحف اللوفر برسوماته، وكان مولعاً برسم صور الفلاح الجزائري على حماره وطبيعته، أو صورة القافلة العربية وهي تمزق الأفق بلونها الأسود، مع تصويره للملابس القديمة وعلامات الفقر والضعف والهزيمة².

وأرسل فرومنتان إلى الصالون ثلاث لوحات، ثم توالى لوحاته، وأخذ النقاد يستحسنون أعماله، وحصل له أكبر نجاح سنة 1859 حين حصل على ميدالية واستدعاء لمقابلة نابليون الثالث³.

وعناصر فنه هي: الخيل، والأشجار، والإنسان العربي والسماء (الأفق)، غير أن الروح الاستعمارية كانت واضحة عنده، فالجزائر كانت عنده مجرد موضوع جميل، ريفها وصحراؤها وسمائها، ولذلك فهي موضوع للامتلاك والاستغلال، إذن هي عنده فريسة يجب قنصها وقطعة من الشرق يجب فرنستها⁴.

قام أوجين فرومنتان، برفقة عدد من أصدقائه برحلة إلى الصحراء الجزائرية، فأبدع في وصفها، وقد استوحى معظم أعماله من هذه الأرض التي زارها وتأثر بها، فأصبحت كالألم التي لا تتوقف عن الإنجاب، ولذلك كرر زيارته إلى الجزائر، مرافقاً بعثات التنقيب.

ورسم فرومنتان الكثير من المشاهد الجزائرية من خلال لوحاته مثل: لوحة العرب، لوحة فرسان العرب، بلد العطش، المشهد الصحراوي أو لصوص الليل موضحة في الجدول الآتي :

¹-زينات بيطار، مرجع سابق، ص 305.

²- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، مرجع سابق، ص 381.

³- أبو القاسم، نفسه.

⁴- نفسه.

الوثيقة رقم 02: لوحة فرسان العرب

الوثيقة رقم 1: لوحة العرب¹

لوثيقة رقم 04: المشهد الصحراوي أو لصوص الليل



الوثيقة رقم 03: "بلد العطش"



يظهر أن الفنان مولع بالحياة العربية والبيئة الصحراوية، فقد صور فرومنتان الصحراء في لوحته الشهيرة "مشهد صحراوي" أو "لصوص الليل" أو "حرامية الليل" التي تعكس صورة الليل الصحراوي المرصع بالنجوم، كنشيد مسائي حالم، لا يعرف العتمة²، وبالتالي جسدت هذه اللوحة روعة الليل في الصحراء، وصورت مظهراً من مظاهر الحياة البدوية.

وعبر فرومنتان عن مدى إعجابه بمظاهر العبادة من خلال لوحة "عرب يؤديون الصلاة" عام 1867م - المحفوظة في متحف الفنون والتاريخ بجنيف - فتعد أصدق لوحات فرومنتان المعبرة عن الإسلام في الجزائر، بما فيها من خشوع وورع واضحين على المصلين متنوعي العبادة والحركات، حيث نجد أحدهم في حالة ركوع، والآخر في سجود، والثالث يُكبر، والرابع يُسلم. وهذه العبادات تؤدي في الصحراء التي جلبت عقل الفنان بطبيعتها³.

¹ - رسمت عام 1871م، زيت على الخشب، من مقتنيات متحف الفنون الجميلة، هونغاريًا مقاسها: 26 x 35 سم.

² - زينات بيطار، المرجع السابق، ص 315.

³ - سيد علي اسماعيل، الصحراء والصيد في لوحات فرومنتان بين النقد والفن، مجلة تراث الإماراتية، العدد 123، نوفمبر 2009، ص 03.

وطبيعة الصحراء لم تكن مسالمة دائماً في نظر الفنان، فلها أيضاً قسوتها وغدورها! وأبلغ قسوة مستشفى من الصحراء تظهر في قلة الماء ونذرتة وشحه، وهو ما عبر عنه فرومونتان في لوحته (بلاد العطش) عام 1869م - المحفوظة في المتاحف الملكية للفنون الجميلة بلجيكا -

حيث نرى أثر العطش المميت في خمسة رجال وحصان، ماتوا أو أشرفوا على الموت عطشاً، وهذا الشعور تعكسه حركات وسكنات الشخص، فكل فرد منهم مرتباً منكباً يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويستطيع المشاهد أن يسمع - أو يرى - أرواحهم تصعد إلى بارئها، وكأن الفنان رسم هذه اللوحة تعبيراً عن لحظة يأس كاد فيها أن يموت، أو أنه رأى الموت أمامه لا محالة¹.

وعبر عن رأيه في الشعب العربي: "إن العرب هم الشعب الوحيد الذي استطاع الاحتفاظ بكبريائه؛ لأنه عرف كيف يبقى بسيطاً في حياته وتقاليده وأسفاره وسط الشعوب الأخرى المتعدنة"، وتميز إبداع فرومونتان بالتعلق المرضي بقيم البراءة والصفاء والطهرانية، فجاءت كل أعماله محاولة في الكشف عن هذه القيم في الأشياء وفي الناس وراء السكون والصمت الظاهريين².

3-التعريف بكتاب "صيف في الصحراء" وخط سير الرحلة:

*سير الرحلة:

في زيارته الثالثة إلى الجزائر، وصل فرومونتان وزوجته في 07 نوفمبر 1852م إلى الجزائر، وفي شهر ماي 1853م ترك زوجته في مدينة (البلدية)، ورحل إلى واحة (الأغواط) في الجنوب التي وصلها في 03 جوان، وسافر خلال هذه الرحلة رفقة رئيس المكتب العربي بالوحدات الملازم "كاري Carus" وفرقة حراسة وقافلة من بني ميزاب كما كان برفقة الرسام "كازين asinsc" وفرنسي آخر يدعى "ألكسندر بيليمار" AlexandreBellemare .

ولما كان يقيم بالأغواط اختمرت في ذهنه فكرة تأليف الكتاب الذي يروي فيه ما شاهده وما سمعه في أثناء رحلته من المدينة إلى الأغواط وما عاينه من آثار لوقائع وأحداث مأساوية عاشها سكان مدينة الأغواط يوم 04 ديسمبر عام 1852 تاريخ استيلاء الاستعمار الفرنسي على هذه المدينة³.

بعد أن مرّ بمدينة المدية، وقصر البخاري وعين وسارة والجلفة، وسيدي مخلوف وصولاً إلى الأغواط، وهي من أهم الواحات الواقعة على مشارف الصحراء الكبرى - فعاش فيها فترة ليست بالقصيرة، وطبع في ذاكرته مشاهدتها، ومن ثم عاد منها بدراسات فنية وتخطيطات عديدة، كانت معيناً له لا ينضب، فنهل منه في لوحاته الخالدة فيما بعد.

وبسبب ولعه بالطبيعة الصحراوية، لم يكتف فرومونتان برسم اللوحات المعبرة عن هذا الولوج، بل عبر عنه بالكتابة أيضاً، عندما نشر كتابين حول هذا الأمر، الأول بعنوان (صيف في الصحراء)، والآخر بعنوان (عام في منطقة الساحل)، فنال عليهما

¹ - نفسه.

² - أوجين فرومونتان ولج الشهرة عبر صحراء الجزائر، مجلة البيان، المقال بتاريخ 11 جوان 2013، www.albayan.ae.

³ - عيسى عطاشي، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء لفرومونتان نموذجاً"، رسالة ماجستير، تخصص دراسات نقدية مقارنة، إشراف أحمد منور، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص33.

وسام الشرف، مجسدا فيهما عبارته " الصمت هو أبرز جوانب السحر الذي يتحلّى به هذا البلد المعزول، الوحيد إنه يمنح الروح توازناً لا تعرفه أنت الذي طالما عشت مضطرباً".

*كتاب صيف في الصحراء: نشر فرومنتان كتابه "صيف في الصحراء" عام 1857، عرفنا من خلاله بعادات السكان في الصحراء، وممارساتهم اليومية أو الموسمية، وطبيعة الأرض الصحراوية وخصائصها المتعلقة بالجيولوجيا والغطاء النباتي والمناخ.

أشار فرومنتان في كتابه " سنة في السهل " أنه زار مدينة الأغواط وخصها بمؤلف تحت عنوان "صيف في الصحراء" بقوله: هذه الرحلة سجلت تقريبا يوما بعد يوم ومرحلة بعد مرحلة في صحيفة ظلّت مستقلة عن هذه (سنة في السهل)، جريدتي الصحراوية متوقفة في الأغواط ، على صرخة رجل عطشان مدة ثلاثة أشهر ونحو ذلك من العطش المستمر ، لقد عدت مهزوما، أستطيع قول ذلك من خلال هذا الظمأ القاتل"¹.

من مدينة الأغواط، شرع فرومنتان في تدوين كتابه " صيف في الصحراء 1857 (بنظرة رسام لا كاتب على حد قوله): " أنا أشعر بكل نقص فيما ألفت ولكنني لا أستطيع فعل شيء الآن ... تبدو كتاباتي مفصولة بعضها عن بعض، كأنها لوحات تحتاج إلى أن أربط بينها، لم أشأ أن أخدع نفسي، أجدني أتصرف كرسام على الرغم مني، بيد أنني لا أشك في وجود جو عامر يلمّ شعثها ولا سيما جو من الحرارة والقوة"².

عن ظروف تأليف الكتاب "صيف في الصحراء"، يقول فرومنتان: "لقد توفر لدي الموضوع لحسن الحظ ولم يبق إلا اختيار الشكل ولم تكن أدواتي كافية، وبدا عجزني عن التعبير بالريشة لأنصرف عنها إلى التعبير بالقلم ويضيف...لأكتشف أن قدرات الرسام لدي أقل من قدرات الكاتب، فوعدت نفسي أن لا أخطئ اختيار الأداة وأن أغير مهنتي..."³. ونشرت لأول مرة في مجلة.

وقد جاء الكتاب أول الأمر في شكل ملخصات لرحلة سفره، وبالتالي رفض سنة 1853م عندما قدم للطبع لأن الكتابات الروائية لم تكن منتشرة كثيرا، ولم يلق القبول إلا في الفترة من 1 جوان إلى 1 ديسمبر 1854م، عندما نشر في مجلة باريس (Revue de Paris) في شكل حلقات متفرقة، وكان Fromentin غير معروف تماما ككاتب وبالكاد يعرف باسم الرسام⁴، ثم نشر في شكل كتاب لأول مرة في نوفمبر 1856 من إصدار مؤسسة ميشال ليفي⁵.

1 - EUGENE FROMENTIN ,Une année dans le Sahel. P 235.

2 -Ibid, P 33.

3 -عيسى عطاشي، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي، مرجع سابق، ص20.

4 - M. Gonse Louis, Ibid, P131.

5 -Eugène Fromentin, Sahara et Sahel, Avant-propos par Henri Gourdin

*منهج فرومنتان في كتابة رحلته: من خلال كلام فرومنتان نجده يعتمد في منهجه للكتابة على دعامتين هما الصورة والذكرى "سترى أن ذكرياتي لها قيمة أكبر مما تتصور..."¹، ويندرج عمل فرومنتان ضمن الدراسات العلمية، فقد سجل في رحلته يومياته بكل دقة بما فيها الملاحظات العلمية والدراسات الميدانية حول الطبوغرافيا و المناخ والتربة والمياه والنبات....الخ.

2-قراءة في الجزء المتعلق بأولاد نايل:²

ظلت القبيلة رمزا للنسيج الاجتماعي في المجتمع الجزائري عبر فتراته التاريخية، كما مثلت سدا أمام التوسع الاستعماري، ومن بين هذه القبائل الرافضة للخنوع والسيطرة نجد قبائل أولاد نايل باختلاف بطونها وأعراسها، ويعتبر العقد الزمني 1844-1854 عقدا حاسما في سياسة التوسع الاستعماري صوب الهضاب الوسطى الجزائرية ذلك أن فرنسا قادت العشرات من الحملات العسكرية خلال هذه الفترة المذكورة.³

وينتسب أولاد نايل إلى محمد بن عبد الله الخرشفي الملقب بنايل، ينتهي نسبه إلى الأدارسة، يقطنون الهضاب الوسطى الجزائرية ويصلون إلى غاية مشارف الصحراء ويتواجدون في الفضاء الممتد من وراء جبال التيطري والونشريس شمالا وإلى حدود تفرت ومرتفعات الزاب الغربي وجبال الأطلس الصحراوي جنوبا ومن الجهة الشرقية نجد الحضنة ومن الغرب جبال عمور.⁴

ويشكل أولاد نايل قبيلة مهمة تحتل مساحة شاسعة، وتنقسم إلى جزأين كبيرين، أسماؤهم مستوحاة من مكان تواجدهم وهم: أولاد نايل الشراقة من الناحية الشرقية Ouled Na'il Cheraga وأولاد نايل الغرابية من الناحية الغربية Ouled Na'il Cheraga⁵، وأدرك القادة العسكريون الفرنسيون أهمية تركب قبائل أولاد نايل في منطقة الهضاب العليا، لأنها أكثر قبائل هذه المناطق عددا وانتشارا وتأثيرا فهي تسيطر على كل مسالك الهضاب الوسطى بما فيها الحضنة ومشارف الصحراء، قدرها آغا شعيب لـ"ماري مونج" عام 1841 ما بين 80 إلى 100 ألف نسمة يتوزعون على أكثر من 20 ألف خيمة.⁶

وقفت قبائل أولاد نايل إلى جانب مقاومة الأمير عبد القادر لأنهم يملكون مئات الجياد، فبعث لهم طلبا للمساعدة وبداية الجهاد معه سنة 1835م.

¹ - عيسى عطاشي، مرجع سابق، ص 23.

² - Arnaud : Histoire des Ouled Nail, Revue Africaine, N°17 Année 1873, p. 311.

³ - برايج محمد الشيخ، نماذج من مقاومات أولاد نايل للتوسع الفرنسي في الهضاب الوسطى (1849-1854)، مجلة قضايا تاريخية، العدد 09، جوان 2018، ص 148، ص-ص 147-166.

⁴ - نفسه.

⁵ - Daumas Eugène, Chancel Ausone, Le Sahara algérien : études géographiques, statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie ouvrage rédigé sur les documents recueillis, Paris, 1845, p158.

⁶ - برايج محمد الشيخ، المرجع السابق، ص 149.

*الصورة الجغرافية والبشرية من خلال هذه الرحلة:

جاءت الصورة الجغرافية متنوعة طبيعية و بشرية في رحلة فرومنتان، فتحديد الأماكن ومسافات وذكر السكان وتعدادهم وأصولهم وعاداتهم و مناطق انتشارهم ومظاهرهم الحيوية، وكذا طبيعة الأرض والحيوان والنبات كلها مواضيع حوتها الرحلة التي وصلت إلى مواطن أولاد نايل في عين وسارة أو في قلعة السطل، فرسم لنا بقلمه صورة ناطقة للمعطيات الطبيعية والبشرية.

أولاً: المناخ والغطاء النباتي والحيواني:

وصف فرومنتان الصحراء كبلد كبير شبه فارغ، يكاد الصمت يخيم عليه من كل الاتجاهات، والشمس الحارة والحارقة التي ترهق روح الإنسان فارتفاع درجات الحرارة التي تصل إلى 32°¹.

وهذا الضوء حسب فرومنتان يمنحك نوعاً من الحيوية ولا يسبب لك أي تعب أو إرهاق، والظل في حد ذاته يبعث العديد من الانعكاسات التي لا تثبت النظر، فالشمس والهواء الجاف والخفيف، يمنحان للصحراء خصائصها الجغرافية المتميزة وكان لها الأثر العميق على الطبيعة والحياة، فالصحراء هي مملكة الشمس الخالدة "بصيفها الأبدى وفضاءاتها القاحلة المعزولة المحترقة التي يلفها صمت مطبق، ويجثم عليها جوٌ خانق مميت، التي تسمى بحق بلد العطش"².

ويحدد الكاتب ارتفاع الصحراء عن سطح البحر بحوالي 600 متر، و الجمال التي تسرح نهاراً بلا حارس، لتعود في المساء إلى الدوار على صوت البوق، ونبات الحلفاء الذي يشغل مساحات واسعة يعطي منظراً خلاباً حسب فرومنتان³.

ثانياً: حياة البدو في الصحراء:

إنّ الحياة الطبيعية التي يعيشها البدوي والمبينة على عامل الحرية في التصرف والتنقل والاستقرار، والمبينة أيضاً على التنقل والترحال وتربية الماشية والإبل والمبادلات الحرة، جعلته أكثر أنافة وترفعاً، وصبغته بصبغة خاصة لا يمكن أن نجدها إلا عند البدوي، "العربي لا يحب أن يظهر مسكنه، ليس أكثر من أن يكشف عن اسمه، أو الحديث عن أعماله، أو الإفصاح عن هدف سفره"⁴.

¹ -FROMENTIN ،Eugene : Un été au Sahara.p95

² - Ibid : P 95.

ينظر: علي بريغيث، صورة الجزائر عند الرحالة الفرنسيين "سنة في السهل" لأوجين فرومنتان، رسالة ماجستير، تخصص أدب مقارن، إشراف حميد ناصر خوجة، جامعة المدية، 2011-2012، ص69.

³ - Ibid : P99

⁴ - مرقومة منصور، المدينة الصحراوية في الجزائر، من نسق البداوة إلى ضرورة الاستقرار مقارنة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد 22،

-الكرم وحسن الضيافة:

إنّ الكرم الذي تحدث عنه "فرومنتان" يجعلك ترى أنّ هذا التصرف من صميم عادات العربي، والضيافة درس مهم لحسن العيش والكرم والمبادرة المشتركة، إنّها ليست ضرورات اجتماعية فحسب، بل تعاليم ربانية¹، فإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج، والوفاء بالعهد، من أهم خصائص الحياة البدوية.

و يشير فرومنتان أنّه بوصوله إلى دوار صغير من دواوير أولاد نايل "لقبيلة أولاد دحية إحدى بطون عرش أولاد نايل"²، لم يكن لدى الدوار أكثر من خمس عشرة إلى عشرين خيمة، والتي بالكاد تمثل قرية بدوية صغيرة، و وجد فيه قطعان كبيرة من الماشية فعادة هؤلاء البحث عن المراعي والتنقل بالماشية صوبها، لأنّ الصحراء مهجورة والجو حار جدا.

ويظهر أنّ هذا الدوار حسب فرومنتان كان له قائد، فقد اهتمّ هذا الأخير بربط الخيول وتوفير الراحة لهم وتقديم التمر وحليب الإبل وحفاوة الاستقبال تعود لكرم أهل الصحراء³.

فحسن الضيافة عند سكان الصحراء من العادات البارزة في حياتهم، وتقديم الضيافة للغريب تأخذ لدى المجتمع البدوي الصحراوي بعدا عقائديا وتكتسيها هالة من القداسة، يتسابق إليها الوجهاء والأثرياء والفقراء، على حد سواء فإكرام الضيف من العادات المتوارثة والمهمة⁴.

ثم ينتقل فرومنتان إلى وصف أطباق الوليمة وطريقة الأكل وكيفيةها بدقة وبكل التفاصيل، إلى أن يصل إلى القول بأنّ الضيافة عند الجزائري ليست من الواجبات الاجتماعية، هذه الأخيرة غير المعروفة تماما عند هذا الشعب ذو النزعة المعادية لما هو اجتماعي، وإنما بداعي توصية إلهية بعابر السبيل، لذا يعامل بهذه الكيفية، ومن هنا فإنّ اللياقة لا تنبعث من الأعراف والتقاليد ولكن من مبدأ ديني، ولذلك يمارسونها بذلك الاحترام الذي يولونه لكل ما هو مقدس، ويطبّقونها كعمل من أعمال التقوى والورع⁵.

وهذه الأهمية التي يولها المجتمع البدوي الصحراوي للضيافة، تكتسب قداستها من العقيدة الدينية إذ يعتبر الصحراوي الضيف مرسل الله كما يقول فرومنتان، والصحراويون لا ينعتهونه إلا بضيف ربي، فالإسلام حث على احترام الضيف⁶، ونلاحظ أنّ الكاتب وجد الراحة والأمان والصفاء والطمأنينة بين أفراد قبيلة أولاد نايل⁷.

1 - Ibid : P 26.

2 - Ibid : P75.

3 - Ibid : P75.

4 - أحسن دواس، صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين، مرجع سابق، ص94.

5 - FROMENTIN ،Eugenne : Un été au Sahara ،Paris. pp18 et 19

ينظر: أحسن دواس، نفسه، ص97.

6 - نفسه.

7 - Ibid : P 87 .

الخيمة:

خيمة أولاد نايل كما تعرف بالخيمة الحمراء أو البيت الحمراء، تصنع من الصوف والشعر ليوفر الحرارة والتدفئة وتفادي مياه الأمطار وكذا الوقاية من لفحات الشمس والحرارة، والخيمة عبارة عن قطع قماشية تخاط ببعضها كل قطعة تسمى "الفليج" تتفاوت أطوال الفليج أما العرض فعادة ما يكون 1م وينسج مباشرة على الأرض بغرس أوتاد تشد النسيج يتوسطه قطعتان خشبيتان¹.

هذه الخيمة وصفها فرومنتان بكل تفصيلها وشكلها الخارجي والداخلي ومكوناتها بقوله خيام حمراء مبطنة باللون الأسود مدعومة بالعديد من العصي ومثبتة على الأرض:

« ... Des tentes rouges, rayées de noir, soutenues pittoresquement par une multitude de bâtons, et retenues à terre par une confusion d'amarres et de piquets... »

وتحتوي الخيمة حسب فرومنتان على الأشياء الهامة في الحياة اليومية للبدوي من بينها أدوات المطبخ، وأثاث البيت، تراكمت بالداخل بطريقة عشوائية وعدة الحرب لصاحب الخيمة، الرحي الحجرية، لطحن الحبوب، المهراس الثقيل لدق الفلفل، الصحفة الخشبية أين يعجن الكسكس، الغريال، الكسكاس، جفان الحلفاء المضفرة، أكياس السفر أو التليس، بردعات الجمال، زرابي الخيام، النول لنسج الصوف، الفرجون الحديدي العريض والذي يستعمل في نفش وبر الجمال... الخ. ووسط هذه الفوضى صندوق أو صندوقان يحويان إضافة إلى حلي المرأة، الأشياء الثمينة الأخرى التي تمثل كل ثروة صاحب الخيمة².

وفي الخارج يشكل الموقد المجوف في الأرض دورا كبيرا، فهو مكون من ثلاث أحجار كبيرة، وبمرور الوقت يأخذ هذا الموقد اللون الأسود الداكن لكثرة استعماله اليومية³.

وأكداس من العليق والأشواك اليابسة، وقرب سوداء، معلقة بثلاثة أوتاد على شكل هرم، وحول هذا كله السهل الشاسع، والجمال التي تسرح بها، بلا حارس، لتعود في المساء إلى الدوار على صوت البوق، هو ذا المنزل المتنقل، أين يقضي البدوي الصحراوي نصف عمره⁴.

¹- جمعية أولاد نائل لحماية الآثار وترقية التراث، الخيمة النائيلية أو البيت الحمراء، مقال على الشبكة:

ساعة الارتباط: 13، 2019/09/19.23، blog-post_16 -ouladnailmessaad.blogspot.com

²- FROMENTIN، Eugène : Un été au Sahara، p75. أحسن دواس، نفسه، ص25. ينظر:

³-Ibid: 75 .

⁴- FROMENTIN، Eugène، أحسن دواس، نفسه.

وبنوع من السخرية يعلق فرومنتان على حياة البدوي التي يقضي نصفها في تهذيب زوجته وحماية بيته والنصف الثاني من حياته يمر في السفر (رحلة مثيرة للإعجاب) بحيث ينتقل من مكان إلى آخر بدون أن يوجه نظره للتطور الحاصل في أوروبا في منتصف العصر الحديث¹.

ولعل فرومنتان قد اختمرت في فكره صورة المرأة النابلية ورسمها في لوحاته (الملاحق)، فيذكر أنه عندما وصلت القافلة الفرنسية إلى قصر البخاري في ساعة متأخرة من الليل، كلف القائد العسكري بعض العرب من هذه المدينة بتنظيم حفلة موسيقية راقصة، وقد استمتع الفرنسيون في تلك الليلة برقصة الفتاة النابلية "الغزالة" وأخذوا قسطاً وافراً من الراحة والتسلية والترفيه².

خاتمة:

وصفوة القول أنّ أوجين فرومنتان نجح بفضل سحر الجزائر وجمال مناظرها، وفرسانها، ومظاهر الحياة فيها، وبيوتها، وتراثها الإسلامي، وشغفه بصحرائها، في احتلال مكانة هامة أدبيا وفنيا، فقد قام بتدوين كلما رآه وشاهده من أحداث وصور من خلال احتكاكه بالطبيعة و الإنسان الصحراوي، وبالتالي كوّن مادة خبرية متنوعة بين ما هو تاريخي واقتصادي و اجتماعي و سياسي، تخدم الباحثين في مجالات عدّة، خاصة لدى الطلاب الجامعيين الشغوفين بهذا المجال التاريخي "دراسة الأنا من خلال الغير" للمساهمة في كتابة التاريخ الوطني والمنطقة بطريقة علمية أكاديمية وإثراء مصادر البحث العلمي والتاريخي.

*إنّ اتجاه فرومنتان إلى الكتابة عن الجزائر راعى من خلاله مصالح بلده وكان يدفعه إلى ذلك حبه لمصالح بلده والرغبة في إظهار جوانب العظمة والقوة للدولة الفرنسية، وهو بذلك لا يختلف عن غيره من المستشرقين غير المنصفين والذين يتصرفون باستعلاء، فهو عندما ينقل صورة الحرب على الأغواط يفتخر بانتصارات فرنسا وقوتها أمام الأهالي المهزومين "نظرة الغالب إلى المغلوب".

وعموماً يعد كتاب "صيف في الصحراء" للرحالة والأديب الفنان أوجين فرومنتان وثيقة تاريخية مهمة لما تحتويه من مادة خبرية متنوعة مست جوانب عديدة تتعلق بمنطقة الجلفة وأولاد نايل والأغواط عالجت الرحلة جانبا مهماً ألا وهو الإنسان الصحراوي مكانا وزمانا وإنسانا.

ولست أزعم في هذه الدراسة بأنني قد أثبت على كل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع، فبلا شك أن آفاقه لا زالت تتسع للكثير، وكل ما قمت به ما هو إلا جهد متواضع يحاول بقدر الإمكان أن يضيف جزء يسيرا إلى الدراسات التاريخية الأكاديمية التي تناولت التاريخ السياسي الثقافي لربوع أولاد نايل خلال الحقبة الاستعمارية، هذا التاريخ الذي يبقى دائما مجالا خصبا يحتاج إلى مزيد من البحث.

¹ - Ibid :P87.

² -FROMENTIN ،Eugenne : Un été au Sahara.p86.

قائمة المصادر والمراجع :

المصادر:1-

-M. Gonse Louis, Eugène Fromentin peintre et écrivain, Paris, 1881.

-Théophile Gautier, Voyage pittoresque en Algérie (1845), édité par Madeleine Cottin, Genève-Paris, Librairie Droz, introduction de l'éditeur, p. 92.

books.google.dz/books?isbn=260003529x((consulté le:10/09/2019).

-EUGENE FROMENTIN ,Un été au Sahara, A. Lemerre (Paris) ,1874.

- .,Une année dans le Sahel, (Paris) ,1859.

-,de Sahara et Sahel, (Paris) .

مقال بالفرنسية:

- Arnaud : Histoire des Ouled Nail, Revue Africaine, N°17 Année 1873, p. 311.

2- المراجع:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1830، 08-1954م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998.

-عفيف الهنسي، أثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، دار الكتاب العربي، القاهرة، ودار الوليد، دمشق، ط1، 1998.

- زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي، عالم المعرفة، الكويت، 1998.

3- المقالات العلمية:

- أنساعد سميرة، الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الفرنسيين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين تسجيل فونوغرافي أم تصوير تخيلي، مجلة دراسات، العدد الثاني، ديسمبر 2012، صص 19-36.

-جمال مفرج، جميلات الجزائر في اللوحة البصرية الاستشراقية، مجلة جماليات ، العدد1، شتاء 2014، تصدر عن مختبر الجماليات البصرية في الممارسات الفنية الجزائرية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، صص 8-22.

- مرقومة منصور، المدينة الصحراوية في الجزائر، من نسق البداوة إلى ضرورة الاستقرار مقارنة أنثروبولوجية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد22، <https://revues.univ-ouargla.dz> 2015.

-هرياش زاجية، الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين "دوماس أنموذجا"، مجلة عصور الجديدة، العدد06، عدد خاص بخمسينية الاستقلال، ربيع1433هـ/2012م، صص 29-40.

-عيسى عطاشي، أوجان فرومونتان، ومنهجه في كتابة رحلاته، مجلة الباحث، جامعة الاغواط، صص 95-104.

-برايح محمد الشيخ، نماذج من مقاومات أولا نايل للتوسع الفرنسي في الهضاب الوسطى (1849-1854)، مجلة قضايا

تاريخية، العدد09، جوان 2018، صص 147-166.

-علالي محمود، وصف المركز العسكري بالجلفة من خلال كتاب صيف في الصحراء للكاتب أوجين فرومنتان، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد10، سنة2014، ص ص15-24.

-زينب عبد العزيز، أوجين فرومنتان بين الكلمة واللون، مجلة الدوحة، العدد09، 1 سبتمبر1976، قطر، ص ص91-97.
- سيد علي اسماعيل، الصحراء والصيد في لوحات فرومنتان بين النقد والفن، مجلة تراث الإمارات، العدد123، نوفمبر2009، ص ص03.

-علي بريغيث، صورة الجزائر عند الرسام والكاتب الفرنسي أوجين فرومنتان "في كتابه سنة في السهل"، مجلة التراث، 2014، ع 14، ص ص 114-128.

4-الرسائل الجامعية:

- أحسن دواس، صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين-مقاربة سوسيو ثقافية- مذكرة ماجستير، إشراف الأخضر عيكوس، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب واللغات، 2007-2008.
-علي بريغيث، صورة الجزائر عند الرحالة الفرنسيين "سنة في السهل" لأوجين فرومنتان، رسالة ماجستير، تخصص أدب مقارنة، إشراف حميد ناصر خوجة، جامعة المدية، 2011-2012.

- عيسى عطاشي، صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء لفرومنتان نموذجاً"، رسالة ماجستير، تخصص دراسات نقدية مقارنة، إشراف أحمد منور، جامعة الجزائر، 2005-2006.

5-المواقع على الشبكة: <https://www.registre-des-arts.com> -19.00، 2019/09/01.

www.albayan.ae -أوجين فرومنتان ولج الشهرة عبر صحراء الجزائر، مجلة البيان، المقال بتاريخ11 جوان2013،

- جمعية أولاد نائل لحماية الآثار وترقية التراث، الخيمة النائية أو البيت الحمراء، مقال على الشبكة:

oouladnailmessaad.blogspot.com > blog-post_16 ساعة الارتباط: 13، 2019/09/19.23 -

الملاحق:

الملحق رقم 202:



الملحق رقم 101:



¹ - صورة تمثل بعض النسوة من اولاد نائل 1867، رسمها فرومنتان. ينظر:

-M. Gonse Louis, Eugène Fromentin peintre et écrivain, P201.

² - امرأة ناييلية (بسكرة مارس 1848)، رسمها فرومنتان.

الملحق رقم 103¹



¹ Femme des Ouled-Nayl :de la première partie "Un été dans le Sahara" : p.98

Bangabandhu's Anti-injustice Thinking: A Review from Islamic Perspective□

التفكير المناهض للظلم لصديق البنغال : مراجعة من منظور إسلامي

Md. Ridwan Ullah, M.Phil, /Islamic University, Kushtia-Bangladesh

محمد رضوان الله / الجامعة الإسلامية، كوستيا، بنغلاديش

ملخص:

أجريت هذه الدراسة بهدف تقييم التفكير المناهض للظلم لأبي الشعب صديق البنغال المؤسس الحقيقي لدولة بنغلاديش، الشيخ مجيب الرحمن، على ضوء النظرة الإسلامية. بينما كان الظلام يتجمع في سماء بنغلاديش- البنغالية الشرقية آنذاك- في ظل ظروف ظالمة وديكتاتورية، ظهر زعيم إنساني عظيم كاريزمي، الشيخ مجيب الرحمن- كانت عاداته الطبيعية الوقوف ضد المظالم- بشعلة من النور لرسم الابتسامة على وجه الإنسانية العاجزة. كان يحلم بتأسيس بنغلاديش ذهبية مستقلة بالاحتجاج على جميع المعاملات الديكتاتورية مع شعب البنغال. منذ نعومة أظفاره، كان يغني: "أرض البنغال؛ سأبقىك جميلة". فتفانيه الأسمى للوطن شرفه بلقب "أبي الشعب".

الكلمات المفتاحية: صديق البنغال، الشيخ مجيب الرحمن، التفكير المناهض للظلم، منظور إسلامي.

Abstract:

The aim of the present study is to evaluate anti-injustice thinking of Sheikh Mujibur Rahman, the father of the Bengali Nation, on the basis of Islamic view. While the darkness was being gathered in the sky of Bangladesh, the then east Bangla, in the unjust, oppressive and dictatorial circumstances, a great charismatic leader of humanity, Sheikh Mujibur Rahman, appeared with a torch of light to put laughter in the face of helpless people, as his natural habit was to stand against injustice. He dreamt to create an independent Sonar Bangla protesting all dictatorial treatment with Bangali people. From his early age, he used to sing: 'the soil of my Bengal; I'll keep you beautiful'. His paramount dedication for the country made him 'the father of the nation'.

Key words: Bangabandhu, Sheikh Mujibur Rahman, Anti-injustice, Islamic Perspective.

I. Introduction:

Almighty Allah sent the mankind with two duties. Allah says, 'You are the best of peoples, evolved for mankind, enjoining what is right, forbidding what is wrong, and believing in Allah.'¹ Sheikh Mujibur Rahman is the poet of politics, the sanctuary of Majlum, the ultimate friend of oppressed humanity, the best Bengali of thousand years and 'the nation-savior hero of Bangladesh'.² It's a name, an organization, a dream, a history. Foreign author Ranjan said, "Many people are born in the country. Some are a line of history; some are a page, someone is a chapter. But someone is the whole history. Sheikh Mujib is the name of whole history. The basis of every steps of Sheikh Mujib was loud tone of voice against wrong doing. Shaukat Osman, an eminent scholar, truly said, 'In the almost thousand years of history of Bengali Muslim society, only two talented Bengali have been born. One is rebel poet, Kazi Nazrul Islam, and another is Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman'.³ He appeared as a rabble rousing leader against all ethnic and institutional discrimination of Bengalis. His unquestionable and uncompromising leadership made him a symbol of hopes and aspiration of the people. Finally, the UNESCO recognized his revolutionary speech of 7th march, 1971 as 'World Documentary Heritage', for it's epoch-making impact and importance.⁴ It has been observed that "No man in the entire history of modern world except Mao for different reasons has hypnotized his people as Mujib did".⁵ The Mujib year 2020 reminds us that Bangabandhu is not dead. He will live in the heart of Bangali forever.

II. Research Methodology

This study was based secondary source of information. Secondary information was gathered through available literature review from different journal, website, articles, books, essays and national and international newspapers.

¹-Surah Al Imran: 110

²-Stanley A Wolpert, Jinnah of Pakistan, London: Oxford University Press, 2005, p. 442

³- Dr. Md. Rahim Ullah, Shaheed Bangabandhu and Muslim World, Islamic Foundation Quarterly Magazine, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, Year 38, Issue 3, January-March 1999, p.95

⁴ -UNESCO, The Historic 7th March Speech of Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, 2017, <http://www.unesco.org/new/en/communication-and-information/memory-of-the-world/register/full-list-of-registered-heritage/registered-heritage-page-4/the-historic-7th-march-speech-of-bangabandhu-sheikh-mujibur-rahman/>, 26.08.2020

⁵-Y. Bhatnagar, (1971). Mujib- The architect of Bangladesh, New Delhi, R.K. Printers.

III. Findings and Discussion

3.1 Short Biography:

3.1.1 Early life and education:

Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman was born in a respectable Muslim Family on 17 March, 1920, in a riverside village Tungipara under the then Gopalganj district in the province of Bengal in British India.¹ He was the third child among four daughters and two sons of Sheikh Lutfar Rahman and Sheikh Shahara Khatun.

At the age of seven (1927), Bangabandhu began his schooling at Gimadanga Primary School. At nine, he was admitted to class three at Gopalganj Public School, two year later, class four at Madaripur Islamia High School. Subsequently, he was transferred to a local Missionary School. He passed his Matriculation exam from Gopalganj Missionary School in 1942 and Intermediate from Islamia College.² Later he got himself admitted at the University of Dhaka in the Department of Law.³

3.1.2 Married life of Mujib:

He got married with Sheikh Fazilatunnesa at the age of 18 years. Together they had two daughters—Sheikh Hasina, the present Prime Minister and Sheikh Rehana—and three sons—Sheikh Kamal, Sheikh Jamal, and Sheikh Rasel.⁴

3.1.3 Political contribution:

After taking admission in Islamia College he became engaged with different student organization as the key leader. Later, he held various key posts of Muslim League & Awami League. He worked as the hero of redemption in every movement to protect the rights of the Bangalis including the Language Movement of 52, the Education Movement of 62, the 6-point Movement of 66, the People's Uprising of 69, the Independence Movement of 71. Finally, under his successful leadership, the people of Bangladesh won an independent Sonar

¹-Sheikh Hasina, (edt. Perth Ghosh), Sheikh Mujib My Father, Calcutta: 1999, p. 28

²-Sheikh Mujibur Rahman, The Unfinished Memories, Bangladesh: The University Press Limited, 3rd printing, 2017, p. 23

³-Harun Aur Rashid, Banglapedia (Edit: Sirajul Islam), Dhaka: Bangladesh Asiatic Society, 2nd ed. 2011, v.12, p. 22

⁴-Md. Ashikur Rahman, Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman's Contribution to Establish Islamic Ideals and Values in post Independence Bangladesh, Dhaka: University of Dhaka, 2015, p. 18

Bangla through a bloody war of nine months.¹ On the night of August 15, 1975, a group of wayward army officers assassinated Mujib and all of his family members except the two daughters.²

3.2 Bangabandhu's anti-injustice thinking:

3.2.1 Protesting teenager:

At the stage of very beginning of life, Bangabandhu proved the proverb 'morning shows the day'. Our Prophet Mohammad (SM) contributed to stop Battle of Fizar (Harbul Fizar) by creating 'Hilf-al-fudul' at the age of 15.³ Mujib observed the cracked roof of Missionary school & stood against this negligence. He led a group of students to demand that the cracked roof of the school be repaired when Sher-e-Bangla A. K. Fazlul Huq, Chief Minister of Undivided Bengal, came to visit the school along with Hussein Shaheed Suhrawardy in 1939.⁴

3.2.2 Non-communal ideology:

Mujib grew up in a well-respected Muslim family. On the other hand the family genealogy shows that Bangabandhu was the seventh generation of the great saint & preacher of Islam Sheikh Awal as well as a brilliant inheritor of Islamic tradition and culture.⁵ Growing up in a lovely environment of social harmony and family tradition made him a believer in the non-communal ideology. The Medina Charter is a shining example of this ideology. Allah says: 'If any one killed a person not in retaliation of murder, or to spread mischief in the land- it would be as if he killed all mankind, and if any one saved a life, it would be as if he saved the life of all mankind'.⁶

¹-Bangladesh Awami league (BAL), Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, 2017, <http://www.albd.org/pages/7/Bangabandhu-Sheikh-Mujibur-Rahman>, 26.08.2020

²-Anu Mahmud, Bangabandhu murder verdict Redemption of the nation, Dhaka: National Publication, 2017, p. 277-280

³- <https://www.islamweb.net/ar/article/183163/حلف-الفضول>, 24 August 2020

⁴- Md. Sayedur Rahman & others, Evaluation of Charismatic Leader of Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, International Journal of Scientific and Research Publications, Volume 4, Issue 5, May 2014 1 ISSN 2250-3153

⁵-Shamim Mohammed Afzal, The Father of The Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman in Preaching & Propagating Islam, Islamic Foundation, 2011, p.4

⁶-Surah Al-Maidah: 32

3.2.3 Ethical Impact of House Tutor in Childhood:

During his study in class five, Bangabandhu was impressed by the moral character of his house tutor Hamid Master,¹ the courageous activist of anti-British independence movement.² Imprisonment of teacher for being active in the movement against the injustice of British left strong hatred in the mind of child Mujib against wrongdoing. Allah sent Prophet SM to save the people from all wrongdoing. Allah says: '(This is) a Book which We have revealed to you in order that you might lead mankind out of darkness into light'.³

3.2.4 Close companionship of iconic leaders and their Spiritual influence:

Bangabandhu's political career was inaugurated while he was a student at Gopalganj Missionary School. In 1943, he joined Bengal Muslim league in affiliation with Hussein Shaheed Suhrawardy (Fifth prime minister of Pakistan). His active social consciousness and political dedication help him to come in intimate touch with the great leaders like Netaji Shubash Bose, Sher-e-Bangla A. K. Fazlul Huq, Hussein Shaheed Suhrawardy and Abul Hashem, revered scholar Shamsul Haq Faridpuri, Maulana Abdul Hameed Khan Bhasani, Maulana Abdul Rashid Tarkabagish who were the great fighters of independence struggle of India. The non-communal, humanist personalities, adventurous and patriotic companion of these great leaders played a bold and courageous role in making-up of Mujib's rabble rousing mentality against all misdeeds.⁴ The four caliphs of Islam also were influenced by their great leader Prophet Mohammad SM.

3.2.5 Observing the politics of division:

While he was in Calcutta in pursuing higher education, he was observing the politics of division. Allah says emphasizing on unity for good deeds: 'And hold fast, all of you together, to the Rope of Allah and be not divided among yourselves'.⁵ Due to the divided politics of Congress and Muslim League, the socio-political life of

¹- Sheikh Mujibur Rahman, Ibid, p. 11

²-Shamim Mohammed Afzal, Ibid, p.4

³-Surah Ibrahim: 1

⁴-Dr. Mohammed Yusuf, Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman to develop religious consciousness, Islamic Foundation Quarterly Magazine, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, Year 57, April-June 2018, p. 42-43, R A. M. Ubaydul Moktadir Chowdhury, Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman: Life and Work, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, 3rd edition, 2014, p. 8

⁵-Surah Al-Imran: 103

Bengal was severely wounded up.¹ These inhuman and unstable political situations made him very upset and rebellious against injustice.

3.2.6 Leadership in suppressing Hindu-Muslim riots:

In 1946, suddenly a communal riot took place. It was a great challenge to mitigate this riot that broke out in the wake of the partition of India and the birth of Pakistan. Later, in 1956 there another riot took place. Mujib led volunteer force to suppress riot and establish peace between Hindu and Muslim. Our Prophet said: 'O people, your Lord is one and your father Adam is one. There is no favor of an Arab over a foreigner, nor a foreigner over an Arab, and neither white skin over black skin, nor black skin over white skin, except by righteousness'.²

3.2.7 Leadership in the mother tongue protection movement:

Language is a creation of almighty Allah. It is an effective way to express what is in one's mind. In this case, there is no difference between white and black, elder and younger, rich and poor or muslim and non-muslim. Allah says, 'And we sent not a Messenger except with the language of his people, in order that he might make (the Message) clear for them'.³ However, the Prophet (SM) urged his trainer Sahabee (Companion) to learn the language of the apostolic region. When he ordered Zaid bin Sabit to learn the language of the Jews, he learned it within 15 days.⁴ The ransom of the war prisoners of Badar Jihad was fixed 400 or 4000 dirhams, but for those who had financial ability and knowledge of letters, the Prophet (SM) set their ransom to teach the knowledge of letter to sons of Ansar.

Pakistan disregarded that message and tried to force another language onto Majority People of East Bangla who speaks Bangla as their mother tongue. Bangabandhu protested against the discriminatory implementation of Urdu as the only national language by the rulers of Pakistan. He led the strike on 11 march, 1948. As a result, he got arrested. After his arrest on March, he was detained in various jails till February 1952. During this blood-drenched language movement of 1952 he led the movement from inside of bars. He fought in the Constituent

¹- R. A. M. Ubaydul Moktadir Chowdhury, Ibid, p. 8

²- Musnad Ahmad 22978

³- Surah Ibrahim: 4

⁴- Tirmiji: 2715

Assembly to recognize Bangla as a state language. At the 26th session of the UN on September 17, 1974, he delivered his lecture in Bangla before whole human being of the world.¹

3.2.8 Leading against unjust treatment by the university administration:

Mujib got himself admitted at the University of Dhaka in the Department of Law. During his studies at Dhaka University, the unjust treatment of university administration to lower grade employees made him rebel against injustice. So he supported the lower grade employees to strike against unjust treatment. As a result, he was expelled from the University but he did not come to the University to bow his head to injustice.

3.2.9 Paramount Dedication and Illegal imprisonment:

This unquestionable leader was active in politics for 37 years of his life of only 55 years. Unfortunately and illegally, he had to spend 40% in the jail and 48% among the people of his 33 years before liberation war.² He faced with the death for two times in 20 years of Pakistan.³ But he never compromise with injustice and bowed his head to oppression, injustice and violence.

3.2.10 Speaking the truth before unjust ruler:

Afraid of public support for Mujib's 6-point demand, the then Pakistani government put him behind the bars to kill to vandalize the independence movement of Bangladesh.

Bangabandhu was shown arrested as number one accused who with other accused were secretly planning to separate East Pakistan by force with the help of India.

This case is known as the Agartala Conspiracy case.⁴ He didn't lose his courage for a moment and never bowed to conspiracy. At last they became bound to release the great hero. Our prophet SM praised this virtue and said that the best Jihad is "a word of truth spoken before an unjust ruler".⁵

¹-Shamuzzaman Khan (edit: Dr. Shahadat Hossain), Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, 1998, p.303

²- Abul Barakat, Bangabandhu-Equality-Imperialism, Dhaka: Freedom of mind publication, (2015), p. 20

³ R. A. M. Ubaydul Moktadir Chowdhury, Ibid, p. 9

⁴ -Harun-or-Rashid, Banglapedia, Rahman, Bangabandhu Sheikh Mujibur, 2015, http://en.banglapedia.org/index.php?title=Rahman,_Bangabandhu_Sheikh_Mujibur, 26.08.2020

⁵-Sunan an-Nasa'i: 4209

3.2.11 To fight for human rights:

Iron man, a humanitarian, a soldier of truth and human rights, tiger of Bengal, has shown the utmost courage of the overwhelming leadership by sacrificing his life against oppression, injustice and discrimination.

In 1966 he proclaimed Six Point Demands the carta of liberation of the deprived, taking away the economic, social and political rights of the exploited people, the assurance of religious co-operation, the key to self-reliance and respect for self-esteem.¹ He declared war to liberate 7 crore people in Dhaka on March 7, 1971.. "The struggle now is the struggle for our emancipation; the struggle now is the struggle for our independence. Joy Bangla! Allah Ta'ala says, 'Permission to fight (against disbelievers) is given to those (believers) who are fought against, because they have been wronged; and surely, Allah is able to give them (believers) victory'.² He responded to the words of the Holy Quran. Allah says, 'And what is wrong with you that you fight not in the cause of Allah, and for those weak, ill-treated and oppressed among men, women, and children, who cry is: our Lord! Rescue us from this town whose people are oppressors; and raise for us from you one who will protect, and raise for us from you one who will help'.³

3.2.12 Supreme sacrifice to protect the country:

The revolutionary patriotism of Isha Khan, one of the Bengali generals of the Bar Bhuiyan, Haji Shariat Ullah, Pir Dudu Mia and Titumir tremendously influenced on the rebellious sentiment of Mujib.⁴ He has set a unique example of patriotism in every step of his life.

Allah's Apostle said, "To guard Muslims from infidels in Allah's Cause for one day is better than the world and whatever is on its surface, and a place in Paradise as small as that occupied by the whip of one of you is better than the world and whatever is on its surface; and a morning's or an evening's journey which a slave (person) travels in Allah's Cause is better than the world and whatever is on its surface'.⁵

¹-Dr. Shahadat Hossain (edt), Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, Dhaka, Islamic foundation, 1998, p 403

²-Surah Al-Hajj: 39

³-Surah An-Nisa: 75

⁴-Sheikh Mujibur Rahman, Ibid, p. 23

⁵-Sahih al-Bukhari: 2892

Bangabandhu said, "When I go to the gallows, I will say that I am Bangali, Bangla is my country, Bengali is my language".¹ On March 7, 1971 he called for independence. Then the Pakistani occupation forces arrested him on March 25, 1971, from his Dhanmondi residence during the late-night crackdown on the people of Bangladesh.

3.2.13 Avoiding animosity, Generosity for the Defeated:

On the day of returning from Pakistan jail he delivered a historic speech in New Delhi, emphasizing on avoiding animosity, the victory for righteousness, Generosity for the defeated and the world brotherhood.² From Abu Hurairah (R), the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him) said that, 'a believer is a symbol of love and kindness. There is no welfare in that person, who does not love anyone and does not get love of anyone'.³

Conclusion:

The advent of a visionary leader like Bangabandhu was essential in a small but populous country like Bangladesh. From adolescence till the last moment of his life, he has only loved the country and the people selflessly. Fidel Castro remarked: "I have not seen the Himalayas. But I have seen Sheikh Mujib". We believe that the dreams of Bangabandhu will be successfully implemented under the auspices of the present Prime Minister Sheikh Hasina, who has strong leadership in the absence of Bangabandhu.

Works Cited:

1. UNESCO, The Historic 7th March Speech of Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, 2017, <http://www.unesco.org/new/en/communication-and-information/memory-of-the-world/register/full-list-of-registered-heritage/registered-heritage-page-4/the-historic-7th-march-speech-of-bangabandhu-sheikh-mujibur-rahman/>
2. Surah Al Imran: 110
3. Stanley A Wolpert, Jinnah of Pakistan, London: Oxford University Press, 2005
4. Dr. Md. Rahim Ullah, Shaheed Bangabandhu and Muslim World, Islamic Foundation Quarterly Magazine, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, Year 38, Issue 3, January-March 1999

¹-Shamuzzaman Khan (edit: Dr. Shahadat Hossain), Ibid, p.293

²-Md. Ashikur Rahman, Ibid, p. 18

³-Mishikatu Masabih, 4995

5. Y. Bhatnagar, (1971). Mujib- The architect of Bangladesh, New Delhi, R.K. Printers.
6. Sheikh Hasina, (edt. Perth Ghosh), Sheikh Mujib My Father, Calcutta: 1999
7. Sheikh Mujibur Rahman, The Unfinished Memories, Bangladesh: The University Press Limited, 3rd printing, 2017
8. Harun Aur Rashid, Banglapedia (Edit: Sirajul Islam), Dhaka: Bangladesh Asiatic Society, 2nd ed. 2011
9. Md. Ashikur Rahman, Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman's Contribution to Establish Islamic Ideals and Values in post Independence Bangladesh, Dhaka: University of Dhaka, 2015
10. Bangladesh Awami league (BAL), Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, 2017, <http://www.albd.org/pages/7/Bangabandhu-Sheikh-Mujibur-Rahman>
11. Anu Mahmud, Bangabandhu murder verdict Redemption of the nation, Dhaka: National Publication, 2017
12. <https://www.islamweb.net/ar/article/183163/حلف-الفضول>, 24 August 2020
13. Md. Sayedur Rahman & others, Evaluation of Charismatic Leader of Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, International Journal of Scientific and Research Publications, Volume 4, Issue 5, May 2014 1 ISSN 2250-3153
14. Shamim Mohammed Afzal, The Father of The Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman in Preaching & Propagating Islam, Islamic Foundation, 2011
15. Surah Al-Maidah: 32
16. Surah Ibrahim: 1
17. R A. M. Ubaydul Moktadir Chowdhury, Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman: Life and Work, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, 3rd edition, 2014
18. Surah Al-Imran: 103
19. Musnad Ahmad 22978
20. Surah Ibrahim: 4
21. Tirmiji: 2715
22. Shamuzzaman Khan (edit: Dr. Shahadat Hossain), Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, 1998
23. Abul Barakat, Bangabandhu-Equality-Imperialism, Dhaka: Freedom of mind publication, 2015

24. Dr. Mohammed Yusuf, Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman to develop religious consciousness, Islamic Foundation Quarterly Magazine, Dhaka: Islamic Foundation Bangladesh, Year 57, April-June 2018

25. Harun-or-Rashid, Banglapedia, Rahman, Bangabandhu Sheikh Mujibur, 2015, [http://en.banglapedia.org/index.php?title=Rahman, Bangabandhu Sheikh Mujibur](http://en.banglapedia.org/index.php?title=Rahman,_Bangabandhu_Sheikh_Mujibur)

26. Sunan an-Nasa'i: 4209

27. Dr. Shahadat Hossain (edt), Father of the Nation Bangabandhu Sheikh Mujibur Rahman, Dhaka, Islamic foundation, 1998

28. Surah Al-Hajj: 39

29. Surah An-Nisa: 75

30. Sahih al-Bukhari: 2892

31. Mishikatu Masabih, 4995.



جميع الحقوق محفوظة
© مركز جيل البحث العلمي